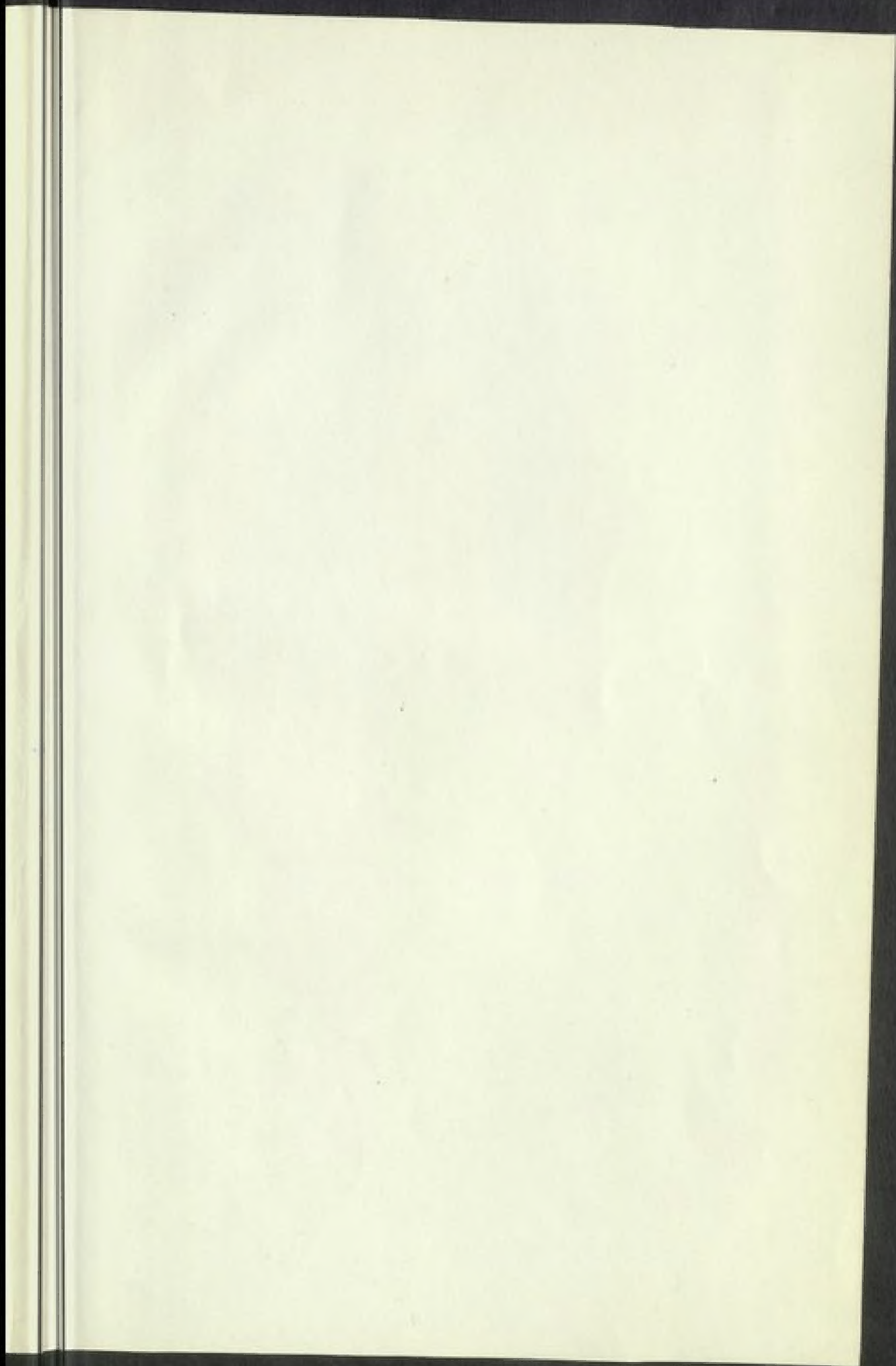


A.U.B. LIBRARY

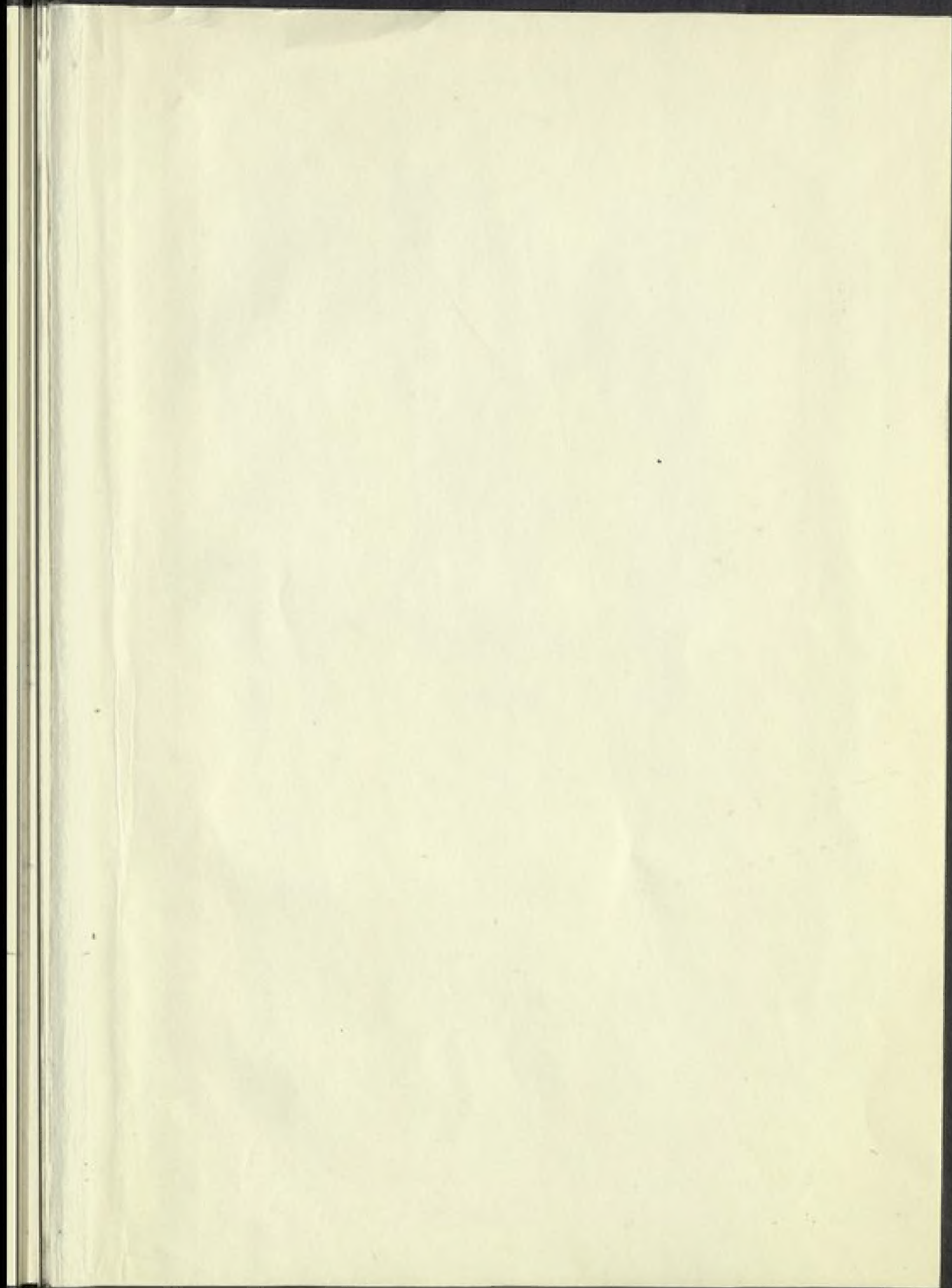
Y 25 1 144



بسم الله الرحمن الرحيم

ثلاثة اعوام
في محنة وحرارة

تحت إشراف وزارة المعارف



915.69
Y924A6
V.1

مباحث الجهنبيّة في تاريخ لبنان



ثلاثة أعوام في مصر وبر الشّمال

بقلم

س. ف. فولني

نقلها الى العربية

ادوار البستاني

الجزء الاول

مَنشورات وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة

عنوان الكتاب بالفرنسية



VOYAGE

EN SYRIE et en EGYPTÉ

pendant les années 1783, 1784 et 1785

par

M.C.-F. VOLNEY

PARIS, 1787

(Edition Originale)

avec Approbation et Privilège du Roi.

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، ايلول ١٩٤٩

كلمة المعرب

هذا الرجل البجاعة العبقري « فولني » الذي جاء الشرق في
اواخر القرن ~~الثامن~~ عشر ، لم يأت كسائر رحالي الفرنجة الذين
ندافعوا اليه على التوالي بسائفة الفضول ، مشغوفين بصوفيته
الغامضة ، وروحانيته المبهمة الغائبة . بل لعله انطلق اليه بقصد معين
ومهمة اناطتها به حكومته عهدئذ لاستطلاع احوال الساطنة
العثمانية في ذلك الشطر من العالم الذي ما يرح مطمح الفاتحين
ومحط اطماعهم منذ اقدم العصور والازمنة . على ان الذي يعيننا
من الامر ، وقد انقضت على رحلة هذا العالم الكبير مائة وست
وستون سنة ، ان نستجلي ، على ضوء معلوماته الدقيقة ومباحثه
الرصينة ، حقبة من تاريخنا الحديث اصبحت ، على قرب عهدنا بها ،
محاطة باحجية الشك والابهام ، وتكاد تطفو على حقيقتها الاطمان
والاساطير . فقد خالط هذا الرحالة السكان وعاشهم وشافهم
بمعزل عن التواجم لانه تعلم لغتهم وانقضا كتابية ومكاملة . وتوغل
في اطراف البلاد واقاصيها ، ولم يبعادتها وشرائعها ، واستطلع
دخائلها ، فضاف رهبانها ومشايخها ، وحلل طبائع رجالها ، وتسلل
بالدرس الى اخدار نساها بما عرفه عنهم من الفرنجيات المقيبات في
البلاد . فلم تخف عنه شاردة ولا فائتة خفية . بل يدهشك ان

تراه ، وهو الاجنبي الفرنسي ، قد سير غور تلك الاصقاع الشرقية ،
وكشف النقاب عن احوال واخلاق وشيم وعادات دقت معرفتها
على مؤرخي ذلك العصر الذي كانت تسوده الغنصرية الذميمة
وتنحكم في مقدراته عصبية الدين والطائفة والمذهب .
وها نحن نفتح دفتي كتابه امام قراء العربية .

ادوار البستاني

دير القمر ، ايلول ١٩٤٩ .

المقدمة

نشر الأول ١٩٨٦

منذ خمس سنوات - وكنت في مطلع الشباب - قد ولي ان
احصل من طريق الارت على مقدار من المال فلكنتي الحيرة في
وجه استعماله . واراد بعض صهي ان استمتع به بدلاً وانفاقاً ،
في حين ان بعضهم الآخر نصح لي ان استفيد من ريعه .
ورجعت الى نفسي ، فوجدت ان المبلغ اضعف من ان يزيد على
دخلي شيئاً محسوساً ، وانه مع ذلك من الضخامة بحيث لا يجوز
في تبديده في نفقات لا طائل نحتها . وكانت احوال حنة الطالع
قد عودت شباني على الدرس والاطلاع ، فتذوقت الاقتباس حتى
كلفت به . ورأيت في ثروتي وسيلة جديدة لارضاء نزعتي ، وفتح
آفاق اوسع لتقافتي . وكنت قد قرأت وسمعت بالترداد ان السفر
انجع الوسائل لتجديد العقل وتهديب قوته المميزة . فصبرت على
السفر ، وبقي علي ان اخار ميداني . وادته طريفاً زاهياً معجباً .
فبدت لي بلادتي وما جاورها من البلدان شيئاً اعرفه او تسهل
معرفته . وجذبتني تجربة نحو اميركا الناشئة ومتوحشيتها . بيد ان
اعتبارات أخرى حرفت عزيمتي الى آسيا . وبدأ لي ان سوريا
ومصر ، باضيمها وحاضرمها ، حفل صالح لما اردت الانصراف اليه
من الاتجاه السياسية والاخلاقية . وفلت في نفسي وان معظم

المذاهب التي تسوسنا قد نشأت في تلك الاصفاع ، ومن هناك
انبتت الافكار التي ألوت ابلغ التأثير في خالقينا العامة والخاصة ،
وفي شرائعنا ، وفي مجمل احوالنا الاجتماعية . فمن الجدير بالاهتمام
اذن التعرف بالاماكن التي ترعرعت فيها تلك المذاهب ، والعادات
والاخلاق التي عملت على تكوينها ، وبمنهجية وطرائق الامم التي
دانت بها . ومن الجدير بالاهتمام ايضاً البحث في تلك الاخلاق
والعادات الى اي حد نشوهت او بقيت سليمة ، والتنقيب عن
مدى تأثير المناخ ومفاعيل الحكم واسباب العادات ، وبكلمة
موجزة ، النفاذ الى حالة العصور الغابرة على ضوء الحالة الحاضرة .
وقد تبصرت ، من ناحية اخرى ، بالاحوال السياسية التي تحيط
بالسلطنة العثمانية منذ عشرين سنة ، وتأملت النتائج التي قد نسر
عنها ، فوجدت موضوعاً لدغضة فضولي في استقصاء المعلومات
الدقيقة عن نظامها الداخلي ، لا اخلص منه الى معرفة قوتها
ومواردها . ووضعت هذه الامور نصب عيني عندما ارتحلت الى
مصر في نهاية السنة ١٢٨٢ . ولبتت في القاهرة سبعة اشهر ،
فاعترضني خلالها عقبات حمة حالت دون طوافي داخل البلاد وتعلم
اللغة العربية . ونحوأت الى سوريا . وكانت الحالة في هذه الولاية
اهلي اضطراباً ، واكثر موائمة لمقاصدي . فقد اقمت قانية اشهر
عند الدروز في دير عربي (كذا) ، مما جعلني آلف اللغة . وقد
يسر لي هذا الاسر التنقل بحرية عبر سوريا طوال سنة كاملة .
ولدى عودتي الى فرنسا ، بعد غياب ثلاث سنوات ، حسبت ان
مباحثي قد تعود ببعض الثوائد ، وعزمت على نشر دروسي عن
الحالة الراهنة في سوريا ومصر . وقد شجعني على ذلك ان المعلومات

عن تلك الامصار قليلة ناقصة ، بسبب ان الرحلات اليها كثيرة
المشقة . وقد عني معظم الرحالة بالابحاث الاثرية اكثر منهم بوضع
البلاد الحديث . ولما كان اكثرهم قد اجتازوا البلاد على عجل ،
فقد اعوزتهم الوسائل الاساسية لمعرفة ، عنيت الوقت والافلام
بالغة . فلا يمكن ، بعزل عن اللغة ، تقديم عيصرية امة وخطابها عليها .
وما كانت ترجمة المترجمين لتقضي يوماً الى ما تقضي اليه المشافهة
المباشرة . ولا يمكن ، بعزل عن عامل الوقت ، ابداء الحكم الصادق
الناسم ، لان منظر الاشياء الجديدة يتير الدهشة لاول وهلة ، ويلقي
التشويش في العقول ، فيخلق بالرائي والحالة هذه ان يعثر حتى
نبداً الجاية ، وان يعد الى تكرار الملاحظة ليثبت في الصواب .
والنظرة الصائبة فن يقضي من الممارسة فوق ما يحسبون .

تبين لي عند رجوعي الى فرنسا ان رحلة سبقني الى التحدث
عن مصر في كتاب اول سماه « الرسائل » ، ثم اتبعه بنشر جزئين
آخرين . على ان الحقل واسع خصب ، وفي بعض اقسامه الجديدة
بحال للحماد . هذا ، ولا اخل ان استأع شاهدين اثنين من اشياء
معلومة بما يغضب او يسي .

ان سوربلا لا تقل عن مصر لغراء واسئلة . الا ان في
موضوعها مجناً اكثر جدة . وما صحتبه عنها بعض الرحالة قد
تقدم عليه العهد ، بل يشوبه النقصان . وكنت قد آليت على
نفسي يادى ، ذي بدء الا انكلم الا بما شاهدت بأم العين . على
اني رأيت ، في سبيل ارضاء القراء ، ان استكمل صورة هذه
الولاية بما دونته عن غيري كلها فكنت المنبت في صحته بالمقارنة
والمقابلة .

ونوخت في سرد الوقائع المحافظة على الروح التي سادني عند
بجائها ، عنيت بذلك حي المجرد للحقيقة . وقد منعت نفسي الصورة
التخيلية ، وان كنت لا اجعل افضليات الوهم عند جمهور القراء ،
لاني ارى ان الرحلات ملك التاريخ لا الرواية . واذا ، فلم امثل
البلاء اكثر جمالا مما بدت لناظري ، ولم اصور الناس احسن
حالا او اكثر شراسة بما رايتهم ، بل احسب اني كنت في وضع
تكنت معه من رؤيتهم كما هم ، لاني لم تلق منهم حسنة ولا سيئة .
اما فيما يتعلق بصيغة هذا الكتاب فاني لم اعتمد فيها طريقة
السرد المعتادة ، وقد تكون ايسر الطرق . ونبت ، نحاشباً
للاسباب ، الترتيب والتفاصيل الغربية ، وكذلك الحوادث الشخصية .
فلم اطرق المواضيع الا رسوماً شاملة لتسويج اكثر من الوقائع
والفكر . وكنت حريصاً على وفاء القراء تجاه هذا السبل من
الكتب المتتالية . وقد شغعت بحني عن مصر وسوريا بخراطة
جغرافية زيادة في التوضيح . اما خارطة مصر المتعلقة بالذلتا وصحراء
سينا فقد وضعت بناء على المعلومات الفلكية التي نشرها المسير
نيبوه Niebuhr وحالة ملك الدانمارك في السنة ١٧٦١ ، فهي
أحدث وادق ما نشر بهذا الصدد . وقد اسدى لي هذا الرحالة
مساعدته في وضع خارطة سوريا التي استعملتها بما اخذته عن
خارطة دانفيل Dainville وعن يوميات رحلتي . ورايت ، اخيراً ،
ان هواة العاديات يسرهم ان اضم الى الرسم وصفي الذي دونته
عن اجمل خرائب آسيا اي خرائب ندر وهيكل الشمس في
بعلبك . ويلوح لي ان شدة الفنون الحديثة ينظرون بارتياح الى
الرحلتين اللتين قتلان هذه الآثار .

الجزء الاول

القسم الأول

طبيعة مصر

الفصل الأول

مصر عامة ومدينة الاسكندرية

من العجيب ان تهيء مطالعة الكتب معرفة العادات والاخلاق عند الأمم ، فنية بحال بين تأثير الانباء على العقل وتأثير الاشياء على الخواص . فالصور المرسومة بالأصوات نعوزها الدقة في التصوير والحيوية في النلون وتعلق في لوحاتها هضات غائمة لا تترك إلا أثراً هادئاً مريع الزوال . وانا لنستشعر ذلك خاصة اذا كانت الاشياء المراد تصويرها غريبة غداً ، لان الفجأة اذا لا تجد حداً للمقابلة كامل التكوين فهي مضطربة الى جمع اعضاء شتى لتتصب منها اجساماً جديدة ، ومن الصعب عليها في هذا العمل المهيم المفروض الذي تباعده بعجلة ألا تخلط بين الخطوط وتشوه الاشكال . انعجب بعد ذلك انهاء اذا رأت المذلل ، انكرت ما قبلته عنها واقبلت منها تأثيرات جديدة كل الجدة ؟

هذه هي حال الغربي الذي يصل عن طريق البحر الى تركيا . فبشاً يكون قد طالع التواريخ والاعخبار ، وبشاً يكون اعتاده على وحشا في محاولته تصوير عبث الارض وتوزيع المدن والارياح والسلب السكان : فجميع تلك الاشياء جديدة في نظره . وفي

تلوعها ما يبهره ، وما لصوره عنها يذوب ويضحل ، فيبقى تحت
سيطرة شعور المفاجأة والاعجاب .

وقلما وجدت مكاناً كالاسكندرية يحدث فيك هذا التأثير
المزدوج ، هذه المدينة التي يذكر اسمها بعقوبة وجل عجيب ، واسم
هذه البلاد المتصل بالعديد من الحدائق والأفكار ، ومنظر المكان في
إطاره الراسع ، وذلك النخل المنتصب كالإطال ، وتلك البيوت
ذات السطوح وكأنها لا سقف لها ، وتلك السهام الدقيقة تعلو
المآذن وتحمل الشرفات في الهواء ، كل ذلك يدل المسافر على أنه في
عالم آخر . فإذا ما انحدر إلى الأرض انحطت به مجهولات عديدة
من كل ناحية ، فنية لغة تحيف أذنه بأجرامها البرورية ونبراتها الخلقية
النابية ، وثمة أزياء عجيبة الهندام ووجوه تسم بالغرابة . وعوضاً
عن حدودنا العارية ورؤوسنا الكاسية الشعور وفيعائنا المثلثة الزوايا ،
وثيابنا القصيرة الضيقة ، تراه ينظر بدعشة إلى تلك الحدود المحروقة
الملحقة بالبحر والشوارع ، وهذا الإطار من الفناء المتجمد الذي
يعتم به رأس حليق ، وهذه الجبة المستطبة المنحدرة من العنق إلى
الكاحل ، فتبدو وكأنها للجسم سنار لا ثوب يوقديه ، وتلك الغلايين ،
بطول عشر أقدام ، ولا تخلو يد منها ، وتلك النوق الصكرية التي
تقل الماء في نحى جلدية ، وتلك الخمر المبرذومة الملجومة التي تنقل
برشافة راكبيها المنعبلين الخفاف ، وهذه السوق العامرة بالنمر والحبر
المستدير المسطح ، وهذا الرعيل القذر من الكلاب النائية في الأزقة ،
وتلك الأشباح المتنقلة ، المغطاة بثوب واحد ، التي لا يبرز من
شكلها الإنساني غير نظري امرأة .

وفي وسط هذه الجلبة ، ينصرف بكأبه إلى حواسه فيها ينصرف

عقله عن التأمل ، ولا يبدأ روعه حتى يبلغ مقفه المشتبه ، فينبصر
عندئذ تلك الازفة الضيقة غير المبلطة ، وتلك البيوت الواطية التي
تجيب العرائش ضوءها النادر ، وهؤلاء الناس الهزلاء ، المشتري
البشرة بالسواد ، الذين يسرون حفاة ولا رداء على اجسامهم سوى
قميص ازرق يشد وسطه نطاق جلدي او منديل احمر . فلا يلبث ،
وقد شهد هذا المشهد العام لشفاء البشر والاسرار التي تغتمر المشار ،
ان يستشف ما هنالك من ظلم جشع الى جانب عبودية حذرة
منبذة .

على ان ما يستوعب اهتمامه ، بعدئذ ، واسعات الخراب التي يراها
من ناحية البر . ان الاخرة في نواحيها امر يستوعب الفضول ، ان
يندر ان نعتز في الاماكن النائية على قصر قديم ، ان دل نهده على
شيء ، فعلى عجز سيد القصر لا على فقر المكان . اما في الاسكندرية
فانك ، بالعكس ، لا تكاد تخرج من المدينة الجديدة حوب البر ،
حتى يجيبك منظر ارض فسحة الجنبات تغطيها الخراب . وانك
لنمشي مسافة ساعتين ، متبعاً خطين من الجدر والابراج ، هي
اسوار الاسكندرية القديمة . فالارض مكسوة بانقاض القب ،
والجدران والقناطر والشرفات المتهدمة ، وثة حجارة قرضها النطرون
وشوة فيها . وتجتاز ساحة داخلية واسعة تتلصقها الحفار والآبار ،
ويقوم فيها وكلام الجدران والعمد القديمة . وهناك الجبابات الحديثة
والنخيل والصبار حيث لا ترى من الكائنات الحية الا بنات آوى
والبواشق والبوم . اما السكان ، وقد القوا هذا المشهد ، فهم لا
يثنون به قط . ولكن الرجل الغريب الذي تورد فيه التذكارات ،
فانه يستشعر غصة كثيراً ما تتحول الى الدمع وتفتح امامه مجالاً

التأمّلات نشد القلب بكآبتها بقدر ما ترفع النفس بجلاها .
 ليس لي أن اكور هنا ما وحف به جميع الرحالة عادات
 الاسكندرية المدهشة . فقد أفاض نوردين Norden وبوكوك
 Poenke ونيوهر Niebuhr وسافاري Savary (في
 رسائله الأخيرة) في ذكر حمامات كليوباترة ومسلتيها والدياميس
 والآبار والعمود الموسوم خطأ باسم بومبيوس . إن هذه الاسماء
 وفارها . غير أن نظرك إلى التصاوير يختلف عن نظرك إلى حقيقة
 الأشياء . فالعمود بارتفاعه الجريء ، وبجسم استدارته ، وبالعزلة
 التي تكتنفه ، يطبع فيك شعوراً بليغاً من الإعجاب والاحلال .
 إن الاسكندرية في حالتها الحاضرة بحور تجارة عظيمة . فهي
 باب جميع السلع التي تخرج من مصر عبر المتوسط ، ما خلا أرز
 دمياط . فللاوروبيين هناك مناجر نصرف فيها بضائنا عن طريق
 المقايضة . وإنك لتشهد باستمرار سفن مرسيليا وليفونرو والبندقية
 وراغوز وغيرها . على أن الاشتاء فيها مخوف بالمخاطر . فالمرقا
 الحديد ، وهو الوحيد الذي ينزل منه الأوروبيون ، قد امتلأ
 بالرمال إلى حد أن حيازيم السفن تعطدم بقاع البحر في ألب
 العواصف . ولما كان الغور صخرياً فإن حبال المراسي لا تلبث أن
 تنقطع بفعل الاحتكاك ، حتى إذا افلئت سفينة تندفع على أخرى
 وعنده على ثالثة ، وهكذا دولبك ، حتى تغرق السفن جميعاً . وقد
 وقعت سابقة مشؤومة منذ ثماني عشرة سنة إذ فحطمت اثنتان
 وأربعون سفينة على الرصيف في عاصفة عبت من الشمال الغربي .
 أما المرفأ القديم الذي تقوم على مدخله رقعة الأرض المسماة
 رأس النبق ، فهو غير معرض لمثل تلك الكوارث . على أن

الأتراك لا يستقبلون فيه إلا سفن المسلمين . وقد يسأل سائل في أوروبا : لماذا لا يرسمون المرفأ الجديد ؟ ذلك ان الأتراك ينفقون ولا يرسمون . وسيهدمون المرفأ القديم ايضاً حيث ترمى صوابير السفن منذ مئتي عام . ان ذهنية التركي هي ان يهدم اعمال الماضي وآمال المستقبل . وما من غد يرجى للجبل والبرية .

ان الاسكندرية لا تحب شيئاً من الناحية الحربية ، لانك لا ترى فيها اي تحصين ، حتى ان المنارة بأبراجها العالية غير جدوة باسمها . فهي لا تمنحها مدافع حائلة ولا مدفعيون يقومون على ادارتها . اما الانكشارية الخدماء الذين يجب ان تسألف منهم الحامية فقد انزل عددهم الى نصفه . وهم عملة لا يحسنون عملاً الا تدخين الغلايين . والأتراك مرتاحون الى ان مصلحة الفرنسيين فائدة في عدم التعرض لهذه المدينة . ان باستطاعة دارقة تنطلق من مالطة او من روسيا ان تحوّلها الى رماد . على ان فتناً كهذا لا فائدة منه ولا يجدي . فالاجني لا يطبق الإقامة فيها ، لان الأرض تعوزها المياه ويتنضي جرها اليها من النيل بواسطة ترعة او قناة طولها اثنا عشر فرسخاً يسيل فيها الماء كل سنة عند الفيضان ، فيملأ المستودعات الأرضية والآبار المظفورة تحت المدينة القديمة ليخزن فيها حتى السنة التالية ، ويشعر الاجني انه لو اراد السكنى هناك لسدت بسميته القناة .

ولا يصل الاسكندرية بقصر إلا هذه الترفة . فان هذه المدينة ، بموقعها خارج الدلتا ، وبطبيعة ارضها ، تنصل في الحقيقة بصحراء افريقيا . والضواحي ارياف رملية مسطحة مجذبة لا شجر فيها ولا مساكن ، لا تعتبر فيها إلا على نبتة يستخرج منها ملح القلي ،

ويخط من النخيل ينائر مياه النيل عن طريق الخليج .
وانك لا تدخل مصر حقيقة حتى تخط بلاد الرشيد حيث نهجر
الرمال التي تتميز بها أفريقيا ، وتنتقل الى تربة خصبة سوداء هي
خاصة مصر الميزة . وعندئذ ، ولأول مرة تقع العين على مياه النيل
الشهير . فتري مجراه بين خفتين عموديتين ، وكأنه نهر السين Seine
بين اوتوي Autenil وبابي Passy . اما غابات النخيل التي
تجاوره ، والجنان التي توتوي مياهه ، وأشجار الليمون والبرتقال
والنور والدراق وغيرها ، فانها تسبق على الرشيد من الخضراوات
الدائم حملاً بسندرونة خاصة من مقابلته بالاسكندرية وبالجسر
الذي تركه المسافر .

وانك ، في أثناء هذه الرحلة اذا نظعت النهر في اتجاه منبعه ،
تصور لك فكرة عامة عن الأرض والمناخ والمنتجات في هذه
البلاد الشهيرة ، وليس بثلثها في المنظر كغياض نهر اللوار الأدنى
او سهل الفلاندر ، اذا طرحت جانباً منازل الحقول المتعددة
والأشجار واحلات محليا بعض غابات النخيل والجسور ، وبعض
المزارع الترابية القائمة على مرتفعات مصطنعة . وجميع هذه الأرض
هي من التساوي والانخفاض بحيث ان الواصل من البحر ، اذا
ابتعد ثلاثة أميال عن الشاطئ ، لا يلبث ان يرى في الافق النخيل
وما تحته من دغال . والنهر هنا في انحدار لطيف لا يتجاوز سرعة
مياه النيل الواحد في الساعة . اما منظر الحقول فقليل التنوع ،
وهو عبارة عن اشجار نخيل منفردات او منجمعات يندر وجودها
كلما جلت بك القدم ، وقرى مبنية بالطين عليها مسحة الخراب ،
وسهل لا حد له يتحول حسب الفصول من بحر امطار الى مستنقع

موحل ، الى بساط الخضار او حقل غيار . وفي كل النواحي افق
 حديق بخاري تقف دونه الابصار وتغل . واخيراً تلوح لك عند
 ملتقى ساعدي النهر من جهة الشرق جبال القاهرة ، وفي جهة
 الجنوب المائلة للغرب كتل ثلاث منعزلة بذلك شكلها المثلث الزوايا
 على انها الاهرام . وتدخل هنا في الوادي بين سلسلتين من المرتفعات
 المتوازية . فسلسلة الشرق التي تمتد حتى البحر الاحمر جذيرة بان
 تسمى جبلا بسبب ارتفاعها المفاجئ ، وان تسمى صحراء لتظهرها
 العاري الوحشي ^١ . اما سلسلة المغرب فليست إلا ذروة صخر
 تكسوها الرمال ، وما احسن ما سمعها بالبدو بالوصيف . فاذا
 ما شئت ان تصور مصر بكلفتين مثل من ناحية بحراً ضيقاً
 وحضوراً ، ومن ناحية اخرى سهولاً من الرمال عظيمة ، وفي الوسط
 نهراً يجري في وادي طوله خمسمائة وخمسون فرسخاً يعرض ثلاثة
 فراسخ الى سبعة ، لا يصل الى مسافة ثلاثين فرسخاً عن البحر حتى
 ينشطر الى ساعدين تصل فروعهما في ارض عذبة العقبات تكاد لا
 تنحدر .

ان تذوق علم الطبيعيات الذائع في هذا العصر يتطلب ولا شك
 تفاصيل عن طبيعة الارض والمعادن في هذه البلاد الواسعة . على
 ان ما يؤسف له ان طريقة الاسفار فيها لا توافي لآل هذه المباحث .
 وليس الامر في تركيا شأنه في اوروبا . ان الاسفار عندنا نزعات
 مستحبة ، اما هنا فانها اشغال شاقة خطيرة . وهي كذلك بنوع
 خاص للاوروبيين الذين يتطلب الشعب الموسوس في نظره اليهم

١ وتسمى بالعربية المقطم او الجبل المقطم (المقطوع) .

كسجرة بأنونه لينزعوا بارقي كنوزاً تخرسها الأرواح تحت الاخرة .
 ان هذا الاعتقاد المضحك ، على كونه متأخلاً ، اذا اخضت اليه حالة
 الحرب والاضطراب المعتاد ، يترع كل وسيلة احتراز ويجول دون
 اي اكتشاف ، فلا نستطيع ان نتخى الحقل وحيداً او ان نصحب
 اليه احداً ، بل تجدك محصوراً عند ضفاف النهر وفي سبيل يطرقها
 الجميع ، وهو مسير لا تفيد منه شيئاً جديداً . وليس لك ، حتى
 نكتسب بعض المعلومات العامة ، إلا ان نضم ما لاحظته فبوك الى
 ما رأيتك أنت . وعلى مثل هذا الأساس تراك محمولاً على القول
 بان هيكل القطر المصري باجمعه من اصوان حتى البحر المتوسط
 عبارة عن طبقة من حجر الجص المنحرب بالياض القليل الصلابة
 والمتحول من الاسفاف التي تجد منيلاً في البحرين المجاورين ،
 وانها من هذا النوع في الاهرام وفي الصخور الليبية التي تحنها ،
 وتجدعها ايضاً في الآبار وفي دياميس الاسكندرية وعلى صخور
 الشاطئ . حيث يند ، كذلك في الجبال الشرقية مقابل القاهرة .
 ومواد البناء في هذه المدينة مركبة منها ، وتألف منها المقالع
 العظمية الممتدة من سواحي الى منفالوط على مسافة خمسة وعشرين
 فرسخاً بحسب شهادة سيكتار Sicaud . ويفيدنا هذا المرسل عن
 وجود الرخام في راد يند عند قدم الجبال المشرقة على البحر
 الاحمر ، وفي الجبال القائمة في الجنوب الشرقي من اصوان . وبين
 هذه المدينة والشلال اهم منابت الصوان الاحمر . ولعل هناك منابت

١ هذه الاسفاف هي بنوع خاص من الفلذ والاسفاف المروطة الشكل
 والاسفاف الملاصقة . راجع الدكتور شو : رحلة الى الشرق .

غيرها في جبل سبأ^١ والجبال التي تليه على الضفة المتقابلة مسن
 البحر الاحمر على مسافة نهارين صوب الشمال . وعلى مقربة مسن
 اصوان صوب الشمال الغربي مقلع من حجر الحية يستعمله السكان
 غير مصقول لصنع الآنية التي تعرض للنار . وفي الخط نفسه على
 البحر الاحمر كان يقوم في ما مضى منجم زمرد قد غشت آثاره .
 والنحاس هو المعدن الوحيد الذي ذكر القدماء وجوده في تلك
 النواحي ، وعلى طريق السويس حصن تسمى حصن مصر وان تكن
 في جوفها حجارة حص صلبة رقة . وقد وجدت هناك حجارة
 يحمل شكلها على الظن بانها عبدان منحجرة . وهي في الواقع تشبه
 حطباً تنظله نقوب كأنها الحباشم . على ان المصادفة هيأت لي ان
 اغتر في طريق عرب الحواطات^٢ على عرق عظيم من هذا النوع
 تبينت معه انه من المعدن . وما هو أجدر بالاهتمام بحجراً نظرون
 اللذان وصفهما سبكتار نفسه . ويقعان في صحراء غربي الدلتا . اما
 فاعلمها فهو عبارة عن حفيرة طبيعية يراوح طولها بين ثلاثة الى
 اربعة فراسخ على ربع فرسخ عرضاً . وارضها صلبة حجرية . وهي
 جافة طوال تسعة اشهر من السنة . على انه في الشتاء ينبع من
 الارض ماء أحمر بنفسجي يسلاً البحيرة حتى عشر اقدام علواً .
 وعند عودة القيظ تنبخر المياه فتترسب طبقة سميكة من الملح بمقدار
 قدمين ، وهي صلبة تدق بالحديد حتى تقشط ، ويستخرج منها في
 السنة ٣٦ الف فنتاراً . وهذا الحدث الذي يدل على ان الارض

١ كون هذا الجبل اتهب على يدع سوداء وفي بعض الاحيان حراء .

٢ لكل قرية سبأ الخاصة بها ثلاثاً الخماسة والنزاع .

مشربة بالملح ينكر في جهل الفطر المصري . فحينما تحفر الأرض
يتبع ماء أجساج يحوي التطرون والملح البصري وبعض
البورق . فإذا حدث أن قاضت المياه على الجنائن الموي ، فإنك ترى
بعد تبخرها ونشوف المياه أن الملح يطفو على وجه الأرض . ويوضح
أن هذه الأرض كسائر القارة الأفريقية والعربية إنما هي من الملح
أو صالحة لتكوينه .

وفي وسط هذه المعادن المتنوعة وفي هذه الرمال الدقيقة المشربة
بالحرارة والخصبة بأفريقيا ، تبدو تربة وادي النيل بخصائصها التي
تجعل منها طبقة متميزة . فإن لونها المشرب بالسواد وميزتها الحزبية
الزجة تدلنا على أصلها الأجنبي . فالنهر يحملها من قلب الحبشة .
وكان الطبيعة شامت أن تنفض في تكوين هذه الجزيرة الآهله في
صقع كانت قد منعت عنه كل شيء . فلو لا ذلك الطين الحصب
المؤلفي للحرث لما تها مصر أن تنتج شيئاً . فهو وحده يحوي
بذور النبات والحصب ، وهو مدين بذلك للنهر الذي هو آلة كليهما .

الفصل الثاني

النيل واتساع الدنيا

النيل علة وجود مصر من الناحيتين الطبيعية والسياسية : فهو وحده يسد أولى حاجات الكائنات العضوية ، وهي الحاجة الى الماء ، وما امسها في المناخات الحارة المتعطشة ابداً الى ذلك العنصر الرئيسي . فالنيل وحده يعزل عن معونة حماء شجيرة المطر يحمل الى كل صقع غذاء الزرع ، فهو يخلو له ثلاثة اشهر على الارض بشرها مقداراً من الماء يجعلها في غنى عنه سائر ايام السنة . ولولا فيضانه لما امكن استغلال الارض الا في بقعة ضيقة الحدود كثيرة التكاليف . ومن الصواب القول انه مقياس البصيرة والحير والحياة . ولو ان البرونزي « اليوكرك » استطاع تنفيذ مشروعه بتحويل مجراه من ابيوينا الى البحر الاحمر ، لما كانت هذه البقعة الحصية الا صحراء تضاهي بوحشتها الفلوات المحيطة بها . ومنى رأينا الى اي مدى يستخدم الانسان طاقة هذا النهر ، لا يبقى في وسعنا ان نلوم الطبيعة على انها منعت عنه المزيد . وقد حق للمصريين في سائر الازمنة واليوم ان ينظروا الى النيل نظرة اجدال ديني ، ولكن يجب ان نغفر الاجنبي الذي يسمع

تجبرهم بحالات تلك المياه فيبذلهم من جهلهم . فقلن يكون هذه
المياه المعتكرة الموحلة فقط في نظره سحر البنابيع الصافية والجدول
الزلابية . وما لم يكن قد برّح به الحرمان قلن يذكره جسد
المصرية المسقع الراشح بالمياه الصفراوية بالبنائيات^١ الخارجات من
الابتعاد . ومياه النهر طوال سنة أشهر كثيرة الاحتكاك حتى انها
لا تسوغ للشرب ما لم تصف^٢ . وفي الشهور الثلاثة التي تسبق
القبضان يقل محنها وتسخن في مسائليها فتخضر وتأسن وتثقل
بالديدان ، فتدعو الحاجة عندئذ الى استخدام المياه الخزونة في
الآبار . اما المؤمنون فانهم يظفرون الماء ويعودونه بالتبخير^٣ .

انك كتب الرحالون والمؤرخون كثيرا عن النيل وغرائبه
حتى كنت اعتقد بادىء ذي بدء ان الموضوع افصى الى نقاد .
على ان الآراء تتبدل في اقل الاشياء تبدا . فان لم يكن لديك

الاميات بفضن اصغلهن في الجري تجريكا بطارة العبد وخصامها الاضية على ما ذهب
إليه اعتقاد القدمين في الامر جميعا .

١ . الثابت ترجمتها بكلمة Salades اصطلاحا ، وهي آفات من نبات جهنم تشرف
بغير البنابيع والانيب .

٢ . بذلك الاء بالمزج وهو العز الر . فيصبح سائغا خفيفا .

٣ . يعنون في وضع آية عزيمة غير مطلية بالمياه في جميع العرف وفتح الماء منها
بأسرع راز ، وكلمها وفتح الاء زادن برودته . وترام من أجل هذا السبب بعاقوته غالبا
في مجاري الهواء وفي ظلال الاشجار . وفي سوريا يشربون الاء الراشح فيما يشربون في
مصر الاء المستقر في الاء . ومما يمكن من امر غلب من بلد كهذه البلاد في كثرة
اعتناء الاء . وان أول أمر يأتي المصري عند دخوله الى بيت هو انه يقبض على « الفلذ »
ويشرب منها جرعة صغيرة . ولي كان العرف يتصب غزيرا من المصريين فلا ترعجه
كثرة التوب .

في بعض الاحيان جديد يقال ، فلا اقل من ان تصلح ما قيل .
وهذا هو شأني تجاه بعض الآراء التي ضمنها المسير سافاري رسالته
وقد مثلت بالطبع حديثاً . فان ما اراد اثباته من امر انبساط
الدلتا وارتفاعها يختلف عن النتائج التي ايدتها الوقائع في نظري
والاسناد التي يحتاج بها هو نفسه اختلافاً يحتمل على بسط مناقضاتنا
امام الرأي العام . ومنى عرفت ان اقامة السيد سافاري امتدت
الى سلتين في تلك البلاد ، مما يجعل رأيه وزناً لا يلبث ان يصبح
حجة راجحة ، تبين لك ضرورة هذا الجدل الذي ابائره . فلنبسط
المسائل ونعالج اولاً قضية انبساط الدلتا او الساعيا .

ان مؤرخاً يونانياً قد ذكر عن مصر كل ما نعرفه عنها
تقريباً وما تؤيده الايام . غيب به هيرودوتس الهاليكارناقي
Hérodote d'Halicarnasse الذي كتب من اثنين وعشرين قرناً
ما يلي :

« ان مصر حيث ينزل الاغارقة من البحر (الدلتا) هي ارض
مكتسبة ، وهي هبة النهر شأن كل الاحقاع المستنقعة التي تسد
صعداً على مسافة ثلاثة ايام ركوباً في النهر . »
والاسباب التي يحتاج بها اثباتاً لقوله تدل على انه لا يستلزمها
الى حكم مبسر ، ان يقول :

« وفي الواقع ان ارض مصر التي هي مسن الطين الاسود
الانضر تختلف تمام الاختلاف عن ارض افريقيا الرملية الحمراء وعن
ارض جزيرة العرب الحزفية المصخرة ... وهذا الطين ينزل النيل
من اثيوبيا ... والاحداف التي تحتويها الصحراء تدل دلالة كافية
على ان البحر ، فيها سبب ، كان اكثر اقتحاماً للارض . »

ان هيرودوس باعتقافه بنحشلي النهر ، وهو امر يوازم طبيعة الاشياء . لم يعن مدى خطية . على ان سافاري حسب انه بإمكانه ان يفعل . فلنتفحص كيف على ذلك :

وان مصر ١ اذا تزايدت ارتفاعاً تزايدت في الطول ايضاً . وبين الرفائع الكثيرة التي اوردتها التاريخ اختار واحدة فقط . انه في ايام الملك بسامتيكوس رست مراكب الملبزين وعمدها ثلاثون عند مصب بلطين ، وهي اليوم الرشيد ، وتحصنوا فيها . وبنوا مدينة اسمها متليس (راجع استرابون ، الكتاب ١٧) ، وهي « قرية » التي احتفظت باسم « مسيل » في مصطلحات الاقباط . ان هذه المدينة ، التي كانت قبا مضى على البحر ، اصبحت تبعد عنه اليوم تسعة فراسخ . وهو المدى الذي ابسطت عليه الدلائل من ايام بسامتيكوس الى اليوم . ٢

اول ما يبادر الى الذهن ان هذا التعليل في منتهى الدقة . على اننا يرجعون الى الاحمل الذي استقى منه سافاري نجد انه غفل عن الامر الاهم . والبك نص استرابون متوجهاً بحرفه ٣ :

« بعد مصب بلطين يقوم رأس رملي منخفض يسمى قروت الحكل وينفذ بعيداً (في البحر) ، ثم يسأني مرفق برسيا وسور الملبزين ، لان هؤلاء جاوزوا ثلاثين سفينة الى مصب بلطين ونزلوا الى البر في ايام كسياسكارس ملك الميديين التي كانت ايام الملك بسامتيكوس ، وشيدوا الحصن الذي يقسم باحدهم . وما

١ رسالة عن مصر - الجزء الاول - الصفحة ١٦ .

٢ هيرودوس استرابون ، جلد ١٧ ، الكتاب ١٧ ، الصفحة ١١٥٢ .

انقضى زمن حتى تقدموا صوب سايس وقهروا الجندريس في معركة
على النهر ، وانشأوا مدينة قراطس فيها وراء شاذيه . وبعد سور
الميليزيين باتجاه مصب (الدلتا) تقع بحيرات منها بحيرة بوطس
الخ... »

هذه هي الفقرة التي ينكم فيها استرابون عن الميليزيين ، ولا
نرى فيها ذكراً لميليس التي لم يرد اسمها في الكتاب كله . وقد
استأها دانفيل^١ عن بطليموس دون ان ينسبها الى الميليزيين .
وما لم يثبت المسير سافاري نسبة ميليس الى سور الميليزيين
بتقنيات فقد يكون قام بها في المكان نفسه ، فلا يجوز التسليم
بقوله .

وقد حسب ان هومبروس بسدي اليه شهادة مماثلة في المقاطع
التي ينكم فيها عن المسافة بين جزيرة انصار ومصر ، ويسمى
القارىء اذا كان هنا اكثر توفيقاً . في اوود توجه مدام دالميه^٢
وهي على كونها اقل روعة من غيرها ، إلا انها اكثر تقيداً
بالحرف :

« روى ميلاس انه تقوم في البحر مقابل النيل جزيرة تدعى
النار ، وهي تبعد عن احد مصاب هذا النهر مسافة ما يقطع في
يوم واحد مراكب نواتيه الرياح ... (وبعد ذلك يقول برونوس
لميلاس) : ان القدر القاسي لا يسمح بان ترى وطنك العزيز ...
ما لم بعد مرة اخرى الى النهر (الجوبتوس) وتقدم الذيلح الكاملة

١ - راجع مذكرات دانفيل الزالمة عن مصر ، طبعة سنة ١٨٦٥ . ص ٧٧ .

٢ - الاوقية ، الكتاب الرابع .

الى الحادين . (واستطرد منيلاي) : قال هذا وامثلاً قلبي كتابة
وانما لان هذا الاله يأمرني بالرجوع الى النهر ليحويبتوس الذي تحف
طريقه المشتقات والمخاطر .

يريد المسمى سافاري في هذه الشواهد وعلى الاخص ان
يستخلص ان المارة ، وهي اليوم لاصقة بالشاطئ ، كانت فيما مضى
بعيدة عنه كثيراً ، على ان هوميروس عندما ذكر المسافة من
هذه الجزيرة لم يشأ تطبيقها على « الشاطئ » ، المقابل كما توجه الرحالة ،
بل على « ارض مصر » و « نهر النيل » ، ومن جهة ثانية انه من
الخطأ القول ان « نهر الابحار » يعني المسافة غير المحدودة التي تستطيع
اجتيازها مراكب القدمين ، وكان الافارقة يستعملون هذا التعبير
لتصوره بمقدار ثابت هو خمسة اواربعون غلوة . مبروضح هيرودوتس
هذا الامر صراحة فيورد عليه مثلاً ويقول ان النيل يجاوز على
البحر بالارض التي تمتد بعداً حتى ثلاثة ايام بحار ، وان الالف
والسائة وعشرين غلوة التي تحصل لوافق حساب الادقة لمسافة
الالف والخمسة غلوة الواقعة بين هليوبولس والبحر على ما ذكر
في مكان آخر . فاذا ما اعتبرنا مع ذلك ان الخمسة واربعين
غلوة تساوي سبعة وعشرين الف خطرة^٢ ، أي ما يقرب من نصف
درجة ، نرى بواسطة البركار ان هذا المقياس يوازي المسافة بين
المارة والنيل نفسه ، وهي تنطبق خاصة على الشبي فرسخ فوق

١ - فاما غلوة ، وهي مقدار زمنية سب من ثلاث مئة الى اربع مئة ذراع ، ترجمة للكلمة
الغربية Stade التي تعيد عند اليونانيين مقدار ١٠٠ قدم يونانية .
٢ - الخطوة مقياس طول سب القدم واستعملها العرب كلمة fouse وهي مقياس
طول سب القدم أيضاً .

الرشيد ، في مكانه يحق لنا بعض الحق ان 'الحل' فيه المدينة التي
 اعطت اسمها لمصب بلطيط . ومن الجدير بالذكر انها المدينة التي
 تردد عليها اليونانيون ونزل فيها المبيثيون قبل هوميروس بقرون
 ونصف القرن . فليس ما ثبت ان تجاوز اندلسا او القارة
 حصل بالسرعة التي يفترضونها افتراضاً . فاذا سلمنا بها بقي علينا ان
 نقدر كيف ان هذا الشاطئ الذي لم يكسب نصف فوسيج من
 ايام الاسكندرية ، قد كسب احد عشر ميلا في سبعمائة وثمانين
 تحسب شيئاً بالنسبة الى الاولى ، قد انقضت بين ميلاس وذلك
 الفاتح ١ .

وقد طرقة اصح لتقدير هذا التجاوز في اعتناء القياس الوهمي
 الذي ذكره هيروودوتس ، والبك النص :

« ان عرض مصر في البحر من الخليج البلطيني حتى مستنقعات
 سريونيدا بالقرب من قاسبوس هو ثلاثة الاف وخمسمائة غلوة ،
 وطولها من البحر حتى ايليوبولس الف وخمسمائة غلوة .
 فلنحصر هنا في هذه الفترة . لقد برهن دانتيل بحذفه المعتاد ان
 غلوة هيروودوتس يجب ان تقدر بخمسين او احدى وخمسين خطوة
 فرنسية . فاذا اعتمادنا هذا الرقم تبين ان ١٥٠٠ غلوة توازي ٧٦٠٠٠
 خطوة ، اي درجة وما يقرب من الدقيقة ونصف الدقيقة . والحال

١ يؤيد على هوميروس عدم الدقة بجزءه ان المقارنة كانت تقع مقابل النيل ،
 ولخصني له عازمه في انه تكلم عن مصر كما يتكلم عن طرف العالم ، هو يهتم بالتوضيح
 الواجب . ومن جهة اخرى فان الفرع القنوبي canopique من النيل كان يندرز
 البحيرات التي تقع قرب ابوقير ، واذا صح انه مر في غرب ابوقير كما يعملي على هذا الاعداد
 منظر الأرض ، يكون هوميروس على صواب بقوله ان المقارنة كانت مقابل النيل .

ان الملاحظات الفلكية التي ابدعها نيبوهر رحالة ملك الدانمارك في
 السنة ١٧٦٦ تدل على ان فرق العرض بالنسبة لحظ الاحتواء بين
 هليوبولس (حالياً المطرية) والبحر هو درجة وتسع وعشرون
 دقيقة تحت دمياط ودرجة واربع وعشرون دقيقة تحت الرشيد
 فيحصل من جهة ثلاث دقائق ونصف الدقيقة او تجاوز مسافة
 فرسخ ونصف الفرسخ ، ومن الجهة الاخرى ثلثي دقائق ونصف
 الدقيقة او ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ . ويدل هذا على ان الشاطئ
 القديم كان يضاوي احد عشر الف وثلاثمائة خطوة فيما تحت الرشيد ،
 وهذا ما ينحرف بعض الانحراف عن الخط الذي اراد في فقرة
 هوميروس ، في حين ان التطبيق على فرع دمياط ينزل الى تسعمائة
 وخمسين خطوة تحت المدينة المذكورة . صحيح ان القياس فوراً
 بواسطة البوكار يجعل ان خط الشاطئ ، يتضاعف نحواً من ثلاثة
 فراسخ جهة الرشيد ، ويقع على دمياط نفسها ، وهذا مما يحصل
 من حساب الثلث باعتبار الفرق في الطول . ولكن بلطين التي
 اشار اليها هيرودوتس تصبح عندئذ خارج الخط ولا يبقى صحيحاً
 ان بوسيريس في وسط الدلتا على ما ذكر المؤرخ نفسه . ولا ريب
 ان ما اوردته القدماء وما نعرفه نحن عن هذا المكان ليس من
 الواضح بحيث يجوز لنا ان نعين بدقة درجات التجاوز المتعاقبة .
 ولا يستطيع التفكير بحزم إلا من تبيأ له القيام بالبحاث كالتي قام
 بها الكونت ده شوازلون Le Comte de Choiseul في مياندريا ،
 ويقتضي لذلك تنقيب في الارض . على ان اعمالاً من هذا النوع

تستدعي ثلث اسباب لا يفسر وجودها إلا للقليل من الرحالة .
وتشخص هنا صعوبة نشأة عن كون الارض الرملية التي تتكون
منها الدلتا تتبدل من يوم الى آخر تبديلاً عظيماً ، لأن البحر والنيل
ليسا عاملها الوحيد ، فالرياح هنا حلوية الباع ، فهي تارة تملأ
الترع وتدفع النهر على ما حدث للمساعد القنوبي القديم ، وتارة تسفي
الرمال وتدفن الخراب حتى نحو معالمها . وبورد نيهوهر مثلاً
جديراً بالنظر ، وهو انه يوم كان في الرشيد سنة ١٧٦٢ كشفت
المصادفة في لئال الرمل القاعة جنوبي المدينة عن الخربة فدية مختلفة
بينها عشرون ركيزة جميلة من الرخام قمت الى الفن الاغريقي ،
ولم يرد في التقاليد اسم المدينة التي كانت قائمة هناك . وقد بدا
لي ان الصحراء المجاورة على النمط نفسه . ان هذه الرقعة التي كانت
فيما سلف عامرة بالترع والمدن أصبحت تلالاً كاسية بالرمال الناعمة
الصفراء التي تركها الرياح على قدم كل حاجز وكثيراً ما تغير
النخيل ، ولذلك ، وعلى ما بذل دانقيل من جهد ، فلا يمكن الوكون
بتأكيد الى مطابقتها بين كثير من الاماكن القديمة والحديثة .

اما سافاري فقد كان اكثر اصابة في ما ذكره عن احدي
ثورات النيل التي يبدو منها ان هذا النهر قد انساب كله فيما سلف
عبر ليبيا في غربي منقيس . على ان رواية هيروdotus نفسه التي
اعتمدها سافاري تضطدم وبعض المصاعب . يقول هذا المؤرخ نقلاً
عن كهنة هليوبولس ان مينيس اول ملوك مصر قد سد الكوم
الذي كان يدور فيه النهر على مسافة فرسخين وربع الفرساخ

١ ان هذا الموقع يوافق كثيراً باطلين .

(مائة غلوة) تحت منقبي واحفر له مجرى جديدا شرفي هذه المدينة . ألا يستدل من هذا ان منقبي كانت حتى ذلك الزمن في صحراء فاحلة محرومة من الماء ؟ وهل يجوز التسليم بهذا الافتراض ؟ ايصح التصديق بالحرف ان منقبي قام بهذه الاعمال العظيمة وانشا مدينة ورد انها كانت قبله ، وان يكون حفر الاقنية والبحيرات واقام الجسور وشيد القصور والديار كل والارصفة ، كل ذلك في بدء نشأة أمة وفي طفولة جميع الفنون ؟ ومنقبي هذا هل هو مؤرخ ؟ ألست روايات كهنة تلك الجاهلية من صعيد الميثولوجيا ؟ في اعتقادي ان المسيل الذي سده منقبي لم يكن الا انحرافا في النيل من شأنه انهاء الري في الدلتا . وما يعزز هذا الافتراض ، على رغم شهادة هيروودوتس ، انك اذا سرحت النظر من الاهرام ، في هذا الوادي ، لا تبين فيه اي مضيق يحمل على الظن بقيام حاجز قديم هناك . ويلوح ان سافاري اجهد نفسه لبيان ان الفجوة الكبيرة المسماة «بحر بلا ماء» اشارة الى كونها مجرى قديما للنيل ، كانت تنهي الى السد الوارد ذكره تحت منقبي ، في حين ان جميع الرحالة الذين المنع اليهم دانييل يجعلون نهايتها في الفيوم التي هي تمة طبيعة لها . وبقتضي لاثبات هذا الواقع الجديد رؤية الامكنة نفسها . ولم اسمع قط في القاهرة من قال ان سافاري قد تقدم في الجنوب الى ما يجاوز اهرام الجيزة . ان تكون الدلتا الذي يستدل عليه سافاري من

بذلك نفحص الخارطة على ان مجرى النهر كان في هذا المكان ، اما السواري والسفن المنجورة التي تنحدر عنها سيقانهم تحتاج الى ان يبينوا رجالون اوسع علما من هذا المرسل .

هذا التبدل امر لا يعقل ، اذ كيف يجوز لك ، في هذه الثورة
المفاجئة ، ان تصور ، ان وطأة المياه الهائلة التي انصببت في مدخل
الخليج قد جزرت مياه البحر ، لا ان امطدام كتلتين سائلتين
لا يحدث الا امتزاجاً لا يلبث ان يفضي الى مستوى مشترك
بينهما . صحيح ان الرحالة يضيف : « لقد تراكم الطين والرمل
الاذان جرهما النيسل ، وجزيرة الدلنا التي كانت صغيرة بادي ذي
يده قد خرجت من مياه البحر وارجعت محدودة . »
ولكن كيف نخرج جزيرة من البحر ؟ ان المياه الجارية تحدث
انبساطاً لا تراكماً ، وهذا ما يسوقنا الى مسألة الارتفاع .

الفصل الثالث

ارتفاع الدلتا

ان هيرودوتس ، الذي عرف عن الارتفاع ما عرفه عن الانبساط ، لم ينطرق الى مقدار كلبها . على انه اورد واقعة يستند اليها سافاري ليخلص منها الى نتائج وضعية . والبك ملخص قوله :

« في ايام مواريس الذي عاش قبل حرب طروادة بخمس مئة سنة ، كانت ثلثي اذرع كلفة لغمر الدلتا في كامل اتساعها . ولما جاء هيرودوتس الى مصر كان يقتضي لذلك خمس عشرة ، وفي عهد الامبراطورية الرومانية ست عشرة ، وفي ايام العرب سبع عشرة . اما اليوم فالحد المواتي ثلثي عشرة ، والنيل يضخم حتى اثنتين وعشرين . واذن فقد ارتفعت الدلتا اربع عشرة ذراعاً خلال ثلاثة الاف ومائتين ومائتين سنة . »

نعم ، اذا سلمنا بالوقائع على ما بسطت . بيد اننا اذا استقيناها من منابعها نجد ان بعض الواحق تشوه المبادئ . والنتائج . فلتورد نص هيرودوتس :

« بروي الكهنة المصريون انه في ايام الملك مواريس كانت النيل يغمر الدلتا بارتفاعه ثلثي اذرع فقط . وفي ايامنا نحن لا يمتد على البلاد اذا لم يرتفع ست عشرة ذراعاً او خمس عشرة على

الافل . والحال انه لم تنقضى بعد تسعمائة سنة على موت مواريس
حتى يومنا هذا . »

فلنحسب : من مواريس حتى هيرودوتس : ٩٠٠ سنة ، من
هيرودوتس حتى ١٧٧٧ : ٢٢٣٧ ، او الفان ومثان واربعون
سنة اذا سئمت ، فيكون الجمع ٣١٤٠ .
فمن اين انت الزيادة (١٤٤ سنة) في حساب المسيو
سافاري ؟

ولم يعتمد حساباً غير حساب المؤلف ؟
فلتتخط ذلك الى التسلسل التاريخي .

في ايام هيرودوتس كان يقضي لغير الدلائل عشرة ذراعاً
او خمس عشرة على الافل ، كذلك في ايام الرومانيين كان الحد
المعين خمس عشرة وست عشرة .

يقول استرابون : « ان الفيضان لم يكن ليعم البلاد ، قبل
بترونيوس ، ما لم يبلغ ارتفاع النيل اربع عشرة ذراعاً . » على
ان هذا الحاكم كان يحصل عن طريق الفن على ما كانت الطبيعة
تضن به . فكان الفيضان يعم اذا ما ارتفع النيل اثني عشرة
ذراعاً . ولم ينقض العرب هذا القول . فان احد كتبهم ينطوي
على جدول مفصل لجميع فيضانات النيل من السنة الاولى للهجرة
(٦٢٢) حتى السنة ٨٧٥ هجرية (١٤٧٠) . وبين من هذا
الكتاب ان النيل ، في احدث العهود ، اذا كان غمرى بجراه
اربعة عشرة ذراعاً ، فالخير والمؤنة مضمونتان لسنة ، او كان عمقه
ست عشرة فالمؤنة لستين ، ولكنه اذا ندى عن اربع عشرة او
بلغ الثاني عشرة فهناك قحط . وهذا ما يتفق ورواية هيرودوتس .

ان الكتاب الذي استشهد به عربي اللغة ، ولكن النتائج في
منازل الجميع . وحسب المطالع ان يراجع كلمة « النيل » في
المكتبة الشرقية لهريلو Herbelot او مختارات الفيلسوفي في « رحلة »
الدكتور شو .

ان نوع الاذرع لا يحمل الالنباس . فقد برهن فريه ودانفيل
وبايي Fréret, Dainville, et Bailly ان الذراع المصرية مسا انكسرت
محددة بأربعة وعشرين قيراطاً مسا يوازي اثنتا عشرة قيراطاً
ونصف القيراط . والذراع المصرية الخالية مجزأة الى اربعة وعشرين
قيراطاً . على ان الاعمدة المستعملة لقياس علو النهر قد طرأ عليها
تسوية لا يجوز اغفالها .
يقول الفيلسوفي :

« نبيّن للعرب ، اول عهدهم في مصر ، ان الناس كانوا يتهافون
على جمع مؤنة السنة كلها ظهر ان النيل لم يبلغ حدة الفيضان .
وكان هذا الامر يشوش النظام . فرفعت الشكوى الى الخليفة عمر ،
فأمر عمر ان يتخصص الامر . واليك ما بسط عمرو امام الخليفة :
لقد قمنا بالبحث الذي أمرت به ، فنبيّن لنا ان النيل اذا ارتفع
الى اربع عشرة ذراعاً فالغلة تكفي للسنة ، واذا بلغ ست عشرة
ذراعاً كانت الغلال فائضة ، ولكنها ودينة اذا كان الارتفاع اثني
عشرة ذراعاً او ثلثي عشرة . ولما كان الشعب يعرف ذلك مما يذاع
عليه في الخطب عادة ، فقد نتجت بعض الامور التي نعرفها
التجارة . »

وقد يكون عمر فكثر في الغاء الخطب تلافياً لهذه المخازير ،
ولكن الامر لم يكن مما يمكن حدوثه ، فابتدع - برأيي اني طالب -

طريقة اسفرت عن النتيجة نفسها . كان مقياس النيل مجرداً الى
اذرع واحدتها اربعة وعشرون فيراطاً ، فأمر عمر بالتلافه وابدل
منه آخر وضعه في جزيرة الروضة ، وأمر ان تكون اذرع الاثني
عشرة السفلى مؤلفة من ثمانية وعشرين فيراطاً عوضاً عن اربعة
وعشرين ، وان تبقى الاذرع العليا على ما كانت عليه من قبل ، اي
اربعة وعشرين فيراطاً للذراع الواحدة . وافضى الامر عندئذ الى
ان النيل اذا علم على المقياس درجة اثني عشرة ذراعاً كانت
حقيقة ارتفاعه اربع عشرة ذراعاً ، لان كل ذراع من هذه الاذرع
الاثني عشرة كانت تريد اربعة فراريط اي مجموعاً مقداره ثمانية
واربعون فيراطاً توازي ذراعين اثنتين ، بنوع ان الاعلان عن
ارتفاع المياه الى اربع عشرة ذراعاً ، وهو الحد المؤذن بغلال
« كافية » ، كان يشير في الحقيقة الى انها بلغت درجة « الفيض » .
على ان هذه الحدة التي جازت على الجمهور لم تفت مؤرخي العرب .
فقد اضافوا على ما سبق ان مقاييس الصعيد - او مصر العليا -
بقيت مقسمة على اساس اربعة وعشرين فيراطاً ، وان الحد « ثمانية
عشر » كان دائماً ضاراً ، و « التسعة عشر » نادراً جداً ، والعشرين
يكاد يكون اعجوبة ^١ .

وما كان الاطراد اذن الا زعماً باطلاً ، وباستطاعتنا ان ندحضه
بواقعة اولى هي ان حالة النيل لم تتبدل سخابة زمن معروف
يطول الى ثمانية عشر قرناً ، فلماذا تبدلت حاله اليوم ، وكيف انتقل

١ ان الدكتور بوكوك الذي ابدى ملاحظات صائبة كثيرة على النيل قد مثل كل
الضلال في تفسير نص الفلشندي . وقد حسب بالاعتقاد على فترة مشبوهة ان مقياس النيل
في عهد عمر لم يكن الا اثني عشرة ذراعاً ، وبين على هذا الخطأ برهاناً من الافتراضات .

منذ السنة الالف والأربعمئة والثلاث والسبعين من خمسة عشر فيراطاً
الى اثنين وعشرين مثل هذه المفاجأة ؟ ان هذه المسألة سهلة الحل .
ولست أبحث عن تفسير لها في الوقائع الطبيعية ، بل في ملاحظاتنا .
فليس النيل هو الذي تبدل ، بل العمود ومقاييسه . والسر الذي يحيط
به الاتراك يحول دون تثبيت الرحالين فيه . على ان بوكوك الذي
استطاع ان يراه سنة ١٧٣٩ يروي ان درجات الاذرع كانت مشوطة
وغير متساوية . وهذا ما يحصل على الاعتقاد بان الاتراك غفلوا
بعض وشروها فيه تشويهاً جديداً . وفيه امر يبدد الشك في هذا
الصدد : ان نيويهوس الذي لا يجوز التريب في ملاحظته - فام
سنة ١٧٦٢ بقياس معالم الفيضان على حائط في الجيزة ، فتبين له
ان النيل قد عبط في حزيران (يونيو) اربع وعشرين قدماً فرنسية ،
اذا حولتها الى اذرع باعتبار الذراع عشرين فيراطاً ونصف الفيراط ،
حصل لك اربع عشرة ذراعاً وفيراطاً واحداً . صحيح ان النيل
يستمر في الهبوط بعد ذلك ثمانية عشر يوماً ، ولكن اذا حسبنا
درجة هبوطه نصف ذراع بحسب تقدير بوكوك ١ يكون المحصل
اربعة عشرة ذراعاً ونصف الذراع . وهذا ما يلتقي والحساب القديم
تماماً .

وفي زعم اخذ به سافاري لا يمكنني التسليم به دون تحفظ .
يقول في الصفحة الرابعة عشرة من رسالته الاولى :
« منذ اقامتي في مصر ، درست حول الدلتا مرتين حتى اني

١ في ١٧ ابركان طول المقياس خارج المياه احدى عشرة قدماً ، وفي ٣ حزيران
احدى عشرة ونصف ، أي نصف ذراع في مدة ١٧ يوماً .

اجتمعها من قناة المنوقية ، وكان النهر يجري منى ، ضفافه في
ساعدي دمياط وانرشيد وفي السواعد التي تخترق داخل البلاد ،
ولكنه لم يكن يطوي على الارض الا في الاماكن المنخفضة
حيث كانت تبضع السدود اري حقول الارز . »

وبستفتح من هنا :

« ان الدلتا هي حالياً في الوضع الاكثر مواسمة للزراعة ،
لان هذه الجزيرة بحرماتها الفيضان قد رجحت « كل سنة ثلاثة اشهر
يقضيها المصعد تحت المياه . »

ليس ما هو اعرب من هذا الربح ، فاذا كانت الدلتا توبح من
عدم الفيضان فلاي سبب كان الفيضان مرغوباً فيه في اي زمن كان ؟
يقول ان « المجاري تقوم مقام الفيضان . »

على ان تشييه الدلتا بفيض السين من الخطأ بكثر . فالما
ليس في مستوى الارض الا حبال البحر ، وهو دوت مستواها
في اي مكان آخر . والضفاف ترتفع كلها صعدت في البر . واذا
جاز لي ان اورد شهادتي ، اثبت انني عند المخدري من القاهرة الى
الرشيد لاحظت في السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن
والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٨٣ ان بعض رقاع الحقول ما
برحت مغطاة ، على كيون المياه قد تقاصت عنها منذ خمسة عشر
يوماً ، وان الاماكن المستكشفة تحمل آثار الفيضان . فالامر الذي
يلامع اليه ساخاري ، ان هو الا نتيجة فيضات رديء ، ولا يجوز
القول ان ارتفاع الارض قد غيّر في حالة الدلتا ١ ار ان الامر

١ ان يجري النهر قد ارتفع ايضاً كما في الارض .

أفضى بالمصريين إلى أن يحصلوا على الماء بمجرد الوسائل الميكانيكية وهي مرهقة ومحدودة^١.

بقي علينا أن نحل مسألة أذرع مواريس السخافي ، ولا حسب أن لها اسباباً من غير هذا النوع . يظهر أن المقياس قد طوّر عليها تبديل بعد عهد هذا الأمير ، فأصبحت الذراع ذراعين . ويعزز هذا الافتراض أن مصر لم تكن في عهد مواريس بملكة واحدة ، بل ثلاثاً ما بين اصران والبحر . فجاء سيوزتريس ووحدها بالفتح ، ولكنها عادت بعد هذا الأمير إلى انقسامها وظلت عليه حتى عهد يسامتيك . أن هذا الانقلاب في المقياس ينطبق كل المطابقة على سيوزتريس الذي أحدث منه في الحكومة . فهو الذي جسد الشرائع والادارة ، وأقام السدود ، ومهد طرق المدن والقرى ، وحفر من الترع عدداً فكانت معه مصر من أعمال العجلات التي كانت تستخدم حتى ذلك العهد ، على ما ذكر هيرودوتس^٢.

ومن الحسن أن نذكر أن الفيضان متفاوت الدرجات ، فهو غير متاثل في مصر كلها ، بل يتدرج في المنبوط كلما انحدر النهر . فالطمي في اصران أخفهم منه في القاهرة بمعدل السدس . وعندما يبلغ سبعاً وعشرين قدماً في القاهرة ، لا يكاد يبلغ أربع أقدام في دمياط والرشيد . ومرد ذلك إلى أن النهر يرتفع أكثر فأكثر في مجراه الواحد وواجه الضيق برغم كمية الماء التي تنسحب منها

^١ تروى الماء السفلى بواسطة الدواليب لأن الماء فيها يستوى الأرض ، ويختلف الأمر في الماء العليا حيث تستخدم أنواع .

^٢ هيرودوتس ، الكتاب ٢ . أن هذه الرواية تدل المؤرخين الحديثين الذين يعملون سيوزتريس قبل عهد موسى إذ كانت العجلات ما تزال مستخدمة .

الأراضي ، وبالعكس فهو بعد مجاوزته القاهرة وانعكاسه من
تضييق الجبال عليه وتوزيعه بين آلاف الشعاب ، بحسر حتى في
العمق ما يربحه في الانسحاب .

يدرك مما ذكرت مبلغ غرور الذين توهموا أنهم عرفوا بالضبط
مقدار ارتفاع الدلتا ونوسها . ولكنني ، وقد بدأت الأحوال التوهمية ،
لا يسعني أنكار أساس الوقائع نفسها ، فهي مؤيدة بالتعليل وبفحص
الأرض . مثل ذلك أن ارتفاع الأرض يتبعه ، في نظري ، أمر لم
يؤثر له كثيراً : أنك إذا ذهبت من الرشيد إلى القاهرة ، والمياه
منخفضة شأنها في شهر آذار (مارس) ، تبين لك كلما صعدت في النهر
أن الضفة ترتفع تدريجياً فوق المياه ، فإذا علاها قدمين في الرشيد
علاها ثلاثاً أو أربعاً في الفتوة وأكثر من اثني عشرة في القاهرة .
فإذا علانا هذا الواقع يمكن الاستدلال منه على ارتفاع الأرض
بفعل الرواسب ، لأن طبقة الطين التي تقاسب وسماكة طبقات الماء
الراسبة منها يجب أن تكون أكثر أو أقل بحسب
عمق الطبقات ، وقد رأينا أنها تسير بتدرج مماثل من أصوات
حتى البحر .

ويظهر تضخم الدلتا بصورة مدعشة في شكل الأرض المصرية
على البحر المتوسط . فإذا ترجمتها على الخارطة رأيت أن الأرض
التي في خط النهر - تلك الأرض المكونة من مادة غريبة - قد
اتخذت تنوعاً نصف دائري ، وأن خطوط شاطئ جزيرة العرب
وأفريقيا التي يصفون عليها تذهب في اتجاه ولوجي نحو عمق الدلتا
يدل على أن هذه الأرض كانت خليجاً مملأه الزمن .

إن ظاهرة المثل ، وهي عامة لكل الأنهر، تجري بطريقة آلية

عامة ايضاً ، فمياه الامطار والثلوج المنحدرة من الجبال الى الاديّة
 تجتوف ما تقتلعه من الاتربة في سقوطها . اما القسم الوارث من
 هذه الانقاض كالطين والرمال فلا يلبث ان يقف اذا لم يدفعه
 تيار سريع . على ان المياه اذا لم تصادف الاتربة ناعمة خفيفة فهي
 تحمل منها كميات وافرة وتجبر كثبانها بسهولة . والنيل الذي صادف
 من امثال هذه المواد في بلاد الحبشة وافريقيا الداخلية قد استخدمها
 لتجفيف التمل . فقد حملتها مياهه وامتلأ منها بحراه ، حتى انه غالباً
 ما يرم بها وعرقلت بحراه . على انه عندما يستعيد فواه بالفيضان
 يدفع هذه الكثبان الى البحر ، ويستقدم غيرها في الوقت نفسه
 للفصل التالي : فاذا ما بلغت الاوحال محبة تراكمت وتكونت
 منها رملات ، لان المنحدر يخفف من قاعية المجري ، في حين ان
 البحر يقيم توازن مقاومة . وينتج عن ذلك ركود يضطر العسكر
 الطافي ان يتحدر الى اسفل ويستقر في الاماكن الاقل اضطراباً
 كالشواطىء . وهكذا يلقى الريف شيئاً فشيئاً من انقاض البلاد
 العليا والدلتا نفسها ، لان النيل ينتزع من الحبشة ما يعطي الصعيد ،
 ومن الصعيد ما يعطي الدلتا ، ومن الدلتا ما يدفعه الى البحر . فحينما
 ينساب يمرّ في الارض التي يغنيها في وقت معاً . فاذا جمدت نحو
 القاهرة ، والمياه منخفضة ، رأيت الخواقي المنحوتة عمودياً تنهار
 وقماً لان النيل يحفرها شيئاً فشيئاً من اسفلها ، مائلاً تربتها الرقيقة
 من السند ، فتتأثر في مسيلها . وعند فيوضه المياه قبيل التوبة وتنداف ،
 ثم لا تلبث ان تتفلسح بفعل الشمس والجفاف وتتساقط رفعاً
 كبيرة يجرها النيل . وعلى هذه الصورة تكسبت القروى الكثيرة
 واتسع غيرها بارتفاع قعر النهر ارتفاعاً مستمراً . وهذا ما حدث

للتربة الممتدة من النخيل الى فرع دمياط . فهذه القناة التي حفرها
في البدء يد الانسان قد اصبحت شبهة بنهر السين في اماكن
متعددة ، وهي تسد مسد الفرع الاصلي الواصل بطن البقرة بالنخيل
الذي ينكس حتى يوشك ان يصبح ارضاً يابسة اذا لم يستفرغ .
وسبب ذلك ان النهر ينزع باستمرار نحو الخط المستقيم حيث هو
اكثر ما يكون قوة واندفاعاً . وهو من اجل هذا السبب نفسه
قد تحول نحو فرع بلطين الذي لم يكن في الاصل إلا قناة
اصطناعية .

ويستدل ايضاً من حركات النهر هذه ان التكبس يجب ان
يحدث على خطوط المصاب الكبرى والنيارات الاسد . ومنظر
الارض ينطبق على هذه النظرية ، لان نفحص الحارطة يدل على
ان نواتي الارض اكثر ما تلاحظ في اتجاه ساعدي دمياط
والرشد ، وما يحاورهما او يتوسطهما من الاراضي بقي بحيرات
ومستنقعات شائعة بين الباسه والبحر ، لان الافنية الصغيرة التي
تخلها لم يكن في استطاعتها ان تحدث الا تكبساً ناقصاً .
فالواسب والطين تهد ببطء لا يرتفع بها الى ما فوق المياه ما
لم يتدخل عامل اكثر فاعلية وهو البحر . فهو الذي يعمل دون
ما قبل على رفع مستوى الشطوط الواطئة فوق مياهه . وفي
الواقع ان امواجه المزلزلية على الشاطئ تدفع ما تصادفه من
طين ورمال ، وتركم دفعاتها هذا السد الطفيف وتكسبه ارتفاعاً لا
ينسر قط في المياه الساكنة . وهذه الظاهرة ينحسبها السائر على
ضفاف البحر عند شاطئ واطى . خاصف ، شرط الا يكون
للبحر تيارات على الساحل ، لانه اذا كان يحسر في الاماكن

التي قدور فيها مياهه فهو يربح حيناً تتحرك . ومتى أصبحت
الزمرات الطيبة في مستوى الماء استولت عليها يد الانسان ،
ولكن عوضاً عن ان يقال انها رفعت مستواها فوق المياه يجب
ان يقال انها انزلت مستوى المياه ، لان الافنية المحفورة تجمع في
مساحات صغيرة طبقات الماء التي كانت تمتد على مساحات اكثر
اتساعاً . ويبدو ان الدلتا تكونت ببطء استمر حطاب قرون
مجدولة المدى ، ولكن الطبيعة لا يعوزها الزمن .

لا شك ان المجال ما يزال واسعاً في هذه البلاد الاستقراء
واعادة النظر ، ولكنها ، على ما سبق وذكرت ، بصطدمان بعقبات
يحتاج لتلايلها الى وقت ومهارة وبذل . وكثيراً ما تكونت
العقبات المرضية اكثر خطورة من العقبات الجوعرية . دليل
ذلك ما حدث للبارون دي توت le Baron de Tott في حله
مقياس النيل . فقد بذل المال عيناً للمنادين حتى يتبين حقيقة
ارتفاع النيل ، فكانت افواههم المتناقضة تدل على احد امرين :
اما سؤ النية ، او الجبل المشرك . وقد يقول قائل انه يحسن
صنع ركائز فياسبة في بيوتات خاصة . بيد ان هذه العمليات
البسيطة نظرياً ، مستحيلة التحقيق عملياً ، وتعرض من باشرها الى
اخطار جسيمة ، لان مجرد فضول الفرنسيين عند قدومهم بسوء
الانزاع ، فهم يحسبون انهم مطعمون في البلاد ، لان ما يقوم به
الروس مضافاً الى الاطنين السائرة لما يعزف فيهم القريب ، وتروج

ان علم هذه الافنية من الاسباب التي تغير معها درجات الفيضان ، فسادا كانت
الافنية كثيرة حميدة كانت المياه اكثر سرعة وافر ارتفاعاً ، وبجهد العكس اذا كانت
قليلة سطحية.

في هذا الوقت الشائعات ان الزمن المنتبأ منه قد حل ، وان ثمة انقلاباً في الحكم والدين والمصير الخ الخ . وبعد ، فلنعد الى ما نحن في صده .

اني الم الماماً خفيفاً بفصل^١ الفيضان وهو معروف ، ويتدرجه تدرجاً ضئيلاً وغير فجائي ، ويتنوع حالاته التي تظهره نارة خفيفاً ونارة شديداً ، او بما لا يؤثره له في بعض الاحايين . والحالة الاخيرة نادرة جداً وان تكن قد حدثت مرتين او ثلاثاً على ما يذكر . ان جميع هذه الامور تمت معرفتها الى حد لا يجوز معه التكرار . ومن المعروف ايضاً ان اسباب تلك العوارض التي كانت لغزاً^٢ للقدمين لم تعد لغزاً للاوروبيين . فمنذ انياهم رجالهم ان الحبشة والبقاع الملاصقة لها من اقربها تغمرها الامطار في ايار وحزيران وقوز ، فقد استدلوا بذلك على ان تلك الامطار بحكم طبيعة الارض تنحدر من آلاف الجداول وتستجمع في واد واحد لتظهر على الضفاف البعيدة غمرآ مهيباً يستغرق سيلانه ثلاثة شهور .

اننا نتوكل للفيزيين اليونانيين الزعم القائل بان ضغط الرياح الشمالية يوقف مجرى النهر . ومن العجب ان يكونوا القائلين بهذا التفسير ، لان الرياح اذا كانت تؤثر في سطح المياه فهي لا تحول دوت خضوع العمق للانحدار . وعشياً حاول بعض المعاصرين الاستشهاد بمثل البحر المتوسط الذي اذا ما استمرت الرياح الشرقية

١ يحددون له موعداً ثابتاً في ١٩ حزيران ، ولكن من الصعب تبين ذلك في الاول بالدقة التي يريدها الانباط .

٢ ولكن ديوقريئس قد حل هذا اللغز . واجمع تاريخ ديوقريئس في ليبيا ، الكتاب الثاني .

يعري شاطئ، سوربا مقدار قدم أو قدم ونصف القدم ليغطي
شواطئ اسبانيا بالمقدار نفسه، حتى إذا هبت الريح الغربية كان
المفعول معكوساً. فلا وجه مقابلة بين بحر لا انحياز فيه ونهر،
وبين بسطة المتوسط والنيل، وبين ست وعشرين قدماً وثمانية عشر
فيراظاً.

الفصل الرابع

في الرياح واعراضها

ان تلك الرياح الشمالية التي تعود كل سنة في موافقت معينة
تجتمع في سماء الجيزة ركائماً عجيباً من السحب . فمن ناسان الى
فوز لا تنفك الغيوم منجوة نحو الجنوب حتى يجبل اليك ان
المطر وشيك السقوط ، ولكن عبثاً نطلب من هذه الارض
المحرقة نعمة كذلك . فلا مطر قط في الدلتا ابان الصيف ، حتى
انه نادر شحيح خلال السنة . اما السنة ١٧٦١ التي لاحظها
ليبهر فقد كانت ظاهرة غريبة ما يرح الناس يتحدثون بها .
والحوادث التي نشأت عن الامطار وفنفسها في مصر السفلى ،
كانت يمار بعض القرى النائية المساكن ، تدل دلالة كافية على ان
الناس قليلاً ما يتوقعون هذه الغزارة في الامطار . ويرى الملاحظ
ان المطر يصبح نادراً كلما رقي نحو الصعيد . فهو في الاسكندرية
والرسيد اكثر حدوثاً منه في القاهرة ، وفي القاهرة اكثر حدوثاً
منه في المنيا ، ويكاد يكون اعموية في جرجا . ولا يصح لنا نحن
سكان النواحي الرطبة ان نتصور كيف يعيش فطر بلا قطر^١ .

١ اذا نزل المطر في مصر وفلسطين فلكل الشعب فرح عجم . مجتمع الناس في الازقة
يشدون الاكشيد حارخين بل ، اصواتهم : يا الله ، يا مبارك !

على ان كميات المياه التي تحتفظها الارض من الفيضان في مصر
فضلا عن التمدد الهام في ايام الصيف لما يكفي النبات . والمطبع
لحد الشواهد اليقينية ، اذ غالباً ما يكون جذعه في تراب جاف ،
فيما تنعم اوراقه بالطرارة . وثمة ظاهرة مشتركة بين هذه الانداء
والامطار ، فهذه كذلك غزيرة صوب البحر تتناقص كلما ابتعدت
عنه ، وتختلف في ان الانداء اقل في الشتاء منها في الصيف .
وحالما تغيب الشمس عن الاسكندرية في شهر نيسان تبطل الثلج
والسطوح كما لو كان شتاء . وهذه الانداء ، كالامطار ، كثيفة
او لطيفة بحسب نوع الريح الطامعة . فالرياح الثقيلة من الجنوب
او الجنوب الشرقي لا تجود بها ، والشالية غزيرة منها ، والغربية
اغزر ايضاً . ومن السهل تليل هذه الفوارق متى لوحظ ان
الرياحين الاوليين تقبلان من صحارى افريقيا وجزيرة العرب حيث
لا تقعان على فطرة ماء ، في حين ان الشالية والغربية تطردان
نحو مصر ابخرة المتوسط الذي تجتازه احدهما عرضاً والاخرى في
مسافة طوله . واني ارى ، اذ اقابل ملاحظاتي في البروفانس
وسوريا ومصر بملاحظات نيبوهر في جزيرة العرب وبومباي ، ان
مواقع البحار بالنسبة للبايسة انما هي السبب في تعدد خصائص
الرياح الواحدة التي تبدو بمطرة في بلد على كونها جافة ابداً
في بلد آخر . وهذا الامر يحل كثيراً في مذاهب الفلكيين القدماء
والحديثين القائلين بتأثيرات الكواكب .

وثمة عارض آخر عجيب ، غنيت به عودة كل ربيع من الربيع
عودة دورية ، ونخصها - اذا صح التعبير - ببعض فصول السنة .
وهذا الانتظام في مصر وسوريا جدير باستيفاف النظر .

وفي مصر ، عندما تقترب الشمس من مناطقها ، فنقل الرياح التي في الشرق الى دائرة الشمال وتلبث فيها . وفي حزيران تهب باستمرار من الشمال والشمال الغربي . وهذا الفصل يؤدي السفر الى الشرق ، حتى ان السفينة التي تفلح من مرسيليا باستطاعتها ان تلقي مراسيلها في قبرص او الاسكندرية في اليوم الرابع عشر ، وفي بعض الاحيان في اليوم الحادي عشر من اقلعها . والرياح في تموز لا تزال تهب شمالية متقلبة يمينا وشمالا بين شمالية غربية وشمالية شرقية . وتصبح شمالية صرفاً في اواخر تموز وطوال آب والنصف الاول من ايلول ، فتكون معتدلة ، اكثر ما تخفق في النهار ، فيما هي في الليل اكثر سكونا ، وبسود المتوسط تكون شاملا عند معه العودة الى فرنسا حتى سبعة يوماً او ثمانية . وفي اواخر ايلول عندما ترجع الشمس عن خط الاستواء ، تعود الرياح الى الشرق ، وهي وان لم تستقر فيه تهب منه اكثر من هبوبها من اي جزء آخر من اجزاء دائرة الرياح باستثناء الشمالي منها . وتغتم السفن فرجة هذا الفصل الذي يستمر طوال تشرين الاول لتعود الى اوروبا ، فيستغرق مسيرها الى مرسيليا خمسة وثلاثين يوماً او ثلاثين . وكلما انقلبت الشمس عن خط الدائرة تصبح الرياح اكثر نقلياً واضطراباً ، وترتاد المناطق الشمالية ومساكنها من شرق وغرب ، وتبقى على حالتها هذه في كانون الاول وكانون الثاني وشباط ، ويتألف منها في مصر وعند فصل الشتاء . ويحدث عندئذ ان ابحرة المتوسط المتراكمة والمثقلة بعبودة الهواء تقترب من اليابسة وتكون الضباب والامطار . اما في اواخر شباط وفي آذار عند اقتراب الشمس من خط الاستواء فتهب

الرياح أكثر من أي وقت آخر من الجنوب . وهي في هذا الشهر ، كما في نيسان ، تهب جنوبية وجنوبية شرقية وجنوبية غربية . وتنتج بها الغربية والشمالية والشرقية . وهذه الأخيرة تصبح عادة في آخر نيسان ، وتسيطر مع الشمالية على البحر في أيار ، وتجعل مدة العودة إلى فرنسا أقصر مما كانت عليه قبل أن يعادل الليل النهار على هذه الصورة .

السموم أو الخمسين

هذه الرياح الجنوبية التي تحدث عنها يطلق عليها في مصر اسم رياح الخمسين ، ليس لأنها تستمر خمسين يوماً متوالية ، بل لأنها أكثر ما تهب في أثناء الخمسين يوماً التي تدور حول الاعتدال الربيعي . وقد ذكرها الرحالة في أوروبا باسم الرياح المسومة ، أو بتعبير أصح : الرياح الصحراوية الحارة . وهذه هي في الواقع خاصتها ، لأن حرارتها ترتفع إلى حد يصعب معه على المرء أن يتمثل ما هي ما لم يكابدتها بنفسه ، ولكن يمكن تشبيه تأثيرها بالفضة التي تصفحك من فوطة القرن .

عندما يبدأ هبوب هذه الرياح يضطرب الجو ، وتعتكر السماء اعتكاًراً خفيفاً ، وتنفقد الشمس من سطوعها حتى تحسبها سطواتة بنفسجية . أما الجو فلا يبدو غامقاً ، بل رمادياً ، ينتشر فيه غبار لا يرسب ، ويغشى كل مكان . وهذه الرياح الخفيفة المبريدة ليست

وهي التي يسميها العرب السموم .

شديدة الحرارة عند بدء هبوبها ، ولحسبها تشتد شيئاً فشيئاً .
وتستشعرها الاجسام الحية فوراً لما يطرأ عليها بسببها من التبدل .
فإن الرئة يعوزها الهواء الكافي فتقلص وتنبهل . ويضيق فيها
النفس وتسرع حركاته ، ويحف الاديم وتناكل الحرارة باطن
الجلد . ومما تتواتر جرعات الماء فلا يتسبب العرق . وعيناً
يبحث المرء عن الطرارة ، والاجسام الرطبة تخبذ اليد التي تلامسها .
فالرخام والحديد والماء حارة الملمس رغم احجاب الشمس . وعندئذ
تقفز الشوارع ويحجم عليها الصمت شأنها في الليل . ويأوي سكان
المدن والقرى الى منازلهم ، واهل البادية الى خيامهم او الى الآبار
الحفורה في الارض حيث ينتظرون زوال العاصفة . وهي تستمر
عادة ثلاثة ايام . فاذا جاوزت هذا الحد اصبحت فوق طاقة الاحتمال .
والويل للمسافرين الذين تفجأهم بعيداً عن مأويهم ، فهم يكابدون
من نتائجها اسوأ مصير قد ينتهي بالموت . واكثر ما يكون الخطر
في ايام الزوابع ، اذ تنشأ من سرعة الرياح حرارة تقتل فتلاً صاعقاً .
ويكون الموت اختناقاً حقيقياً ، لان الرئة تنفس في الفراغ
وتختلج ، وتضطرب دورة الدم في الشرايين ، ويطرد القلب الدم
الى الرأس والصدر . وهذا ما يفسر النزف الذي يحصل من الانف
والفم بعد الوفاة . واكثر ما تفعل هذه الرياح في البدن وفي الذنب
عظيم التعب لوالب عضلاتهم وشرايينهم . اما الجنة فتستمر حرارتها
وقتاً طويلاً ، فتنتفخ وتزرق وتنزق بسهولة . وهذه العوارض تدل
على الاختار التعفني الذي يحصل في اجسام الحيوانات عندما تأسن
فيها الاخلاط .

ويقتضي لأجل التخلص من هذه الاعراض سد الانف والفم

بالمناويل . ومة وسيلة ذات جدوى تلجأ اليها الجمال فتعوز انوفها
في الرمال ريثما تهدأ العاصفة .

وهذه الرياح شديدة الجفاف حتى انها تبخر ماء الغرفة المرشوشة
في دفائق معدودات ، وتذبل النباتات وتعريه ، وتنص افراقات
الاجسام الحية ، فينقلص الاديم وتسد خلاياه ، وتحدث هذه الحرارة
الشديدة التي توافق احتباس العرق .

ولست هذه الرياح الحارة خاصة بصر ، فهي تحدث في سوريا
على الساحل غالباً . وهي في الصحراء اكثر منها في الجبال .
وصادفها نيبوهر في جزيرة العرب وبومباي وديار بكر . ولا تخلو
منها القرس واfrica واسبانيا نفسها . ونتائجها متشابهة في كل
مكان ، ولكن اتجاهاتها تختلف باختلاف الامكنة . ففي مصر يقبل
اشدها من الجنوب والجنوب الغربي ، وفي مكة من الشرق ،
وفي صورات من الشمال ، وفي البصرة من الشمال الغربي ، وفي بغداد
من الغرب ، وفي سوريا من الجنوب الشرقي . ان هذا التناقض
الذي يشي الارتباك لاول وهلة لا يلبث ان يصبح في التأمل
وسيلة لحل اللغز ، اذ يتبين لدى تفحص المواقع الجغرافية ان
الرياح الحارة تنطلق ابدأ من البقاع الصحراوية . ومن الطبيعي
ان الهواء الذي يغطي السهول العظيمة في ليبيا وجزيرة العرب ،
حيث لا جدول ولا بحيرة ولا غاب ، يسخن بفعل الشمس المحرقة
ويانعكس الرمال ، ويستوعب ما يستطيع استيعابه من درجة
الحرارة والجفاف . فاذا طرأ سبب يحوله الى مجرى معين تدافع
فيه نافلاً ما اكتسبه من ميزات عجيبة . وما يثبت ان هذه الميزات
ناشئة عن فعل الشمس في الرمال هو ان هذه الرياح تبدل

بتبدل الفصول .

ويؤكدون مثلاً أنها في مصر ، خلال شهري كانون الاول والثاني ، تضاهي الريح الشمالية في البرودة . وسبب ذلك ان الشمس ، وقد انقلبت الى دائرتها الاخرى ، لا تذهب عندئذ افرقبا الشمالية ، فيما تكون الحبشة مكسوة بالثلوج . ويجب ان تكون الشمس قد تددت من خط الاستواء حتى تحدث هذه العوارض . وفي سبب مماثل يحصل الريح الجنوبية تصل الى قبرص مرطبة بالبخرة المتوسط . اما الريح الشمالية فهي شديدة الحرارة في هذه الجزيرة خلال الصيف ، فيما هي تلجية في الشتاء . وهذا ناتج بلا شك من مناخ آسيا الصغرى التي يشد فيها القبط صيفاً ، والصقيع شتاء . ان هذا الموضوع يثير مسائل عديدة تستدعي فضول علماء الفيزياء . أليس جديراً بالاعتماد الاطلاع على الامور التالية :

- ١ - ما هو منشأ علاقة الفصول ومسير الشمس بنوع الرياح وبالمناطق التي تهب منها ؟
- ٢ - لماذا تتسلط الرياح الشمالية على جمل المتوسط خلال تسعة شهور من اصل اثني عشر شهراً ؟
- ٣ - لماذا تهب الرياح الشرقية بانتظام بعد الاعتدال الخريفي والصيفي ؟
- ٤ - ما السبب في ان الندى اغزر في الشتاء منه في الصيف ؟ ومع العلم ان الغيوم تحصل من تبخر مياه البحر ، وان التبخر اشد في الصيف منه في الشتاء ، لماذا ~~تكثر~~ الغيوم في الشتاء ، فيما هي قليلة في الصيف ؟
- ٥ - واخيراً ، لماذا تندر الامطار في مصر ، ونتجها الغيوم الى سماء الحبشة ؟

الفصل الخامس

المناخ والهواء

المناخ في مصر شديد الحرارة إذ تبلغ درجتها خلال تموز وآب ٢٤ أو ٢٥ في أكثر الظلال اعتدالاً . ويقال لها تبلغ درجة أعلى في الصيف . والسبب الرئيسي في ذلك مجاورة الشمس لهذا القطر ، وهي تكاد تكون عمودية في الصيف . ولكن مني عرفت ان هناك افطاراً اخرى واقعة في مثل هذا الموضع من خط الاستواء هي أكثر من مصر اعتدال هواء ، تبين لك وجود سبب آخر يولذي الاول بغاغلته ، غيب به مستوى الارض الذي يكاد لا يرتفع فوق البحر . وتقتصر فصول مصر ، بسبب هذه الحرارة ، على فصلين اثنين : الربيع والصيف ، اي البرودة والقيظ . وهذه الحالة الاخيرة تستمر من آذار حتى تشرين الثاني . ويمكن القول ان الاوروبي لا يطبق احتمال الشمس ابتداء من آخر شباط لدى الساعة التاسعة من النهار ، إذ يستعر الهواء طوال هذا الفصل ، وتنوهم السماء ، ويرهق القيظ الاجسام التي لم تعود من قبل . فانك مهما ترق ثيابك ومهما تستسلم للراحة ، يتعذب العرق منك بغزارة ، ولكنه يصبح ضرورياً ، حتى اذا انقطع عنك انتابك المرض . واري انه عوضاً عن انتهاء المعتادة « كيف انت؟ » يجب ان يقال « كيف تعرق؟ » ان غروب الشمس يعدل هذه الحرارة شيئاً . فالبحر الذي تشرجه

الأرض من النيل ، فضلاً عن التي تحملها رياح الغرب والشمال ، تلطف
التوهج المنتشر في الهواء وتنتشر برودة لطيفة ، حتى أنها تحدث
برداً لا ذعاً إذا صح قول الطبيعيين وبعض التجار الأوروبيين .
بيد أن المصريين ، وهم شبه عراة تعودوا العرق ، يشعرون من البرودة
ولو خفيفة . وميزان الحرارة الذي ترواح درجته خلال شباط بين
الثاني والتسع في حالة الصيف يثبت ما نحن في صده ، حتى يمكن
القول أن البرد والتلج حدثان قد لا يعرفهما قط مصري بالغ من
العصر خمسين عاماً . على أن ما في تجارتنا من رهافة الاحساس يرجع
إلى افراطهم في لبس الفراء . فهم يتدثرون في الشتاء بفروتيين أو
ثلاث من جلود الثعالب ، ويحفظون بفراء السور حتى في أشد
حرارة حزيران . وهم ينجون على ذلك بالبرودة التي يحسونها في
الظل . وفي الواقع أن تيارات الشمال والغرب التي تكاد تنسلط
باستمرار تشيع الطرارة في كل الأماكن المحيطة عن الشمس . على
أن عقدة السر الحقيقية هي في تلك الفروة ، شارة التبرج في تركيا .
وهي اشارة الالهة ، وعلامة العظمة ، والهدية المفضلة لمن
يتولون المناصب الخطيرة . فكان مهديا يقول لمن يرنديا انه السيد
العظيم الذي اصبح ولا شغل له الا ان يعرق .

نجيل اليك ، بالنظر الى شدة الحر وكثرة المستنقعات طوال ثلاثة
اشهر ، ان مصر بلد ردي المناخ . وهذا هو التأثير الاول الذي
اعتواني حاملاً وطئت ارضها . فلما وقعت عيني في القاهرة على
منازل تجارتنا الجائقة على طول الخليج حيث تركد المياه حتى شهر
نيسان ، حسبت انهم معرضون لختلف الامراض بسبب الانجورة
المتصاعدة . بيد ان الاختبار يكذب هذه النظرية . فان روائح

المياه الآسنة ، وهي قتالة في فبرس والاسكندرونة ، لا تحدث المفعول
نفسه في مصر . ويلاحظ لي ان السبب في ذلك جناف الهواء فيها
ومجاورتها لافريقيا وجزيرة العرب اللتين تنشران الرطوبة فضلاً
عن تيارات الهواء المستمرة من دون حاجز . وهذا الجفاف
هو من الشدة بحيث ان اللحوم المعرضة للريح الشمالية ، حتى في
الصيف ، لا تقصد ، بل تنشف وتفسد كالخشب . وتعرض الصحراء
منظر جثث جافة أصبحت من خفة الوزن بحيث يسهل على الرجل
ان يرفع باليد الواحدة هيكل جمل كامل ^١ .

ويضيف الهواء الى هذا الجفاف رواسب ملحية تلاحظ في كل
مكان . فالخجارة يقربها النطرون . وهناك في الاماكن الرطبة
مسلات طويلة متبلورة فحسب انها البورق . وجدار حديقة
اليسوعيين في القاهرة المبنى بالاجر والتراب مكسو بقشرة من
النطرون بساكنة الفس . وعندما تغمر مياه الخليج مربعات هذه
الحديقة ، ترى عند تراجعها ان الارض تلتصق فيها كريات بيضاء لا
شك انها لم تأت مع الماء ، لان هذا الماء لا يعطي اي دلالة على
الملح سواء اكان بالذوق ام بالتقطير .

لا ريب ان هذه الخاصة المزدوجة في الهواء وفي الارض
- مضافة الى الحرارة - هي التي تكسب النباتات نشاطاً يكاد
لا يصدق في مناخاتنا الباردة ، فحينما تنعم الزروع بالماء تنمو
بسرعة عجيبة ، ويمكن من قصد الى القاهرة او الرشيد ان يتبين

^١ يلاحظ ان هواء الساحل اقل جفافاً ، اذ ان الحديد الممرض للهواء مدة اربع
وعشرين ساعة في الاسكندرية والرشيد لا يلبث ان يصدئ .

ن القرع تطول فروعه في اربع وعشرين ساعة ما يقارب اربعة
قرابط .

على اني ألاحظ ، وبهذا اختم البحث ، ان هذه الارض مازنة
جائزة ، بمعنى ان الاغراس الاجنبية تؤول فيها الى انحطاط سريع ،
وهو امر اثبتته الاختبارات المتكررة . وترى تجارنا مضطرين الى
تجديد البزور في كل سنة ، فيستفدون من ملاحظة بزور التبييط
والشمندر والجزر . فاذا ما زرعت هذه البزور احابت في اول
الامر نجاحاً كبيراً ، ولكن البزور التي تتولد منها لا تثبت الا
اغراساً سقية . وحدث الشيء نفسه للوبياء والاجاص والدراقن
المسود من الرشيد . ويلوح ان نمو النباتات في هذه الارض
عنيف الى حد انه تفوته تغذية الالياف الاسفنجية الفضرة . فيجب
ان تألفها الطبيعة تدريجياً وان يؤانها المناخ عن طريق العناية
الزراعية .

القسم الثاني

حالة مصر السياسية

الفصل السادس

مكان مصر واجناسها الخاصة

قليلة هي البلاد التي احتفظت بسكانها الاقحاح الصرحاء خلال الثورات التي هزت على النواحي مقدرات الشعوب . فان الجشع الذي يحمل الافراء على التطاول والتعسف هو نفسه الذي دفع الامم الى الوقوف وجهاً لوجه . وقد نتج من هذا الاصطدام في المصالح والقوى ان دخل البلاد غريب متصر . فهو عندئذ اما مقتصب غات يعرّي الامم المغلوبه من الثروات الذي جادت عليها به الطبيعة ، واما فائح اكثر تهيأ او فذلّاً يقتصر على مقاصدها المنافع التي غنت بها عليه ارض موطنه . وهكذا نشأت في الدول اجناس مختلفة من السكان ، قرّبت بينها الطبائع والمصالح في بعض الاحيان ، فتأزجت بالتزاوج ، او فترقت بينها في اكثر الاحيان الاعتبارات السياسية والدينية ، فتعاشت على الارض الواحدة دون ما اختلاط وامتزاج . ففي الحالة الاولى فقدت الاجناس المختلطة خواصها المميزة فاصبحت شعباً متجانساً ، وفي الحالة الثانية بقيت الفوارق واستمرت منازرة حتى غلبت المعصود بحيث يمكن الركون اليها في بعض الحالات للاستعاضة بها عن سكوت التاريخ .

وهذا هو شأن مصر . فهي قد تزعجت من ممالكها الطبيعية منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، وشهدت على التعاقب الفرس والمقدونيين والرومانيين والاعرقيين والعرب والكرجية ، واخيراً هذا الجنس الثوري المعروف بالأتراك العثمانيين . وكثيرة هي الشعوب التي تركت فيها أثراً بئساً . أما وقد تخالطت في تعاقبها فقد اصبح من المتعذر التفريق بين ميولات كل منها على حدة . بيد انه يمكن تمييز اربعة شعوب من سكان مصر .

فالشعب الاول والاكثر انتشاراً هم العرب ويقسمون طبقات ثلاث :

١ - ذراري الذين نالوا على هذه البلاد الخيرة من الحجاز واثار اجزاء جزيرة العرب عندما دخلها عمر في السنة ٦٤٠ . فقد تهاقوا على امتلاك الاراضي حتى ضاقت بهم الدلتا وافضرت من الاغارقة المدحورين . ان هذا الشعب الذي تتألف منه طبقة الفلاحين والصناعيين الحالية قد احتفظ بسمائه الاصلية ، ولكنهم اكتسب بنية اصلب وقواماً اطول ، وهما نتيجة طبيعية للغذاء الوفير الذي لم يكن منسباً له في الصحراء . وفلاح مصر يبلغ طوله عادة خمس اقدام واربعة فراريط . وكثيرون يبالغون ست اقدام ، بل سبعة . واجسامهم عضلة دون بدانة . ولهم قوة الرجال المتوسين بالشعب . وجلودهم التي لوحتها الشمس فكاد تكون سوداء . وليس في وجوههم ما ينقر . ومعظمهم ذو رأس اهلبيجي جميل ، وجبين عريضة ثائثة ، وحاجب اسود على عين سوداء محبقة براقفة ، وانف ينزع الى الضخامة غير افنى ، وفهم منتظم الخوافي على انسان جميلة ابداً . ان سكان المدن اقل نشاطاً بسبب كثرة

الاختلاط . اما سكان القرى الذين لا يتزوجون الا بدوي قريتهم
فسيانهم اكثر تشابها وروفا . وفي سياهم خشونة يرجع سببها الى
مبول في النفس ما برحت تغذيها حالة الحرب والنظم التي تحيط بهم .
٢ - وثمة طبقة ثانية من العرب هي طبقة الافريقيين او المغاربة
الذين انضموا الى اهل الطبقة الاولى على التوالي . وهم منهم
انسال الفانجين المسلمين الذين اجلوا اليونانيين عن بلاد المغرب .
ويتعاطون مثلهم الزراعة والحرف ، ولكنهم اكون انتشاراً في
الصحراء حيث يستقلون في قراهم ، وفي امراهم ايضاً .

والطبقة الثالثة البدو او رجال البادية او اهل الحُبام .
فبعض هؤلاء موزع عشائر تقطن الصحور والمغاور والخرائب
والاماكن المعزولة حيث الماء . وبعضهم الآخر يتجمع قبائل تنزل
الحُبام الواطئة المسودة بالدخان ولعيش في رحل مستديهم . وسواء
اقاموا في البادية ام على ضفاف النهر فهم لا يتعاقبون بالارض
الا بمقدار ما يربطهم بها الامان والمرعى . ومنهم قبائل تأتي كل
سنة بعد الفيضان من قلب افريقيا لتفيد من الكلال الثابت ، ثم لا
تلبث ان تنوغل في الصحراء خلال الربيع . ومنهم قبائل مقبلة
في مصر تستأجر الارض وتزرعها . وبين تلك القبائل جميعها حدود
متعارفة محترمة المعالم ، فاذا تجاوزتها قبيلة تعرضت للحرب . وهؤلاء
القوم نبط واحد في المعيشة وعادات واخلق واحسنة . والبدو
فقراء اميون ذوو خصائص تميزهم من الامم المحيطة بهم . وهم

١ في اللغة العربية : بدوي مشتق من اليد وهي الصحراء غير المأهولة (الخامسة
لغزلب) .

مسالمون في ربهم ، ولكنهم في حالة حرب في اي مكان آخر .
يكرههم المزارعون والمهاجرون بسبب النهب والتعدي ، ويحشاهم
الأتراك فيفسون بينهم بالنزفة والرشوة .

يقدر عدد هذه القبائل في مصر بثلاثين ألف خيال ، ولكن
قواتهم مبعثرة غير متألفة ، وينظر اليهم كشرقة متشردين .

والجلس الثاني من السكان هم الأقباط ، فمنهم بعض الاسر في
الدنا ، ولكن معظمهم يقطن الصعيد حيث تتألف منهم قري
بأكملها . ويثبت التاريخ فضلا عن التقاليد لهم متحذرون من
القوم الذين جردهم العرب ، اي من هذا الخليط من المصريين
والفرس واليونانيين بنوع خاص ، الذين قتلوا مصر زمناً طويلاً
في أيام بطليموس وقسطنطين ومن تعاقبوا على الملك بعدهم
الاسمين . وهم بخلاف العرب يدينون بالنصرانية ، ويتميزون من
سائر المسيحيين في مذهبهم الذي هو مذهب اوثيخيوس . وكانت
من نتيجة اعتناقهم لهذا الرجل اللاهوتية ان سائر الودم
ساموهم من الاضطهاد ما جعلهم يتفرون من المسألة . فلما فزع
العرب البلاد اغادوا من هذه الحالة ليضعفوا الفريقين . وانتهى
الامر بالأقباط ان ابعثوا مناوئهم . ثم اصبحوا ، يعرفهم
اصول الادارة الداخلية في مصر ، امراء سجلات الاراضي
والقبائل ، واتخذوا اسم « الكتبة » فكانوا وكلاء وجباة لدى الحكومة
والبيكات . وهؤلاء الكتبة الذين يخنقهم الأتراك بخدومهم ،
ويكرههم الفلاحون بسبب جورهم ، يؤلفون هيئة يرئسها كاتب القائد
الرئيسي . فهو الذي يتصرف بجميع المناصب فلا يمنحها بغير مقابل
من المال .

يزعمون ان لفظة قبطي مشتقة من اسم مدينة فوبطوس التي
 لجأ اليها الاقباط عند اضطهاد الروم لهم ، ولكنني اجد لها أصلاً
 اشرق واصوب . ان لفظة قبطي العربية هي بلا شك تحريف
 الكلمة اليونانية ايجوبتس اي مصري ، لانه نجب
 الملاحظة ان حرف « كان يلفظه اليونانيون القدماء « u » ، وان
 العرب لا يعرفون « u » او « u » قبل « o » ، « u » فهم يستبدلون من هذه
 الحروف دائماً حرفي « u » و « u » . فالاقباط اذن يمثلون المصريين^١ وعندهم
 حرف « u » الذي لا يتبدل امام الاحرف الصوتية شأن حرف « u »
 عندنا . وفي اعتبار آخر يجلي على هذا الاعتقاد ، وهو ان وجوه
 الاقباط على الاطلاق تتسم بسمه خاصة قد استوعبت انبساطها ؛
 عنيت هذه البشرة الصفراوية الدخانية اللون التي ينسبها اصل يوناني
 لا عربي . فسمه وجه منتفخ ، وعين مورمة ، وانف افطح ، وشفة
 ضيقة ، ومجمل القول وجه خلاص واضح .

وقد بدا لي ان انسب هذه الخصائص الى المناخ^٢ ، فلما زرت
 ابا الهول تكشف لي السر في منظره . نظرت الى هذا الرأس وهو

١ خصوصاً وانهم سكنوا الصعيد قبل ديوكليتيانوس وان اليونانيين كانوا في الصعيد
 اقل منهم في الدلتا .

٢ وفي الواقع لاحظت ان وجوه الزنوج متفلسة تقص وجوهنا عند مجيئة الدور
 وانعكاس الحرارة . فيتقلب الحاجب عندئذ ، وتعلو الوجنتان ، وتغارب الاعدايب ، ويسمع
 الغم . وهذا التشنج الذي يحصل باستمرار في بلاد الزنوج الجرداء الحارة الا يصح القول
 انه اصبح هيئة خاصة لوجوههم ؟ ان الصليح والرياح والتلج تلقي الى النتيجة نفسها التي
 تظهر في هذه الاحوال عند البشر ، في حين ان هذه الحالة لا توجد في المناطق المعتدلة
 حيث تستطيل القمم ، وتكون العيون اكثر قرباً من مستوى الرأس ، والوجه كله اكثر
 تقسماً .

رأس زنجي في جميع قسمايه ، فنذكرت هذا المقطع الشهير من
هيروودونس حيث يقول :

« اما انا فاعتقد ان الكلتيين جالية من المصريين لانهم ياتلونهم
في - واد الوجه وتجمع الشعر . »

ويدل هذا على ان قدماء المصريين كانوا من الزنوج كسكان
افريقيا الاصليين جميعاً ، ويفسر لنا كيف ان دمهم الذي امتزج
على بحر العصور بدم الرومانيين والاغريقين قد فقد حليته الاولى
واستبقى منها ما يدل على طابعه الاصلي ، حتى انه يجوز اطلاق
هذه الملاحظة والقول ان السياه اثر بضيء شواهد التاريخ عن
اصول الشعوب . وعندنا في فرنسا ، لم يكن انقضاء تسعمائة سنة
كافياً لازالة الفارق الذي يميز سكان غاليا ، هؤلاء الشماليين الذين
احتلوا اغني مقاطعاتنا في عهد كارلوس السمين . ويحدثك المسافرون
من نورمانديا الى النفاوك بدهشة عن الشبه الاخوي بين سكان
هاتين المقاطعتين ، ذلك الشبه المحفوظ برغم الفاصل الزمني والمكاني .
ويلاحظ الامر نفسه بين فرانكونيا وبورغونيا . ومن تبصر له
ان ينجول منتصباً في فرنسا وانكلموا نبيين اثر الهجرة على وجوه
السكان . اليس في اليهود آثار لا تطفئ حيث حلوا ؟

وفي البلدان التي يكون شرفاؤها اغراباً دخلوها عن طريق
الفنح ، اذا كان هؤلاء لم يخالطوا الوطنيين بالزواج ، احتفظوا
بطابع خاص بهم ، والدم الكلدوني في الهند ما برج متميزاً من
غيره . فاذا نهياً لاحد ان يدرس مختلف الامم الاسيوية
والاوربية لا يعدم ان يجد من هذه المائلات ما ارضى عليه
النسبان مدوله .

ما ادعى عبدة التاريخ في مصر الى التأمل ان الاقباط على ما هم عليه اليوم من جهل ومهجنة يتحدرون من تزاوج عبقرية المصريين العميقة والفكر الاغريقي الساطع . فهذا الشعب الاسود الذي هو اليوم عبدا وموضوع احتقارنا هو هو نفسه الذي نحن مدينون له بالعلوم والفنون وحتى بالحرف . ولنتصور اخيراً ان اكثر العبوديات همجية قد نشأت بين هذه الشعوب التي تزعم انها اكثر الشعوب حباً للحرية والانسانية ، وهي التي اثارت مسألة ما اذا كان الجنس الاسود بائِل الجنس الابيض في الذكاء !

واللسان اثر آخر له دلالاته الصادقة المظيدة . واللسان الذي كان يستعمله الاقباط مثبت لما ازعم . فان شكل حروفهم ومعظم كلماتهم تدل على ان الامة اليونانية قد وصلت مصر بطابعها العميق خلال الف سنة^١ . ونرى من ناحية اخرى ان الابجدية القبطية تنطوي على خمسة حروف ، والمعجم على كلمات عديدة هي انقراض اللغة المصرية القديمة وبقياتها . فاذا تفحصت هذه الكلمات وجدت مماثلة بيّنة بينها وبين لغات الشعوب المجاورة القديمة كالعرب والانيوبيين والسوريين ، بل وسكان خفاف الفرات ، حتى يمكن التاكيد ان جميع هذه اللغات مشتقة من اصل مشترك . اما لغة الاقباط فقد تلاشت منذ ثلاثة قرون ، لان العرب احرقوا السن الشعوب المغلوبة على امرها ، وفرضوا عليها نير القنص وتعلم لغتهم في وقت معاً . وقد اصبح هذا الالتزام شريعة في نهاية القرن الاول للهجرة اذ حرم معاوية اللغة اليونانية في ارض الدولة كلها .

١ راجع القاموس القبطي : لاسكروز .

فعمت اللغة العربية ، فبما انزوت اللغات الاخرى في الكتب سداً
لحاجة العلماء الذين ما لبثوا ان اعملوها . وهذا كان مصير الخطبة
في كتب العبادة والكنائس . فلم يبق عليها زمن حتى دق فيها
على الكنيسة والرهبان ، واصبحت العربية اللغة المتداولة في مصر
وفي سوريا حيث يتكلمها المسيحي والمسلم على السواء ولا يفهمان
غيرها .

وفي هذا العهد تعرض ملاحظات لا تخلو من الاهمية التاريخية
والجغرافية . من المؤلف بل من الضروري ان يورد الرحالون
في ابحاثهم عن بلد ما كلمات من اللغة الشائعة فيه ، خصوصاً
فبما يتعلق باسماء العلم للشعوب والمدن والانهر وغيرها . وقد نتج
من هذا النقل نشوبه وتضيق أنظمة مفهوم الكلم . واكثر ما
حصل ذلك في البلدان التي ادريها ، مما ادخل على كتب
التاريخ والجغرافيا بلبلة عظيمة . فالعربي الذي لا يلم بالفرنسية
لا يتعرف في خرائطنا الى عشر كلمات من لغته . واذا نحن
تولنا هذه اللغة وقمنا في المخطوط نفسه ، واسباب ذلك عديدة :
١ - جهل معظم الرحالين اللغة العربية والتطرق بها بنوع خاص .
وكان هذا الجهل سبباً في ان آذانهم التي لم تالف الاجراس
الاجنبية تقابلها مقابلة غالبة بأجراس لغتهم .
٢ - مخارج الالفاظ التي لا نجد ما يماثلها في اللغة المنقول

١ ان العالم يوتوك لغة الذي برهن عن اعتداله في شرح النصاريف لم يستطع
الاستفادة من المترجم وفونهاين Vonhagen استاذ اللغة العربية في الدنمارك لم يكن
فيه ما معنى « السلام عليكم » حين عبط مصر مؤخرأ لما رفيقه نورسكال Forskal
الشاب فقد جلى عليه بعد سنة من الزمن .

اليها . مثل ذلك حرفا th من الانكليزية والحاء الاسبانية ، فمن لم يسمع هذه الحروف لا يستطيع ان يتلفها . وتزداد المشكلة مع لغة العرب المكتوبة على ثلاثة احرف صوتية وصيغة او ثانية احرف اخرى غريبة عن الاوروبيين ، فكيف تصورها لكي تحفظ ماهيتها وتتجاشى خلطها بغيرها بما يختلف عنها معنى ؟

٣- وثمة سبب ثالث لانشوبش ناشى عن طريقة الكتاب في وضع الكتب والحرائط . فقد استقوا معلوماتهم من جميع الاوروبيين الذين رحلوا الى الشرق ، واعتمدوا إملاء اسماء العلم كما وجدوه عند هؤلاء . وفاتهم ان الامم الاوروبية المختلفة ، وان كانت تستعمل الاحرف الرومانية ، الا انها تنطق بها على صور مختلفة . ان « الطليانية ليست » فرنسية بل ee . و « عديم ليست » ee بن ee ، و « ليست » ee بل tene . ومن هنا يحصل هذا الاختلاف الظاهر في الكلمات فيما هي هي نفسها . وعلى هذا ، فان الكلمة التي يجب ان تكتب بالفرنسية chaire او chek ، تكتب على التوالي Schek^١ او shekh او shehe او seiek بحسب ما تكون استخاضها من الانكليزية او الالمانية او الايطالية حيث ضم sh و sch و se ياتى che عندنا . ويكتبها البولونيون szach والاسبانيون chej . وهذا الفارق في آخر الكلمة (و ch و sh ناشى عن كون الحرف العربي يقابله jota الاسبانية و ch الالمانية^٢ التي لا مثيل لها عند الفرنسيين والانكليز والايطاليين . ومن اجل هذا السبب نفسه

١ يجب لاي راو هذه الفوارق عند القراءة تهجئة الحروف واحداً واحداً .
٢ لا يلج ذلك الى جميع الحالات ، بل قبل « و » كما في قولك buch اي كتاب .

يكتب الانكليز Ruoda اسم الجزيرة الذي يكتبه الايطاليون Ruda والذي يجب ان ننطق به نطق العرب في اي Rouda . وكتب بوكوك harammée عوضاً ان يكتب harami اي حارق ، وكتب نيبوهر dsjebel عوضاً عن djebel اي الجبل ، وكتب داتيل الذي كثيراً ما استقى من مذكرات الانكليز sham بدلاً من ehām اي الشام ، وكتب wadi اي ouadi الوادي ، الى مسا هنالك من الامثال العديدة .

وادی هذا التشویش في الاملاء الى اختلاط كثير اذا لم يتدارك افضى في حديث الامر الى المحذور الذي اعترض قديمه . ان اليونانيين والرومانيين ، بجهلهم لغة البرابرة ، قد تصرفوا في تكييف اجراسها على هوائهم ، فافتقدوا اثر الاسماء الاصلية ، وحالوا دون معرفتنا الحالة القديمة على ضوء الاثر الباقي . ان لغتنا كلغتهم تنطوي على هذه الطائفة ، فهي تشوة كل شيء . ونلبو اذاً انفسنا عن كل ما هو غير مألوف نبوها عن شيء بريري . لا ريب انه لا طائفة لنا في ادخال اجراس جديدة عليها ، بل يستحسن ان نتقرب من الاجراس التي نترجمها ، وان نخصص بها اقرب الاجراس الى قائلها في لغتنا ، ونضيف اليها بعض العلامات الاصطلاحية . ولو جرى كل شعب من الشعوب على هذا النمط ، لتوحد الاصطلاح ، وكانت خطوة اولى نحو الجدية عامة توافق جميع اللغات ، الاوروبية منها على الاقل . وهو عمل سهل نس الحاجة اليه يوماً بعد يوم . سأورد خلال هذا المؤلف اقل ما استطيع من الكلمات العربية . ومتى اضطررت اليها فلا يدهش احد اذا انصرفت عن الاملاء الذي اعتمدته اكثر الرحالين . فاذا امننا النظر فيما كتبوا

تبين لنا انه لم يلم احد منهم بحقيقة العناصر التي تتألف منها
الاجيدة العربية ، او عرف المبادئ الواجب اتباعها لنقل الكلمات
الى كتابتنا . اعود الى موضوعي .

وفي مصر شعب ثالث هم الاتراك ، اسبأ البلاد ان لم يكن
فعلياً فاسمياً . ولم يكن لفظ تركي في الاصل خاصاً بلامه
التي تطلقه الآن عليها ، بل كان يشير بوجه عام الى الشعوب المنتشرة
شرقي بحر جرجان ، بل وفي شماليه ايضاً ، حتى ما وراء بحيرة آرال
في المناطق الفسيحة التي اتخذت من اسمهم اسماً عاماً ، عنيت
تركستان^١ . هؤلاء الشعوب هم الذين ذكرهم الاغاثة باسماء الفرت
والمغاجين والكيشيين ونذكرهم نحن باسم التتر ، وهم شأن عرب البادية
وعامة متشردون ، اظهروا في كل العصور انهم محاربون فساء شديرو
المراس . فلا كسرى ولا الاسكندر شكنا من اخضاعهم . اما العرب
فكانوا اكثر توفيقاً ، اذ دخلوا بلاد التوك بامر الخليفة الوليد في السنة
الثاني تقريباً للهجرة ، وعرفوهم بدينهم وبسلاحهم ، وفرضوا
عليهم الجزية ، ولكن الغرضي ما لبثت ان عمت الدولة العربية ، فتسرد
حكامهم على الخليفة واستعملوهم عليه ، وما لبثوا ان تدخلوا في جميع
الشؤون وقويت شوكتهم واشتد ساعدتهم بفضل ما هم فيه من طريقة
العاش . فهم ابدأ تحت الحيام مدججون بالسلاح ، ومنمرسون بكل
اساليب القتال . وكانوا كالبندو منقسمين قبائل ، والقبيلة في لغتهم
« اورضة » التي اشتقنا منها كلمة Horde للدلالة على عشائهم .

١ استان لفظ فارسي معناه بلد ، ويضم الى آخر اسماء العلم ، فنقول عربستان
تركستان الخ ...

وسواء أكانت هذه القبائل متحالفة أو منقسمة على بعضها بسبب
تباين المصالح ، فقد كانت الحروب مستمرة بينها . وهذا هو السبب
الذي من أجله تجد في تاريخها أن شعوباً تركية عديدة تملأ حقن
ويجئ الواحد الآخر على التوالي . وقد عرفت ، دفعاً للالتباس ، أن
أخص اسم الترك باتراك القسطنطينية فيها اسمي من تقدمهم تركاناً .
لم تلبث القبائل التركمانية التي أدست في السلطنة العربية أن
سيطرت على الذين كانوا قد استدعوا كحلفاء مأجورات .
وتسنى للخلفاء أن يخسروا الأمر بأنفسهم ، فإن المنعم شقيق
المأمون وخليفته الذي اتخذ له حرساً من التركان ، اضطر أن
يقادر بغداد بسبب ما أثاروا من القلاقل . وتزايد سلطانهم
وعنهم بعد هذا الخليفة ، حتى تحكموا بالعرش وبجباة الأمراء ،
فقتلوا منهم ثلاثة خلال ثلاثين سنة . وما كان
ازعاج الخلفاء من هذه الوصاية الأولى ليزيد في حكمهم ، فإن
الراضي بالله تفرغ عن الولاية في السنة ٩٣٥ في بلد تركاني مما
جعل خلفاءه يرزحون تحت القيود الأولى ، ثم أصبحوا أشباحاً
للسطان تحت حراسة أمراء الأمراء . وفي بلبلة هذه الفوضى
دخلت بعض القبائل التركمانية إلى السلطنة ، وأست دولاً مستقلة
في قزوين وخراسان وإيقونيا وحلب ودمشق ومصر ، ولكن
مرعان ما آلت إلى زوال .

وكان الاتراك حتى هذا العهد ما برحوا في شرقي بحر جرجان
وصوب جيعون حيث عرفوا باسم الاوغوز ، على أن جانكيزخان
خرج في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر بمجيع قبائل
الذين على أمراء بلخ وهرقند . ولم ير الاوغوز من الحكمة

انظار المغول ، فاندفعوا بأمره قائدهم سليمان يسوقون ماشيتهم ،
 حتى استقروا في السنة ١٢١٤ في اذربيجان ، وكان عددهم
 خمسين الف فارس . ثم تبعهم المغول ودفعوهم ناحية الغرب في
 ارمينيا . وغرق سليمان في السنة ١٢٢٠ قبا كانت يحاول اجتياز
 الفرات راكباً . فتسلم بعده القيادة ولده ارطغرل وتقدم بقبائله
 في سرول آسيا الصغرى حيث وقعت النواحي على مرعى خصيب .
 وكان هذا القائد ذا حكمة وبصيرة اكتسبته قوة ومقاماً ، فمضى
 الى مخالفة امراء تلك النواحي وفيهم التركماني علاء الدين سطان
 ايقونيا . فان هذا الرجل الذي كان يشمر به عن الشجوخة وبضيق
 ذرعاً بمساواة تورجانكيزخان له ، وهب اترك ارطغرل الاراضي
 وعينه قائداً على الجيش . ولم يجيب ارطغرل ثقة السلاطن فقهر
 المغول . وازداد شهرة واقتداراً . وجاء بعده ابنه عثمان فتسلم من
 علاء الدين ، خليفة الاول ، قفطاناً وحبلاً واذناب خيل ، وهي رمز
 القيادة عند التتر . وشاء عثمان هذا ان يميز اتراكه من غيرهم ،
 فسماهم عثمانيين نسبة الى اسمه . وما عثم هذا الاسم حتى اصبح رتبة
 ليوناني القسطنطينية ، فاجتاح عثمان اراضيهم الواسعة ، وجعل منها
 ملكة عظيمة . ثم اتخذ له اسم السلطان ، اي السيد المطلق . ومن
 المعروف كيف توسع خلفاؤه ووارثوه طموحه ونشاطه على حساب
 اليونانيين ، وكيف انتزعوا منهم المقاطعة تلو المقاطعة في أوروبا
 وفي آسيا ، حتى زحفهم في اسوار القسطنطينية ، وكيف استولى
 محمد الثاني ابن السلطان مراد على هذه المدينة في السنة ١٤٥٣ واباد
 هذا الفرع من امبراطورية روما . وأخذ يفضي الاتراك يدهم من
 شؤون أوروبا حولوا مطامعهم الى مقاطعات الجنوب ، وكان قد

مرة على بغداد مثلما عام وهي تحت نير النور . وقد زالت الخلافة
 عنها طوال هذه الحقبة من الدهر ، وآلت بعض ممتلكاتهم الى دولة
 جديدة قامت في الفرس ، وقامت دولة المماليك في مصر فانتزعت
 سوريا . فعزم الاتراك على تجريد هؤلاء الاخصام . فاستولى بيزيد بن
 محمد على ارمينيا متفذاً بذلك بعض مقاصده التي انبج لابنه سليم
 ان ينمها في وجه المماليك . فقصده استقدمهم الى حلب في السنة
 ١٥١٧ بحجة مساعدتهم له على الفرس ، ثم حوّل السلطنة فجأة عليهم ،
 فانزع منهم سوريا ومصر ونعقبهم فيها . ودخل الدم التركي في
 البلاد ، ولكنه فلما انتشر في القرى . وتكاد لا تروى افراد هذه
 الامة في غير القاهرة حيث يمارسون الصناعات ويحتلون المناصب
 الدينية والحربية ، وكانوا قبل اليوم ينتعون بشكل المراتب
 الحكومية . على ان الثورة الباطنة التي حصلت منذ ثلاثين سنة
 قد نزع منهم السلطة الفعلية ، وايقنت لهم على القلب .
 وقام بهذه الثورة شعب رابع بقي علينا ان نتحدث عنه . لقد
 نشأ هؤلاء القوم جميعهم عند اقدام جبال القوقاز . ويميزهم من
 سائر السكان شعورهم الاشقر ، وهو لون غريب عن مصر . وهم
 هم انفسهم الذين وجدهم الصليبيون في القرن الثالث عشر واسمهم
 المماليك . فبعد ان استضعفوا زهاء مئتي عام تحت سيطرة العثمانيين ،
 وجدوا وسيلة لاستعادة مكانتهم . ان تاريخ هؤلاء الجنود ، والشؤون
 التي هبأت دخولهم الى مصر للمرة الاولى ، وطريقة استقرارهم فيها ،
 ونوع حكومتهم تكون جميعها حوادث سياسية هي من الغرابة
 بحيث يجدر تخصيص بعض الصفحات لمعالجة تطوراتها .

الفصل السابع

موجز تاريخ الممالك

سادت اليونانيين في القسطنطينية حكومة غاشية متطرفة ، فهانوا ،
وأفلتت منهم الحصب ولاياتهم لتزول الى شعب جديد ، واستغفرت
العرب عصبيتهم الدينية وسكرتهم بياض الحياة التي لم يعودوها
من قبل ، فاستسجروا ، في سجنه غنيين عاماً ، الرقعة الشمالية
من إفريقيا حتى الجزر الخالدات ، وكان القسم الجنوبي من آسيا
حتى الهند وبادية الشرق . على ان هؤلاء القوم الذين اتقنوا مراسم
الصوم والصلاة لم يتعرفوا الى علم التشريع ومبادئ الحلفيات
الطبيعية التي هي اساس الممالك والجماعات . لقد عرف العرب ما
الغلبة ، ولم يعرفوا قط سياسة الملك . فلما عم بنيان دولتهم المسيح
ان قدامى وانهار ، وتعاقبت الفوضى والظلم على سلطنة الخلفاء
الواسعة فتفككت اوصالها ، وزال من اذهان الحكام الزمانيين
ما توهموه من قداسة رئيسهم الروحي فصبوا انفسهم اسبياداً
وانشأوا دولاً مستقلة . ولم تكن مصر آخر من افندى بهذا
المثل ، ولكن لم تقم فيها دولة نظامية الا في السنة ٩٦٩ (او
٩٧٤ حسب مريلو d'Herbelot) وهي دولة الخلفاء الفاطميين
الذين تارخوا خلفاء بغداد لقب الخلافة بقية . وكان هؤلاء عهدت
ضعاف السلطان بسبب تسلط الميليشيا التركمانية عليهم ، فعجزوا

عن كبح جماح منافسهم . وقبض خلفاء مصر ان يبقوا اسياداً
فأبى الببال على هذا القطر الحبيب الذي كان في وسعهم ان
يجعلوا منه دولة ذات حول وطول . ولكن تربيخ العرب يدل
على ان هذه الامة لم تتعرف يوماً بأصول الحكم . فان خلفاء
مصر - شأنهم بذلك شأن خلفاء بغداد - ركبوا مركب الطغيان
وسلكوا طريقاً واحدة الى مغير واحد . فقد تسخطوا في
المنازعات القومية ، وانتصروا مذاهب جديدة ، وانقلبوا الناس
ليستكروا من الشيعيين والانسار . وبلغ من الخسار ما
لله ان ادعى انه الاله المتجسد . واستحكمت فيه روح منظرة
قامر باحراق القاهرة ليروح عن نفسه . وبهذه آخرون مال الدولة
في ترف غريب ، ففكرهم الشعب المهان ، ورأى رجال حاشيتهم
من استعفافهم ما جرأهم على الطمع في خلعهم . وهذا ما حدث
للعائد لدين الله آخر هذه السلالة . فبعد ان اكتسح الصليبيون بلاده
وفرضوا عليه الجزية ، هنده أحد فواده الشجعان بانقراض سلطته
التي لم يحسن سياستها . فلما شعر بعجزه عن المقاومة وعرف انه
لا يستطيع الاعتماد على الامة التي نفرها ، لجأ الى الغرباء . وغشياً
دله العقل وعبرة الايمان على ان هؤلاء الغرباء الذين اتعنهم على
ذاته لا يلتفتون ان يصبحوا اسياده ، فقد انزل من غباوة اولي
الى غباوة ثانية ، فاستقدم التركمان الذين سبق واستعبدوا خلفاء
بغداد ، واستنجد نور الدين سيد حلب ، فنجده لقوره بجيش
وجهه على مصر ، وانقذه من جزيرة الفرنجة ومن مطامع
قائده . وكان من امر الخليفة عنده انه استبدل عدواً بآخر ، فلم
يبق له من السلطان الا ظله . وبقيت هذه حاله حتى تولى القيادة

صلاح الدين في السنة ١١٧١ وأمر بشنقه . وهكذا استكان عرب مصر
لغرباء قامت على الأمر فيهم سلالة جديدة في شخص صلاح الدين .
وفيما كانت تعاقب هذه الأحداث في مصر ، ويطرد
الصلبيون من سوريا بسبب بليلتهم وفوضاهم ، كانت التطورات
العربية في آسيا العليا تنذر بثورات جديدة ، وكان جيشكيز خان ،
وقد أصبح سيداً على معظم القبائل التركية ، يحجز الفرس اللاتقاء
بالدول المجاورة وحدث أن خلف أمانه يعمد التجار اللاتقاء
لهماء . فرحب على سلطان بلخ وسرق في الفرس حوالي السنة ١٢١٥ .
فشهدت هذه الاضطرابات من الكوارث الداميات ما لم يسجل مثله
تاريخ الفاتحين ، إذ انطلق المغول بالحديد والنار فاعملوا النهب
والذبح والحريق دون ما تمييز بين رجل ومراة ، وبين شيخ
ومطل ، وحولوا بلاد جيحون حتى نهر دجلة الى بقالع من رماد ،
وتجاوزوا بحر جرجان شمالاً فامتد الحراب حتى بلاد الروس
والقوبان . وهذه الخطة التي وقعت في السنة ١٢٢٧ افضت الى
دخول المماليك ارض مصر . ذلك أن النور ، وقد ملأوا التفتيل ،
استقدموا معهم جماعة من الارقاء فنياناً وفنيات ، حتى غصت بهم
معسكراتهم واسواق آسيا . وكان خلفاء صلاح الدين ، وهم
تركانيون ، ما زالوا على حدة بانحاء بحر جرجان ، فغضبوا فرحة
لانشاء جندي زهيدة التكليف ، متوافرة اسباب الشجاعة . فابتاع
احدهم حوالي السنة ١٢٣٠ اثني عشر الف شاباً من التركس
والمغوليين والاباخيين ، ودرهمهم على اساليب القتال حتى جعل
منهم في وقت وجيز فرقة من أجل جنود آسيا وابوهم ، ولكنهم
في الوقت نفسه من اكثرهم عنواً ، على ما خبره بنفسه بعد حين .

في السنة

فما عثت هذه القرعة الشبيهة بالحرس القبطي ان استطالت على سيدها ، وازدادت جرأة في عهد خلفه فخلعت . وفي السنة ١٢٥٠ ، على اثر نكبة القديس لوبس ، قتل جنودها آخر امير تركاني واستبدلوا منه احد رؤوسهم ، واطلقوا عليه لقب السلطان وعلى انفسهم اسم المماليك ومعناه الرقيق الحربي ^١ .

هذه هي فرقة الارقاء الطغاة التي ظلمت زمام الامر في مصر منذ عدة قرون . ليس للمماليك عقد اجتماعي يربط بينهم سوى المصلحة الراضية ، ولا حق دولي يجمعهم بالامانة غسيرة حق الفتح ، ولا قاعدة للحكم سوى العنف على يد زمرة من الجنود كثيري الجراح ، غلاظ الرقاب . ان السلطان الاول الذي انتخبوه قد شغل ما هم من نزعات الفتنة فألغاهم في فتح سوريا ، ونسى له ان تلك سبع عشرة سنة . ولكن ما من احد بعده بلغ هذا الاجل . فالجديد والشنق والسم والقتل كانت مصير سلسلة من الطغاة تعاقب منهم على الحكم سبعة واربعون في حقبة مائتين وسبع وخمسين سنة . واخيراً جاء السلطان سليم العثماني في السنة ١٥١٧ فوقع في اسره قام بك آخر حكامهم ، فأمر بشنقه ، وانقضت به سلالته . كان على السلطان سليم ، لو شاء تنفيذ مبادئ التورك السياسية ، ان يحو المماليك عن بكرة ابيهم ، ولكنه رأى بنظره القاب ان ينحرف هذه المرة عن القاعدة . وشعر انه اذا منح باشا مصر سلطة امثاله في الولايات الاخرى تعرض لثورة هذا الاخير عليه

١ ملوك اسم مفعول من ملك ، ومعناه المقتنى ملكاً ، اي الرقيق . على انه يجب التمييز بين هذا النوع من المماليك وبين خدمة المنازل ويسمون عبيداً (الحاشية المرفقة) .

بسبب بعده عن العاصمة ، وتلافى هذا المحذور بأن وزع السلطة
بين هيئات عديدة توازن بعضها بعضاً ، وبقيت الحالة هذه تحت
سيطرتهم . ورأى في جماعة المماليك التي نجت من الجزرة الأولى ما
يتفق مع مقصده . فأنشأ مجلس وصاية مؤلفاً من الباشا ومن رؤساء
الفرق الحربية السبع . وكانت مهمة الباشا أن يبلّغ المجلس إرادة
الباب العالي ويرسل الجزية ويسهر على أمن البلاد من أعداء الخارج
ويحول دون توسع الأحزاب في الداخل . وقد خول أعضاء المجلس
الحق في رد أوامر الباشا ، على أن يعلنوا الأسباب التي تحملهم على
رفضها ، بل وفي خلعها أيضاً ، وفي المصادقة على القرارات المدنية
كانت أو سياسية . أما المماليك فقد تقرر أن يختار من بينهم من
يحكم المقاطعات الأربع والعشرين أو بكواتيسها ، وانيطت بهم
مهمة دفع غزوات البدو والسير على جبهة الضرائب والمحافظة
على الأمن الداخلي ، ولكن سلطتهم كانت محض وهمية ، وما
كانوا إلا آلات تسيرونها إرادة المجلس . وحصل أحدهم المقيم في
القاهرة على لقب شيخ البلد ، أي أنه حاكم بالمعنى المدني دون أن
يشتمل بآية سلطة عسكرية .

وفرض السلطان ضرائب خصص قسماً منها لمربيات عشرين
الف راجل وركوبية من اثني عشر ألف فارس مقيمين في البلاد .
وخصص القسم الآخر لامداد مكة والمدينة بما يعوزهما من مؤن
البلاد ، والقسم الثالث لتغذية خزائن الاستانة والاتفاق على ترف
السراي . أما الشعب الذي كان عليه توفير هذه النفقات فلم يكن
ليُحسب له حساب ، على ما لاحظ سافاري بصواب ، وبقي خاضعاً
كالسابق لقسوة استبداد عسكري .

لقد جاءت طريقة الحكم هذه بحقيقة بمقاصد السلطان سليم بدليل
انها استمرت ما ينوف على قرنين ، ولكن ثبتت الباب العالي ما
عم ان تضائل منذ خمسين سنة ، فحدثت بعض التطورات التي ادت
الى تكاثر عدد المماليك ، واستعاذتهم الثروة والجاه ، واستطاعتهم على
العثمانيين حتى اصبحت الساطة في يد هؤلاء شيئاً لا يعنى به .
ولكي نحيط علماً بهذه الثروة يجب ان نلم بالاسباب التي ساعدت
على تزايد المماليك واستمرارهم في مصر .

ان بقاءهم في هذه البلاد قروناً عديدة يحيل على الظن انهم
توالدوا فيها عن طريق التناسل العادية . ولكن اذا كانت بدء
استيطانهم امراً عجباً فان استمرارهم في البلاد لا يقل عن ذلك
غرابة . فمتى دخل المماليك مصر من خمسة ورحس وخمسين سنة
لم تقم فيهم ذرية واحدة ثابتة ، حتى انك لا ترى عبلة في جيلها
الثاني ، فجميع اولادهم يملكون في العقد الاول او الثاني ، ويكاد
يكون العثمانيون في هذه الحالة ، لولا لجوؤهم الى الزواج من نساء
متوطنات ، وهو امر يأنف منه المماليك ^١ . كيف نفسر بان رجالاً
احياء البنية متزوجين من نساء سليات لا يستطيعون على خفاف
الثيل نجس دم تكون عند اقدام الفوقاس . ولندكر في هذا

١ نساء المماليك اعماء قد استقدم من جورجيا ومنغوليا وغيرهما . يتحدث الناس
كثيراً عن جاهلن ويجب تصديق ذلك بالامتناع على التواتر . على ان الاوروني الذي لا
يعرف غير تركيا لا يحق له ان يؤدي مثل هذه الشهادة . فان هؤلاء النساء غير مراثيات ،
بل لعين اكثر شعبياً من غيرهن . وقد يكون في سر هذا التعجب ما يورثهم بجاهلن . على
انه من لي ان استفهم زوجة احد تجارنا التي رباح لها دخول جميع الخارم لعمري منسوجات
« ليون » ، فاكنت لي انها رأت الف ومائتي امرأة من الطبقة المختارة تم نجد عنراً

الصدء ان اغراس اوروبا فتنع ابضاً من استبقاء نوعها في تلك الارض . قد لا يصدق الناس هذا العارض المزدوج ، ولكنه ثابت الحدوث ، ولا يبدو انه حديث العهد . فقد لاحظ الافدمون حوادث مماثلة : يقول ايبوفراتس ان الكثيين والمصريين متشابهو الهيئات ، وان هاتين الامتين لا تشبهان اية امة اخرى ، ثم يضيف قائلاً ان المناخ والفصول والعناصر والارض في بلديهما تسير على نطل واحد لا نجد في بلد آخر . أليس في هذا ما يثبت ما نحن في صدده من قنع الارض ؟ ولئن كانت بلاد كذلك تطبع ما هو في حوزتها بطابع خاص ، أملا نجد ما مبرراً في تميز ما هو غريب عنها ؟ ويبدو ان الوسيلة الوحيدة لتباين الحيوان والنبات هي تعويدها المناخ وتلقيحها باجناس بلدية . وقد سبق لي وفلت ان الممالك انفوا من هذه الطريقة . اذن ، فقد كان السبب في استمرارهم وتكاثرهم ما ادخلوا في انسابهم من الدم الجديد عن طريق الارقاء المستقدمين من بلاد نشأته . وتجارة الرقيق كانت رائجة على شواطئ قوبان وفاس منذ عهد المغول . وهذا كانت شأنها في افريقيا سواء أكان ذلك نتيجة للحروب القائمة بين شعوب هذه

بمعين بالجمال الصحيح . على ان الاتراك غير متميزين ، وحسبهم ان تكون المرأة بيضاء ليسير بها جيدة . فاذا كانت جيدة كانت مدهشة . وان شاذوا التميز عن مثال الجمال قالوا : « وجهها كالقمر واوارا كها كالوسائد » ، حتى يجوز القول انهم يميزونها بالقطار . وعندهم مثل غريب : خذ البيضاء من اجل عينيها . واذا تمت اللذة فتزوج المصرية . وقد دهم الاختيار على ان تماء الشمال اكثر برودة من تماء الجنوب .

كانت هذه البلاد منبع الرق في كل المهور ، فقد أرسلت الارقاء الى اليونان والرومان وآسيا القديمة . اولى من الغريب ان نقرأ في هيرودوتس ان جورجيسا استقبلت فيما مضى عبيد مصر وان ترى اليوم انها تباذلها جنساً جيداً غريباً ؟

النواحي أو لفقر السكان الذين يبيعون اولادهم للقيام بأود المعيشة .
وكان الارقاء من الجندين ينقلون الى الاسنانة اولاً ، ثم يوزعون
على سائر السلطنة حيث يشتريهم الاترياء . لا ريب ان الاتراك
نوانوا في منحريم هذه التجارة الخطيرة بعد استيلائهم على مصر .
واذ هم لم يفعلوا فقد كانوا عوناً للنوازل التي تعيل تأييم على
انتزاع ممتلكاتهم ، والتي كان من اسبابها العنف والتهاوت في
معالجة شؤون هذه الولاية . فان الباب العالي نوحى صكيح جهاج
الباشا فترك الديوانت يوسع اختصاصاته ، واصبح رؤساء
الانكشارية مرهوني الجانب ، والجنود انفسهم ، بعد ان اصبحوا
مواطنين عن طريق الزواج ، لم يبقوا صنائع الاسنانة . وطراً على
النظام تغيير ثقافت معه البلية . فقد كان للبيشات الحربية السبع
خزائن مال مشتركة . ولكن كانت الشركة غنية فما كان للافراد
ان ينصرفوا في شيء او يستطيعوا شيئاً . وقد ازعج هذا التدبير
الرؤساء ، فاستصدروا الامر بالغاءه واستأذنوا تلك العقارات والاراضي
والقرى . وكانت هذه الاراضي والقرى تابعة للحكام المماليك ، فعملوا
على مداراتهم مخافة ان يظهروها بالضرائب . وراجعت من ذلك
الوقت مكانة البكوات مكانة اهل الحرب فرجحتها . وكان هؤلاء يحتفرون
البكوات فيما قبل . وزاد هذه المكانة شأناً ما دخل على اصحابها
من الثروات الطائلة بفضل قيامهم على امر الادارة ، فاستعملوا
المال ليجمعوا حوفهم الاصدقاء والصنائع ، واستكثروا من الارقاء
فحردوهم ، ثم دفعوهم بما هم من نفوذ في مراتب الجندية والحكومة .
فحفظ حديثو النعمة هؤلاء الاجلال لاسبابهم بحسب العادات
الشرقية ، ونظروا لهم احزاباً تهالك في سبيل ارضائهم . وعلى

هذا النحو درج الكيفية ابراهيم احد فواد الانكشارية ، فتمكن
من الاستيلاء على الحكم حوالي السنة ١٧٤٦ . فقد كان يستكثر
من المعتقين ويقدمهم في المراتب حتى اصبح عدد البكوات من
بينه ثمانية من اصل اربعة وعشرين . واكسب هذا العدد ارجحية
رائدة ، لان الباشا كان يبغي بعض المراكز شافرة لينقاضي وظائفها .
وساعده سخاؤه على اجتذاب الضباط والجنود اليه ، وآزره
« رضوان » اكثر القادة نفوذاً ، فاصبح الباشا خيلاً عديم الشأن ،
ورضاءت ارادات السلطان امام ارادة ابراهيم . ولما وافاه الاجل
في السنة ١٧٥٧ اتقدم معتقوه على انفسهم ، ولكنهم تمزبوا على
ما سواهم واستمروا منحيكين . وخلف رضوان زميله ، ولكنه ما
لبث ان طرد وقتله بعض البكوات . وتعاقب بعده عدة حكام
في فترة قصيرة من الزمن .

وفي السنة ١٧٦٦ ظهر علي بك احد سيدي الاضطرابات الذي
استوقف اهتمام اوروبا سنوات عديدة . فاستطاع على خصومه ،
ولقب امير الحج وشيخ البلد ، وجمع السلطات جميعها في يده . ولما
كانت قصة المماليك مرتبطة بقضته ، فاستمر في سرد احدهما فيما
تبسط الاخرى .

الفصل السابع

موجز تاريخ علي بك

يعتبر مولد هذا الرجل غموض وريبة ، شأنه بذلك شأن معظم المماليك ، فهم وفد بأعهم ذروهم في سن الخدمة أو انقزمهم الاعداء ، لا يعون من أصلهم ومن وطنهم إلا قليلا من شيء

بعد كتابة هذا المقال نشر السيد ساماري مستندين جديدين عن مصر عالج في احدها حياة علي بك نفسه ، وحديث الي وأجد عند من الاية ، ما اصبح به روايتي او اثبت منها . وكما كانت شعبي عظيمة اذ لئن لي انه يكاد لا يكون بيتا فيه مشترك . وقد سألني هذا التبان خصوصا والي خالفت في الرأي بضد امور اخرى ، مما يدخل في روع القراء ان دأني معاينة هذا الرحالة ، ولكن فضلا عن الي لا اعرف السيد ساماري بالذات ، اود لو اذنت الي اتفه نفسي عن تلك الاعتبارات . واذن كيف حدث انه على كوننا زنا الا ما كن غسبا وشبهة الشواهد نفسها قد اختلفنا بالرواية هذا الاختلاف كله ؟ اعترف اني اجعل السبب ، وكل ما استطيع تأكيده اني ائت في القاهرة طوال سنة اشهر كنت استنهم خلافا بدنة وانباء غمارة المسيحيين الذين رأيت في اقامتهم الطويلة مضاعفة الي ما يتحلون به من فطنة ضيافة لصدق ما شهدوا به . ورأيت انهم متفرون في المسائل الرئيسية ، وخدمني الحظ ان زكى روايتهم قاسم من التنفيذية (السيد روزيني Roselli) الذي كان احد مستشاري علي بك المقربين والعامل الاول في علاقته بالروس ومشاريعه المتعلقة بتجارة الهند . والتقيت في سوريا شهر عيان للحوادث المشتركة بين الشيخ الظاهر وعلي بك مما عبا لي ان احكم في درجة اطلاع المؤلفين الذين عالجوا قضية مصر . واتساء اعلمني عند الدروز سعابة ثاية اشهر عرفت من مطران حلب الذي كان مطران عكا خصوصيات عديدة بضائع انتقادي في معنها ان ابرهم الصايغ وزير الظاهر كان يزل في شبانه وراة والي فلسطين عاشت المسيحيين والمسلمين الذين تولوا قيادة جيوش الظاهر

وكثيراً ما يكتفون ذلك . وفي رأي جدير بالثقة أنه متحدر من
عشيرة الإياطين الناطقين في القوقاس . وأرقاء هذه العشيرة مرغوب
فيهم^١ . وقد نقله النحاسون إلى القاهرة في جملة ما نقلوا ، فاستقره

وحاصروا ياقا مع علي بك وأزروه على عماد بك . فقد شاعت الامانة وسمت الشهود ،
ونقلت مذكرات طريفة من عامل البندية في ياقا الذي أخذ قطعه من الانطرابات
جميعها تلك هي المواد التي بنيت عليها روايتي . ولست أزمع اني لم ألتق فيها بعض المرقوق ،
وانمكن اني الخواص خالصة منها ؟ اما لدينا عن روايات مختلفة عن معركة « فونتوي »
Fontenoi ؟ فحسبنا اننا انما نحصل على النتائج الرئيسية ونلج بالاحتمالات الكبرى .
وقد شئ لي ان ألتق بنفسي في هذه المسألة بمعونة القوقاس على الحقيقة التاريخية
واقبائها بدقة .

ولست أزمع اني لم أسمع بعض الاحبار التي اوردتها السيد سافري ، ولا يجوز ان
ينسب اليه انه تخيلها تحيلاً . فروايتي نسخة طبق الاصل عن كتاب السكافري مثل بالطبع في
السنة ١٧٥٣ بعنوان « موجز عن ثورة علي بك » . وان يكن هذا المؤلف يقتصر على
معالجة الموضوع في اربعين صفحة ، مما يخص باقي الصفحات لدرس الاماكن والاخلاق
والجغرافيا . وكنت في القاهرة لما اذاعت دائرة الاوراق العمومية هذا الكتاب . واذكر
عندئذ ان تجارة عندها سمو باسم امرأة تدعى « ماري » زوجة علي بك ، واسم
بوقالي يدعى داود والد هذا القائد فظهر الواحد الى الآخر بدهشة ، وما لبثوا ان ضحكوا
من الاخبار المتشابهة في أوروبا . فعلمت يدعي السامو الاسكافري الذي كان في مصر سنة
١٧٧١ انه اعتد في روايته على كاتبة علي بك وجماعة من السكوات الذين راجعهم دون
« ان يعرف اللغة العربية » . فلا يصح ان يكون الى اطلاعه ناقص . وما يعزى ارياني في
مواهب ما يقول انه يبدأ موضوعه بنقطة لا تغتفر « هو يقول ان بلاد اباطنة هي امانيا
نفساً » في حين ان الاولى ملامعة في القوقاس والثانية مدينة في كبادوكسيا .

وخلاصة القول اني في باريس « مذكرات عن علي بك » دونها أحد الفضلاء الذي
جاء مصر : كلا جاءها السيد سافري وجعلها انا . وهي مذكرات تزيل ما بقي من شك
حول هذا الموضوع .

١ يؤثر الاتراك في الدرجة الاولى الارقاء الشر كس ثم الاباطيين ، فالقرويين ،
فالجيورجيين ، الروس والبولنديين ، فالنجر والالمان ، فالعبيد ، وفي آخر الدرجات

هناك اليهوديان اسحق ويوسف واهدباه الى ابراهيم الكاخية .
 ويقدر عمره وقتئذ بالتقريب عشرة سنة او اربع عشرة . بيد ان
 الشرقيين ، مسلمين ونصارى ، لا سجلات للمواليد عندهم ، فلا تعرف
 اعمارهم بضبط . وقام علي عند سيده الجديد بهام المالك وهي
 المهام التي يضطلع بها غلمان الامراء . وذرت هناك على الفروسية
 والرماية وتسديد الجريد وضرب السيف . ولحق بعض مبادي
 الكتابة والقراءة . وظهر في ممارسته هذه الفنون من الترق ما
 جعل القوم يلقبونه « الجن علي » ، وهي لفظة تركية معناها
 الجنون . على ان مشاغل الطموح ما عشت ان ليست طباعه وكبحت
 من جهاده ، ولما راوحت سنة بين الثامنة عشرة والعشرين ، اذن له
 سيده بارسال جنينه . ومعنى ذلك انه اعتقه ، لان الوجه الامرد
 عند الاتراك خاص بالعييد والنساء . وهم من اجل ذلك يتأفكون
 من منظر الاوروبيين لاول دعة . ومنذ اعتقه ابراهيم وعبه ، زوجة
 وريعا ، واستند اليه منصب كاشف ، اي حاكم مقاطعة . ثم احلته في
 مصاف البكوات الاربعة والعشرين . وما كانت هذه الرتب مضافة
 الى المكانة والثروة اللتين احرزهما الا لتوقف في الطموح . فلما
 مات سيده في السنة ١٧٥٧ وجد المجال فسيحا امام مراميه ،
 فاشترك في كل الساس التي كانت تهدف الى تولية الحكم
 او عزهم . وعليه تقع تبعة اغتيال الكاخية رضوان . وتعاقبت
 الحكم بعد رضوان حتى السنة ١٧٦٢ ، وكانت الحاكم عندئذ

الاسبان والمناطيين وسائر الفرنكيين وهم يحترقونهم بسبب سكرهم وتهتكهم وتتردم
 وقلة عملهم .

عبد الرحمن ، وهو رجل ضعيف السلطة بذاته ، الا ان بعض الاحزاب
 المتآلفة كانت تسانده . وكان علي عهده شيخ البلد ، فرأى في
 وجود عبد الرحمن على رأس القافلة المتجهة الى مكة فرصة للايقاع
 به ، ففناه . ولكنه ما لبث ان تنفي بدوره الى غزة . سوى ان غزة
 الواقعة في ولاية الباشا التركي لم تكن في نظره مكاناً آمناً لطيب
 فيه الإقامة . فذهب في اتجاهها ايضاً ، ثم تحول في اليوم الثالث
 الى الصعيد حيث لحق به انصاره . واقام في جرجا زهاء سبعتين
 قضاها في تهينة وانضاج ما يعتزمه من الاستيلاء على السلطة .
 وكان له في القاهرة اصدقاء يندم بالمال الوفير ، فاستدعوه اليها في
 السنة ١٧٦٦ . فظهر فيها على حين غرة ، وقتل في ليلة واحدة
 اربعة بكوات ، ونفى اربعة آخرين ، حتى اصبح رئيساً على الغالبية .
 واذا استجعت السلطة كلها في يده ، عزم على ان يستخدمها في
 سبيل تعظيم شأنه . ولم تقف مطامعه عند لقب القائد ، بل رأى في
 سيادة الاسنانة ما يجرح كبرياءه ، ونهدت نعه الى لقب سلطان
 مصر . وانحصرت جميع مساعيه في هذا الاتجاه ، فطرد الباشا الذي
 كان قد اصبغ مجرد اداة ثقيلة ، ورفض الجزية المقتسادة . وفي
 السنة ١٧٦٨ امر بك العملة ووسمها بطغرائه^١ . فوجم الباب
 العالي لهذا الافئات ، ولكن قبعه كان يقتضي حريصاً صريحة لم
 تكن الاحوال مؤاتية لها ، لان اسباب الاسنانة كانت تشغلهم مسائل
 بولونيا ومطامع الروس ، فصرفوا همهم كله الى الشمال ، وحاولوا

١ بعد هلاك علي بك سقطت قيمة فروشه عشرين باكة بحجة انها غير صافية المدن ،
 فأرسل أحد التجار عشرة آلاف منها الى مرسيها حيث صهرت وافاد منها ربحاً عظيماً .

تجاه علي طريقتهم المعنادة في مثل هذه الأحوال ، فأوفدوا نحوه
مبعوثيهم المعروفين باسم القبرجيين يحملون مرسة المشتقة . ولكنه
كان يستقبلهم بالسلم أو الخنجر ، فيحيط مساعدهم . فرأى علي ان
الفرصة مناسبة للايغال في مقاصده الى ابعد حدود النجاش . وكان
يحمل الصعيد وقتئذ شيوخ من العربان على شىء من التردد . وكان
احدهم عمام يتنعم بنفوذ يدعو الى القلق . فشاء علي ان يتخلص
منه ، واحتج بكون هذا الشيخ يمسك على ابراهيم الكاخية مالا قد
اثمن عليه ، وبانه يؤاوي العصاة اللاتئين به . فوجه عليه
كتيبة من المماليك بقيادة محمد بك ابادت عماماً وقواته في يوم
واحد . وكان ذلك في السنة ١٧٦٩ .

وشهد هذا العام حملة اخرى تزامت نتائجها الى القارة الاوروبية
نفسها . فقد ساج علي السفن في السويس واطلق عليها المماليك
حرب جده مرفأ مكة ، وامر القائد حسن بك ان يخلها ، فيها
انطلقت من البر كوكبة من الفرسان بقيادة محمد بك فاستولت
على مكة نفسها ، واعملت النهب فيها . وكان غرضه ان يجعل من
جدة مستودعاً لتجارة الهند . وهذه الحطة التي اوعز بها اليه تاجر
شاب من البندقية حظي بنقته ، كان يقصد بها اعمال خط رأس
اترجاه الصالح والاستعاذة عنه بالطريق القديمة عبر البحرين المتوسط
والاحمر . بيد ان عاقبة الحوادث دلت على انه استعجل الامر ،
وان الشرائع يجب ان تسبق الذهاب الى البلاد التي يرجى لها
الازدهار .

وحسب علي ، بعد انتصاره على امير ضبل الشان في الصعيد
وفتحه اكوان مكة ، ان من حقه السيطرة على العالم بأسره .

واروهم رجال يظاننه انه كسلطان الاستانة شوكة ومطوعة ، فأمن
 بما قالوا . ولو اعمل الفكر قليلا لتحقق ان مصر بالنسبة الى
 سائر السلطنة دويلة صغيرة ، وان ثمانية الآف فارس تحت امرته
 لا تحسب شيئا يذكر فجاهد مئة الف انكشاري مرتين بمساواة
 السلطان . ولكن المماليك يجهلون تقويم البلدان . وكان علي ، وهو
 يرى مصر عن كثب ، بحسب انها اوسع من تركيا التي ينظر
 اليها من بعيد . فعزم على مباشرة فتوحاته . ومن الطبيعي ان
 تكون سوريا ، وهي على بابها ، اولى مبتغياته . وكانت حوادث
 تلك الايام نوائم مقاصده . فالحرب الدائرة مع روسيا من السنة
 ١٧٦٩ نشغل القوات التركية جميعها في الشمال ، والشيخ ^{المرمر}
 الظاهر التمرد على السلطان حليف امين مقدر ، واخفلاسات باشا
 دمشق تهيء الافكار للشوكة . اذن ، ما اجملها فرصة لاحتلال ولايته
 والخروج من هذه المقامرة بلقب منقذ الشعوب ! ادرك علي هذا
 كله ، فلم يتأخر عن القيام بحركاته الا بتقدير ما تقتضيه العدة للامر . فلما
 استكمل الاعبة في شهر كانون الاول من السنة ١٧٧٠ جرّد كوكبة
 من المماليك تبلغ خمسمائة فارس (والمماليك لا يسرون رجالة قط) ،
 وسبّروهم على غرة ليضن النفاذ الى فلسطين . وما انت بلغ امر
 الاحتلال مسامع عثمان باشا حاكم دمشق ، حتى هرع الى مجابهته .
 فارتعدت فرائض المماليك من سرعته وعدد الجنود . فامسكوا انة
 الخيل تأهباً للهرب . بيد ان عمر الظاهر الرجل الذي لم نعرف له
 سوريا مثيلاً بالنشاط ، اقبل من عكا وانتقذهم من الورطة . وكانت
 عثمان يعسكر بالقرب من باقا ، فانهمز دون ما نزال . فاجل الظاهر
 باقا والرملة وفلسطين برمتها ، وفجعت الطريق امام الجيش الكبير

✓
المنتظر .

وصل هذا الجيش في نهاية شباط من السنة ١٧٧١ ، وقد ذكرت
صحف تلك الأيام ان عدده ستون الف مقاتل ، فحسب الناس في
أوروبا انه ياتل جيوش روسيا أو المانيا ، وفاتهم ان الأتراك ،
واخصهم أتراك آسيا ، يختلفون عنهم في العادات والأخلاق . فان ستين
الف جندي عندهم ابعد من ان يولوا ستين الف من جنودنا .
وفي الجيش الذي نحن في صدده دليل على ذلك . فانه يتألف من
أربعين الف رجل موزعين على الوجوه الآتي : خمسة الآف
فارس من الممالك ، والف وخمسة مئة مغربي رجالة . ويتبع كل
ملك خادمان راجلان مسلحان بالعمى ، ومجموعهم عشرة الاف . وثمة
ألفا خادم وسراج وراء البكوات ، فضلا عن الباعة المرتوفة والتابع .
هذا هو الجيش الذي نحن في صدده كما وصفه لي اناس شاهدوه
ونشعوه . وكان يقوم على قيادته محمد بك أحد رجال بطانة علي
الملقب بابي الذهب نظراً الى القرب البادي في اجهزة جواده وفرش
خيشته . اما الترتيب والنظام فلا أثر لها قط في ذلك الجيش ، لان
جيوش الممالك والأتراك ان هي إلا خليط غامض من فرسان لا
مماثلة في أزيائهم ، وجيادهم متباينة القد ، مختلفه اللون . زحف هذا
الجسد صوب عكا تاركاً وراءه آثاراً من فوضاه وتعدياته . فانصل
بجماعة الشيخ الضاهر وهم الف وخمسة مئة فارس جندي بأمره والده
علي ، والف ومائتا فارس من المناولة بقيادة الشيخ ناصيف ، وما

الصفديون نسبة الى صفد مركز من الطاهر الاسلي ، وهي قرية في الجليل .

يقرب من ألف راجل من المغاربة . فلما تم هذا الاتصال وديرت
 الحطة ، زحف الجيش على دمشق في خلال نيسان . وكان عثمان قد
 وجد منسجماً من الوقت لأعداد عدته ، فجمع جيشاً يضاهي جيش
 عدوه عدداً وبلياً . وانضم اليه باشاوات صيدا وطرابلس وحب ،
 فتربصوا جميعاً تحت أسوار دمشق . ولا تتصور هنا حركات
 متوافقة كالتي تجعل الحرب عندنا منذ مئتي سنة علم حساب وتبصر .
 فلا انمام للاسيويين بتلك المبادئ . وجيوشهم هوائية ^١ ، وزحفهم
 هيب ، وحملاتهم غزوات ، ومعاركهم اعتراك ، يسعى اقدمهم او
 اجراهم الى الآخر فيتهزم غالباً دون نزال . فاذا ثبت ، نشب القتال
 واختلط المتقاتلون وتلاحموا ، وتفجرت البواريد ، وحطمت الرماح ،
 وتكاد تعوزهم المدافع وقتلوا استندموها . وكثيراً ما يسود
 الرعب ولا سبب له ، فيهرب فريق ويترجم الآخر منادياً بالنصر .
 ويكابد المغلوب شريعة الغالب ، وكثيراً ما تنتهي الحلة بانتهاة المعركة .
 هذا جزء مما حدث في سوريا سنة ١٧٧١ زحف جيش علي
 وعمر على الشام ، وانتظروا الباشاوات ، فتقدم . وكان الامر الحاسم
 في اليوم السادس من حزيران . فقد حال المماليك والصفديون
 على الانوار وامعنوا في التقبل حتى ذعر هؤلاء وادبروا . ولم
 يكن الباشاوات آخر المهزمين . فسيطر الحلفاء على المدينة الحالية من
 الجنود والاسوار واستولوا عليها . واستقلت القلعة بالمقاومة ،
 وليس في اسوارها مدفع ولا مدفعي ، ولكن هناك خندقاً موحلاً ،
 وما وراء الجدران بعض الرماة . وكان ذلك كافياً لكبح جماح

١ الخيالة قد اختلط بعضها ببعض Cohue .

هذا الجيش من الفرسان . على أن المحاصرين ، وقد غلبوا على
امرهم ، عاهدوا العدو في اليوم الثالث على التسليم ، ولكن ما
طلع النهار حتى حدث انقلاب هو الغرب ما تناقلته المسامع .
ففي الوقت الذي كان ينتظر القوم اشارة التسليم ، اذا بمحمد يصيح
بجماعته الادبار ، وينحول جميع فرسانه صوب مصر . وعثا تسارع
على الظاهر والحيث لم يستفهام سبب هذا المال المفاجيء ، فلم يحظوا
من هذا المملوك الا بتهديد المتجبر . وارتحل القوم في بلبلة . وما
كان ارتحالهم انكفاء بل هزيمة ، كان العدو يعمل السيوف في
كشوحهم . وامتلأت الطريق من دمشق الى القاهرة بالمشاة والفرسان
المشتتين ، فضلاً عن المهام والعدد المهيلة . وقد جعلوا مرد هذه
الحادثة الغريبة وقتلوا الى ما شاع من موت علي بك . على ان
عقدة الغز الحقيقية مؤامرة سرية حصلت في خيمة محمد ليلة ، اذا
ان عثمان لما استشعر عجز قوائمه لجأ الى الاغراء . فوافد الى
القائد المصري احد رجاله اللعين بحجة مفاوضته بالمصالحة ، فعى
بدن الشقاق والعصبان ، وادخل في روع محمد ان الدور الذي
يشته به عرض شرفه وحياته ، وانه يخطئ . اذا اعتقد ان السلطان
سوف لن يقتص من علي بك ، وان انتهاكه لجرمة مدينة مقدسة
كدمشق احد البابين الى الكعبة تدنيس طاء . وانه بدعش من
كونه هو محمد يؤثر على حظوة السلطان ورضى احد عبيده ويجعل
بينه وبين الذات الشاعانية سيداً آخر ، وانه من المعروف ان
هذا السيد يعرضه كل يوم لاحطار جديدة ويضحي به في سبيل
مطامعه الشخصية وحسد كاخوته رزق القبطي . فهذه الاسباب ، واحصاها
الاخيران المتعلقان بمسائل معروفة ، قد أثرت ابعده التأثير في محمد

وأتوا به البكوات ، فتفارضوا ليعال فيما بينهم ، وافسحوا على السيف
والمصحف انهم فالفون الى القاهرة في الحال . وكانت ترحلهم
المفاجىء ، نتيجة هذه الخطة . فقد انصرفوا عن الفتح وساروا سيرا
حشياً ، حتى ان خبر عودتهم لم يسبقهم الى القاهرة الا بست ساعات
فقط . فارتفع علي وحدته النفس في معاقبة فائده فوراً . ولكن
محمداً كان كثيراً برفاقه ، فلم يمكنه سبيل لاية محاولة ضده .
وكان لا يد من المداخلة ، فلزمها علي بسهولة لانه مدين بحظه
ها اكثر منه لشجاعته .

لقد حرم علي فجأة من ثمرات حرب كثيرة التكاليف ، ولكنه
لم يرجع عن مقاصده ، بل استمر على ارسال النجذات الى حليفه
عمر الظاهر ، وحشد جيشاً آخر للسنة ١٧٧٢ ، ولكن الحظ سئم
من مساعدة علي فتحول عنه . فكانت نصيبه الاولى في خسارة
سفينه التي استولى عليها القرصان الروس مقابل دمياط ، فيما كانت
تتغلل الارض لعمر الظاهر . ثم جاءت حادثة حرب محمود بك ضعفاً
على ابائه .

كان من الصعب على علي ان ينسى حادثة دمشق ،
ولكن بقية الحب التي يضرها المرء نحو مسن احسن اليهم كانت
تحوّل دون انزاله الضربة القاضية . بيد انه عزم عليها بعد
حديث مع الناجر البندقي الذي كان يحظى بثقته .
وقد شافني الناجر نفسه بهذا الحديث وهو :

« قال علي بك : هل لسلطين الفرنجة اولاد يظاهون بالثروة
ابني محمد ؟ فأجاب الناجر : لا ، يا مولاي ، وهم يخافون ذلك مخافة
ان يعظم شأن الاولاد فتأخذهم العجلة ليوتوا آباءهم . »

ونفذت هذه الكلمة الى قلب علي كالمهم . فأصبح يرى في محمد
خصماً خطراً ، فقسم على اهلاكه . ولكي يتم له النجاح دون مغامرة ،
انفذ الامر اولاً الى القائمين على حراسة ابواب القاهرة بأن يحولوا
دون خروج اي كان من المالك عند العصر او في الليل . ثم
ابلع محمود انه منفي الحال الى الصعيد . وكان يقصد من هذه
المنافضة ان يوقف محمود عند الابواب ، وان يستولي الحراس عليه
من ايسر سبيل . على ان الاقدار واربت هذه التدابير الضعيفة
المبهمة . وشاء الخط ان يؤدي سوء التفاهم الى حيلان محمود مكلفاً
مهمة خاصة من علي . فتروكه وشأنه يمر مع اتباعه . وهنا ضاع
الامل بالنجاح . وبلغ امر الغلظة علماً ، فأمر بتعقبه . على ان محمداً
ابدى من رباطة الجأش ما جعل القوم ينهيون مهاجمته . فبسم
الصعيد بتأكله الغيظ وتحدوه رغبة الانتقام ، ولما كان خطراً آخر
كان يترقب به ، فان ايوب بك ، احد قادة علي ، تظاهر بشاطرة
المنفي احقاده ، فاستقبله بفرح وابتهاج وافهم على السيف والفران
بانه مجازبه على علي . ولم تقصر بضعة ايام حتى انجلت الوفائع عن
رسائل من ايوب الى علي يعده فيها برأس عدوه قريباً . وتكشفت
الدسيسة لمحمد ، فألقى القبض على الخائن وقطع معصاه ولسانه ، ثم
أرسل الى القاهرة لينال ثواب سيده .

بعد ان المالك ، وفد ملوا تشامخ علي ، تحولوا جماعات الى
حصه . وكانت اربعون يوماً كافية لمحمد حتى يستجمع له قوة
تمكن معها ان يجدر من الصعيد مشرع السلاح . فقابله علي بقوة
من انصاره ، ولكن كثيرين منهم انضموا الى العدو . واخيراً ،
في خلال شهر نيسان من السنة ١٧٧٢ ، وقعت الواقعة ، في سهل

المضارب عند ابواب القاهرة ، ودأبت الدائرة على علي ، فدخل محمد
 المدينة بالوهير من رجاله وعنده . ولم ينسَ علي بك الا فرصة
 الحرب مع ثمانية ملوك تبعوه . ولاول مرة في حياته قصد الى
 غزة . وحاول ان يذهب لغوره الى عكا مقر حليفه عمر الظاهر .
 ولكن اهل نابلس وبافا سدوا المسالك دونه . فاضطر عمر الظاهر ،
 ان يأتي بنفسه ليزيل من امامه العقبات ، واستقبل هذا العربي
 بسلامة الطوبى والرحابة اللتين تميزت بها امنه خلال الايام ،
 وذهب به الى عكا . وكان جنود عثمان والدروز يحاصرون مدينة
 صيدا ، فاستجده عليهم . فانطلق يصحبه علي . وكانت قوتاهما
 مجتمعين ، فبلغان سبعة آلاف فارس . وما اقتربوا من المدينة حتى
 رفع الاذراك الحصار عنها ، وتراجعوا صوب شمالها مسافة فرسخ
 حتى عبر الحولة . وهناك في شهر تموز سنة ١٧٧٢ نشبت معركة
 هي اخخم معارك تلك الحرب واكثرها انتظاماً . وكان الجيش
 التركي ثلاثة اضعاف جيش الخليجين ، ولصقته مني بهزيمة نكراء .
 فهرب قادته الياسارات السبعة وبقيت صيدا في يد الظاهر وحاكمها
 الدنكرلي . وفي عودة علي بك وعمر الظاهر الى عكا انطلقا الى
 بافا لينزلا القصاص بسكانها المتمردين الذين حاولوا الاحتفاظ بمسودع
 ذخيرة وامتنعوا كانت قد افرغتها مراكب علي بك قبل ان يطرد
 من القاهرة . وكان يحتل المدينة شيخ من نابلس ، فأغلق ابوابها
 واكرهها على محاصرتها . وبدأت هذه الحملة في شهر تموز ، واستمرت
 ثمانية اشهر على كونه بافا لا يعصمها الا جدار بسناني لا خنادق
 حوله . ذلك بأن السوريين والمصريين يعوزهم المرات في حرب
 الحصار شأنهم في حرب البر . واخيراً استسلم المحاصرون في شهر

شباط من سنة ١٧٧٣ . واستعاد علي حريته فاصبح شغله الشاغل
 ان يرجع الى مصر . ووعده عمر الظاهر بالنجدة ، في حين ان
 الروس وعدوا بمساندته ، وكان قد حاللهم بعد قضية القرصنة التي
 سبق ذكرها . على ان استجاع تلك الوسائل التي يحتاج الى
 وقت ، وعلى تأخذ الصبر ، وما كانت وعود رزق كآخيه ورجام
 الغيوب عنده الا لتزیده طمأناً . فما برح هذا القبطي يؤكد له
 ان ساعة عودته قد آذنت ، وانها ، على ما تدل الكواكب ،
 ستتم في احسن الاحوال واكثرها موافقة ، وان ثمة دلائل على ان
 محمداً صائر الى علاك اكيد . وكان علي ، شأن سائر الاثراك ،
 يعتقد بالتنجيم ويتق برزق نقة يبررها ان تنبؤاته كثيراً ما كانت
 تصدق ونصح . فبم الانظار اذن ؟ وجاءته عن القاهرة انباء
 عجلت في نقاد صبره . ففي اوائل شهر نيسان وردت عليه
 رسائل من اصدقائه يذكرون فيها انهم سموا عبده العاق ، وانهم
 ينتظرون رجوعه للاقتصاص من محمد . فقرر المسير للحال . ولم
 يبق في وسعه ان ينتظر قدوم الروس ، فانطلق مع المماليك والف
 وحماته رجل من الصفديين بقيادة عثمان بن عمر الظاهر . بيد انه
 كان يحفل ان رسائل القاهرة ان هي الا مكيدة من محمد نفسه
 استكتبها مرسلها غتوة ليلخدع علياً ويوقعه في الشرك
 المنصوب له . وفي الواقع ما كاد علي يتورط في الصحراء بين
 غزة ومصر حتى التقى فرقة مختارة من المماليك يبلغ عدد رجالها
 الف مقاتل يتولى قيادتهم مراد بك ، وهو فني من المماليك شغف
 بامرأة علي بك ، فوعده بها محمد اذا سلمه رأس زوجها . وما لاح
 لمراد غبار الاعداء عن بعد حتى انقض عليهم وبغثوهم . واستتم

الخط له فالتقى علباً في المعينة وجهاً لوجه ، فهاجمه وساف بجيشه
فجرحه وقبض عليه ثم اسنقه الى محمد . وكان هذا الاخير على
مسافة فرسخين وراء الجيش ، فاستقبل سيده القديم وبائع في نوقيره
والحذب عليه بمبالغة ثم عند الاتراك على الغدر ، وخصه بحربة فاخترة
الرياش ، وأرضى بالعناية الزامة به ، وكرر انه الف مرة عبيده
الذي يلثم موطى قدميه . على ان هذه المأساة انتهت في اليوم
الثالث موت علي ، وعزاه البعض الى جراحه ، فيها عزاه البعض
الآخر الى السم . والاحتمالان متعادلان بحيث يتعذر التوجيه .

هكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي استوقف اهتمام أوروبا
حقبة من الزمن ، وتوقع بعض الناس من ورائه انقلاباً خطيراً .
لا ريب انه كان رجلاً خارقاً ، ولكن من المبالغة ان نحمله في
مصاف الرجال العظام . ويروي اليهود النقا انه كان ينطوي على
كثير من المزايا القطرية ، إلا ان انفجاره الى الثقافة حال دون
نائلها البناء الذي يجعل منها فضائل كبرى . لتجاوز عن اعتقاده
بالنجم الذي كان يسير اعماله اكثر مما كانت يسيرها البصر في
الاسباب والاحوال ، ولتجاوز عن خيالاته وحسنه بالعهود والايقاع
بالحسنين اليه ، تلك الوسائل التي تدفع بها لتولي السلطة واستبقائها
في يديه . لا ريب ان الخلفيات عند جماعة امرهم فوضى هي غيرها
عند قوم يسودهم السلام . على أننا اذا حكمنا على اهل المطامع
بقتضى المبادئ التي يقولون بها ، نرى ان علي بك وضع خطة
لتوسع فلم يتوسم خطوطها ، وعمل على هلاك نفسه . ومن الحق
خاصة ان تأخذ عليه ثلاثة اخطاء :

١ - نزعه على غير نبصر الى الفتوحات التي تقدمت معها

مداخله وقوائمه وحرفته عن ادارة بلاده الداخلية .
 ٢ - ركونه الى الراحة قبل الاوان وتحويل العمل على معاونيه
 بما حظ من قدره عند المالك ، وجراً الناس على التوراة .
 ٣ - واخيراً ، اغداقه الثروات الفائقة على رأس احد خاصته
 مما اكسب هذا الاخير مكانة افراط فيها ونجاوز . ولو افترضنا
 ان محمداً من اهل الفضيلة ، اما كان يحذر بعلي ان يحذر غواية
 المداخين الذين يلتفون في كل بلاد الناس حول الجاه والنعمة ؟
 على ان فئة مزينة جدوة بالاعجاب تميز علي بك من سائر الطغاة
 الذين تعاقبوا على الحكم في مصر . لئن تكن عيوب التربية الرديئة
 قد حالت دون معرفته المجد الحقيقي ، فمن الثابت انه كان طامحاً
 اليه ، وما كان هذا الطموح يوماً مراد النفوس الوضيعة . ولم
 يكن بعورته الا مقربون يعرفون السبيل الى ذلك المجد ، وفلا تل
 هم القادة الذين يستحقون هذا الاطراء .

ولا يعني السكوت عن ملاحظة سمعتها في القاهرة . ان النجار
 الاوروبيين الذين شهدوا علياً حاكماً ومخلوعاً يطرون ما انصف
 به من حلم ونشيع للعدل وعطف على الفرنجة ، ويدعشون لعدم
 تأسف الشعب عليه ، فينعتون هذا الشعب بالقلب او نكران الجبل .
 على ان هذا الامر لا يبدو غريباً في نظري . فان احكام الشعب
 في مصر وغيرها ثلها عليه احوال معاشه . فبقدر ما يكون
 الحكم قد عتروها له او يسروها ، يبادلهم مقناً وذنماً او ثناء
 ورضى . وما كانت هذه الطريقة يوماً حياء او جائرة ، فعبثاً
 يقتنعونه ان شرف السلطنة او مجد الامة او تشجيع التجارة والفنون
 الجميلة تقتضي هذا العمل او ذاك ، فحاجته الى المعاش اخص حاجاته

وأولاهما . ومتى أغوز الخبز الجماعات فمن أقل حقوقها ان تضمن
 يعرفان الجبل والاعجاب . ماذا يعني شعب مصر ان يفتح عسلي
 الصعيد او مكة او سوريا اذا لم تكن هذه الفجوات عاملة على
 تخمين حاله ؟ وقد حدث في الواقع ما افنى بالبلاد الى أسوأ مآل .
 فان نفقات الحروب أدت الى تقاسم الضرائب ، فبلغت تكاليف
 حملة مصكة وحدها سنة وعشرين مليوناً بعملة فرنسا . وخرجت
 المؤن من البلاد وراء الجيوش ، ولجأ بعض التجار المقربين الى
 الاحتكار ، فحدثت مجاعة عمت البلاد طوال سنتي ١٧٧٠ و ١٧٧١ .
 قبل ان يخطئ سكان القاهرة وفلاحو المزارع الجائعون بتدميرهم مسن
 علي ؟ وهل اخطأوا بتقبيح تجارة الفساد التي انحصرت منافعها في
 ايده معدودات ؟ واذا كان علي قد انفق خمسة وعشرين ألف ليرة
 ثناً لقيضة خنجر ، أما كان من حق الشعب ان يتكره هذا البذخ
 وينفر من صاحبه ؟

وهذا السباح في العطاء الذي كان يحسبه رجال خاصته فضيلة ،
 أما كان الشعب مصيباً ، وقد حصل على حسابه ، ان يعده نقية
 وعبياً ؟ اي فضل لهذا الرجل في بذل ذهب لا يكلفه شيئاً ؟ أكان
 من العدل ان يرضي عواطفه الخاصة ويهدم التزاماته على نفقة
 الجمهور كما حدث له ان فعل مع قيم قصره ^١ لا لا نكران ان

^١ كان علي يك في طريقه الى المشفى (وقد نفى ثلاث مرات) وضرب خيامة على
 مغربة من القاهرة حيث منع مئة أربع وعشرين ساعة لا يلبث ديوله . وجاءه المدعو حسن
 احد الانكشارية وفيه في ذمته خيالة دينار . وحسب علي انه انى يطالب يدينه ، فشرع
 يعتذره له . علي ان حساً هذا اخراج من جيبه خيالة دينار اخرى وقال له : انت الان
 في محنة ، فخذ هذه أيضاً ، فدخل علي من هذا السحاب واقام برأس التي انسه اذا قدر له

معظم اعمال علي بك لا تستند الى مبادئ العدل والانسانية بقدر
ما هي ترجع الى عوامل طبعه وزعمه ، فلم تكن مصر في نظره
إلا ملكاً ، والشعب إلا قطيعاً يجوز له أن يتصرف به على هواه .
أنعجب بعد هذا ان الناس الذين عاملهم معاملة السيد المتصانف
ينظرون اليه نظرة الاجراء المتساين ؟

الرجوع سيجعل لهذا الرجل ثروة لا مثيل لها ، وثبت له المودة ، فحين هذا الرجل متعبداً
طاماً للأرزاق ، وعيناً حذرة يلمر اخلاصاته القاضحة ، لم يفتس منه قط .

الفصل التاسع

موجز الحوادث منذ موت علي بك حتى سنة ١٧٨٤

لم تقبل حال المصريين بعد موت علي . فان خلفائه لم يحاولوا
الانقياد حتى بما هو جدير بالثناء من سلوكه . أما محمد بك الذي
خلفه في شهر نيسان من السنة ١٧٧٣ ، فلم يظهر منه خلال سنتي
حكمه الا فرق الخس ولأم الطائن .

وخشي ان يرمى بالجور ونكران الجبل فظاهر بانه المنتقم
لحقوق السلطان ورسول مشيخته ، فارسل الجزية الى الاسكندرية بعد
ان انقضت عنها ست سنوات ، واقسم بين الطاعة بلا قيد ولا
شرط ، وجعله خضوعه عند موت علي بك ، وتوسل بحجة اخلاصه
للسلطان فاستأذنه في محاربة العربي عمر الظاهر . وهو طلب لو
اتبحر للباب العالي ان يلتمسه الناس الفعل ، فما بالك به وهو يمنحه
تكريماً ؟ اجل لقد اجاب بهذا الى رغبته واسيع عليه لقب باشا
القاهرة . فاصبحت الحلة شغل الشاغل . وقد يتساءل المرء اي فائدة
سياسية يفيدها حاكم على مصر من سحق العربي عمر الظاهر الناظر
في سوريا ؟ على ان السياسة في هذه الحالة ، شأنها في سائر الاحوال ،
ابعد من ان يسترشد بها اولئك الناس . فالعوامل هنا محض
شخصية ومنها حقد عمده ، اذ لم يكن باستطاعته ان ينسى الرسالة
الاليفة التي كان الظاهر قد وجهها اليه في اثن ثورة دمشق ، ولا

المساعي التي قام بها ضده لمصاحبة علي بك . وتحالفت البغضاء
 والجشع . فقد كان من الآثار عن ابراهيم الصباح وزير عمر الزاهر
 انه جمع ثروات طائلة . فكانت مصاحبة محمد هلالك عمر الزاهر
 مزدوجة : الثأر والاثراء . ولذلك لم يتردد في اقتحام غمرات
 الحرب ، فاستعد لها بنشاط تسعيره البغضاء . ونعزز بدفعية عظيمة ،
 واستقدم لها مدفعين اجانب ، وجعل قباذنها بأمرة الانكليزي
 روبنسن ، واستنجر من السويس مدفعا طوله ثلاث عشرة قدما .
 واخيرا ظهر في فلسطين على رأس جيش يضاوي الجيش الذي كان
 قد جرده على دمشق . وكان ذلك في شهر شباط من السنة ١٢٧٦ .
 وما اقترب من غزة حتى انكفأ عنها ورجال عمر الزاهر لعلمهم ان
 المقاومة لا تجديهم قليلا ، فاحتلها ولم ينوقف بل زحف على يافا .
 وكانت تقوم على حراسة هذه المدينة حامية يعززها جميع
 السكان وهم منسوسون بالقتال . فتصدروا للمعندي فحاصروهم .
 ويدلنا تاريخ هذا الحصار على مبلغ جهل اولئك القوم للفنون
 الحربية . وفي ما نورده من الوقائع الرئيسية برهان على ذلك .
 تقع يافا على ساحل قليل الارتفاع عن سطح البحر . وتقوم
 المدينة نفسها على تل كقالب السكر ينتصب عموديا الى منة
 وثلاثين قدما . وتبدو المنازل المزروعة على السفح كالسطحات
 المتراكبة . وفي القمة قلعة صغيرة تشارف جميع ما يحيط بها .
 واسفل التل محاط بجدار غير محصن يراوح ارتفاعه بين اثني عشرة
 قدما واربع عشرة ، وسماكته بين قدمين وثلاث . ولا تحيظه من
 حائط البساتين إلا الشرقات التي تعلوه ، ولا خنادق تعصمه . وتمتد
 جباله حدائق من الليمون والبرتقال تبلغ غارها حجما غريبا بفضل

خصب التربة . تلك هي المدينة التي حاجها محمد . وكان حائتها عندئذ
خمسائة صفدي أو سائة ، ومثل هذا العدد من السكان صوا
جميعاً ضد العدو وسلاحهم السيف وبنادق الصوان والقتيل . وكان
في حوزتهم بعض مدافع فولاذية زنة قنابلها أربع وعشرون ليبرة .
ولم يكن لتلك المدافع حامل يرفعوها على قواعد خشبية ركزت
بعمق فائقة . وحسبوا ان القوة في الشجاعة والبغضاء ، فأجابوا
العدو على انذاره بالتهديد والعبارات النارية .

واذ رأى محمد انه لا بد من اكناسهم عنوة واقتداراً ، عسكر
امام المدينة . ولكن المماليك يجهلون القواعد الفنية بدليل ان
محمداً وقف من المدينة على نصف مرمى المدفع ، فنبهه الى خطاه
سبل القنابل المنهارة على خيامه . فتراجع رويداً حتى استقر في
المكان الامين . فتصبحت له خيمة اسرفوا في زخرفها ، وبنت فيها
مظاهر من البذخ لا حد لها ، ثم خربت حولها خيام المماليك دورها
سقى او نظام . واضطلع للبرازة اكلواحاً من جذوع الشجر
واغصان الليمون . وندب سائر الجيش امره بقدر المستطاع . ولوزع
الحراس هنا وهناك على وجه يكاد يكون مرضياً . ولم يقيموا
المناريس حول المعسكر . وحسبوا مع ذلك انهم معسكرون بقنص
الاصول . ونجتم عليهم تثبيت المدفعية فتخيروا لها منهداً من الارض
في الجنوب الشرقي من المدينة ، وأحكموا ثمانية مدافع ضخمة
وراء جدر البساتين على مسافة مائتي خطوة من المدينة ، وشرعوا
بإطلاق النار على رغام رحاص البنادق المنساقط عليهم من اعالي
السطوح ، مما كان سبباً في تقبل الكثيرين من مطلقي مدافعهم . ان
هذا الترتيب يبدو غريباً في أوروبا ، حتى ان الناس قد يشكون

في حقيقة امره . بيد ان تلك الحوادث لم يور عليها احدى عشرة
 سنة . وقد شاعت اماكنها ، واستنعت بمدهدفا الى شهود عيان .
 وارى القروض على الا اشوه وفائع يجب ان تكون مستنداً
 للحكم على ذهنية امة . وفتحت الدافع في هذا الجدار نفرة واسعة ،
 فحاول الممالك عبورها على ظهور الجياد . واذ تبين لهم ان الامر
 مستحيل توجهوا ، وساروا بسراويلهم الواسعة واردينهم المشرة
 يعمرون بالانقاض ، السوف العقفاء في ايديهم والطبجات في
 اوساطهم . وحسبوا انهم جاوزوا كل العقبات بعد اجتيازهم هذه
 الانقاض . بيد ان المحاصرين تورنوا حتى نفذت الممالك الى الارض
 المنكشفة فأمطروهم وابلاً من الرصاص . فارتدوا منهزمين . فاستغفروهم
 مراد بك مرات متتالية ، ولكن على غير طائل . وكان عهد بك في
 هذا الوقت يتنيز غبطةً وبأساً . واستمرت الحال على هذا المتوال
 ستة واربعين يوماً . على ان عدد المحاصرين كان يتناقص يوماً
 فيوماً بسبب الهجمات المتتالية . ويشبوا من اية نجدة تصلهم من
 عكا . وسلبوا ان يستقنوا في الدفاع عن قضية عمر الزاهر . وكان
 المسلمون اكثر تهرماً من غيرهم ، لاسيما الى المسيحيين انصرافهم
 الى الصلاة واشغالهم بالكنايس اكثر من اهتمامهم بساحة القتال .
 وفتح البعض باب المفاوضات ، فاقترح اخلاء المكان اذا كانت
 المصريون يؤمنون المحاصرين على المال والارواح . ووضعت
 الشروط حتى كاد يصح القول ان المعاهدة ابرمت بين الفريقين .
 ولكن نفراً من الممالك غنوا فرحة الهدنة فانسلوا الى المدينة ،
 فتأثرتهم الجماهير . ولبشروا النهب ، فحاول الاهالي المدافعة ، واستولف
 الهجوم . وتوالت الجيوش زرافات واعمل السلب والنقتيل ، فحصل

السيف الفداء والاطفال والشيوخ . وابت وحشية محمد ونذاته
إلا أن يرفع نصيباً للنصر ، فأمر أن يشاهد له هرم من رؤوس
القتلى المناكيد ، وقد جاوز عددهم ألفاً ومائتي نسمة . وكان من
نتيجة هذه الكارثة التي حلت بالمدينة في ١٩ أيار سنة ١٧٧٦
أن عم الذعر سائر البلاد ، فاجتمع الشيخ عمر الظاهر من عكا
جئت حل ابنه علي محمد . وكان علي هذا شديد البأس ، على
كونه شوه أجداده بنوداته على أبيه ، فاعتقد أن محمداً - وكان
قد حالفه - سيجتزم الحلف ، ولكن هذا المملوك ما كاد ينتهي
إلى أبواب عكا حتى طلب من علي ثمناً صداقته له رأس أبيه ،
فرفض علي وتخلّى عن المدينة للصريين ، فانتسبوا انتهاباً . وكاد
التجار الفرنسيون يتعرضون لمثل هذا المصير . ولكنهم ما لبثوا أن
فرجوا بخطة مريضة . فقد قرأوا إلى مسامحة محمد أنهم مؤمنون
على تروة ابراهيم كاخبة عمر الظاهر ، فأنذرهم بالموت إذا منعوها
عنه . وعين للبحث عنها فيما بينهم نوار الاحد الثاني ، فوقع في
هذا النهار حدث انقذهم من هذه الورطة المصائلة . فقد استولت
على محمد حمى خبيثة اصابته بها يومين ، ففقد في زهرة العمر ،
وكان ذلك في شهر حزيران من السنة ١٧٧٦ . ويعتقد المسيحيون
أن هذه المنيّة قصاص من النبي الباس الذي كانت محمد قد هناك
حرمة كنيسته على جبل الكرمل . ويروون أيضاً أنه كان يراه
مرات عديدة بصورة شيخ وبصيح باستمرار : « ابعثوا عني هذا
الشيخ الذي يلازمي ويرعيني . » على أن الذين شهدوا سماعه الأخيرة
قد أخبروا أشخاصاً جديين بالثقة في القاهرة أن هذه الرؤيا ما
كانت إلا نتيجة للهذيان الناشء عن ذكرى الضحايا التي عذرت بها

محمد ، وان موله يرجع الى رداة المناخ والقبض والنعب المقرط ،
فضلا عن الهدوم المرهقة التي لازمتها في ابان حصار بافا . وتجدر
الاشارة هنا الى اننا لو شئنا الاعتماد في كتابة التاريخ الحديث
على رواية مسيحي سوريا ومصر لجاءت ملأى - كما في العصور
السالفه - بالامعزات والرؤى .

وما ذاع نبأ موت محمد حتى سادت الجبش الفوضى على مسا
حصل له في دمشق ، وانهزم صوب مصر . وكان مراد بك قد
اصح ذا نفوذ عظيم فأسرع الى القاهرة بنازع ابراهيم بك القيادة ،
وهو من انضاء الميت واحد معتقبه . فلم يبلغ مسامعه ما آلت
اليه الامور حتى اتخذ من التدابير ما يضمن له بقاء السلطة التي
كان مؤنناً عليها منذ غياب سيده . وكانت الاحوال جميعها تؤذن
بوقوع الحرب . على ان كلا الخصمين وازن بين وسائله ووسائل
عدوه فرأى انها متعادلة بحيث اصبح يحشى عافية القتال . لذلك
اخاروا السلم وتوافقا على ان تكون السلطة بينهما مشاعياً ، شرط
ان يحتفظ ابراهيم بقلب شيخ البلد او القائد . هذا ما قضت به
مصلحتها المشتركة في التأمن على سلامة كليهما . وكان البسكوات
الذين من بيت علي (اي الذين اعتنقهم) يتبرمون سرأ بكون
السلطة قد انتقلت الى يد حزب جديد . وكانت رفعة الشأن التي
بلغها محمد نجرج كهرياهم . وبدأت لهم سلطة عبيده بما يفوق طاقته
الاحتمال . فعزموا على التخلص منها وشرعوا بيسوت الدسائس
ويحزبون الاحزاب حتى يستمر لهم ان يؤلفوا عصبة اطلقوا عليها
اسم بيت علي بك . وكان يرأس هذه العصبة حسن بك الملقب
بالجداوي نسبة الى جدة التي كان حاكماً عليها . وزامله اسماعيل

بك احد معنفي الكائنية ابراهيم . وبلغت دسائسهم حداً من النجاح
أكبر مراد بك وابراهيم بك على اخلاء القاهرة . فانكفأ الى
الصعيد حيث تقرر منقاعهما ، وفكنا هناك من تنظيم شؤونها بفضل
ما التحق بها من الانصار المنشقين . فرجعنا الى القاهرة على رأس
اوبعائة فارس عزموا الاعداء على ككونهم يزبدونهم في العدد
ثلاثة اضعاف . فطررد اسماعيل وحسن يدورهما الى الصعيد حيث لا
يزالان . وقلق مراد وابراهيم من بقاء هذا الحزب ، فحاولا ابادته
ولكنهما لم يفلحا . ثم اقطعا العصاة مقاطعة في نواحي جرجا .
على ان النباليك يتزعون دائماً الى ملذات القاهرة ، فحاولوا بعض
الاضطرابات خلال السنة ١٧٨٣ . فرأى مراد بك ان يعمل مرة
أخرى على ابادتهم . وكان - عند وصولي الى مصر - يعد العدة لهذا
العمل . وانتشر رجاله على ضفاف النيل يوقفون المراكب ويسوفون
ربانها تحت تهديد العصي الى القاهرة . والناس ينهاربون من السخرة .
وقد فرضت على تجارة المدينة ضريبة غائلة . واكسره اصحاب
الافران والتجار على بيع سلعهم بأسعار هي دون اسعار تكاليفها .
وكانت ضروب الاغتصاب هذه التي يتكررها الناس في اوروبا
بحري وكانت امور عادية . وكان مراد بك قد انجز اعداد وسائله
في اوائل شهر نيسان ، فانطلق الى الصعيد .

ان انباء الاسانفة التي تراجعت اصداؤها في اوروبا وصفت
هذه الحلة بانها حلة حرب عظيمة وجيش ضخم . ويصح اطلاق
هذه التعوت عليها اذا قيست بوسائل مراد بك ومطاة مصر ، ولكن
عددتها في الواقع الفان من الفرسان . فاذا تدبرنا اخبار الاسانفة
وما يعترجها من التشويه المعتاد وجب ان نصدق احد امرين :

فقالا ان يكون لترك العاصمة جاحلين ما يجري في مصر وسوريا،
واما ان يكونوا يعمدوا التهور على الأوروبيين . على ان صعوبة
المواصلات بين تلك الاصقاع المتباعدة في السلطنة تجعل الافتراض
الاول اكثر احتمالاً من الافتراض الثاني . ولقد يبدو التساؤل ان
باستطاعة تجارنا القسبيين في مختلف الاساكن ان يرشدونا الى حقيقة
الحوادث . بيد ان هؤلاء التجار المحصورين في « خاناتهم » كالحيثاء
لا يبدوون كثيراً من الاهتمام بما هو غريب عن متاجرهم ، ويقتصرون
على قراصة الجرائد المرسلة اليهم من اوربا . وقد ارادوا في
بعض الاحيان ان يصححوا الانباء الواردة فيها ، ولكن معلوماتهم
استعملت في غير طرفها ، فرجعوا عن الاهتمام بهذا الامر الذي
ييهيظهم بالشكالف ولا يغيدون منه شيئاً .

خرج مراد بك من القاهرة وسار بجياله بحفاضة النهر تبعه
المراكب حاملة ذخائره ومهياه . وراعت مسيره ربح شمالية
مؤانية . وكان المنفيون ، وخدم خيالة ، يتزلقون ما وراء
جرجا . فلما علموا بقدم العدو دب بينهم الشقاق وانقسموا
فريقين يريد احدهما الحرب والآخر التسليم . وكثيرون قالوا بهذا
الرأي الاخير فاستخذوا مراد بك . على ان احمائهم وحسن
استمرا على عنادهم فانطلقا حوب اصوان يتبعها مائتان وخمسون
جبالاً . فتعقبها مراد حتى الشلال حيث اغتصبا في اماكن وعرة
جعلت لها الضربة حسب المالبك ان يستحيل معها اقتحامها . وخشي
مراد ان يطول غيابه عن القاهرة فتفجر فيها ثورة جديدة ،
فأسرع بالعودة اليها . بما هباً المنفيين ، وقد خرجوا من المأزق ،
ان يرجعوا الى مراكزهم الاولى في الصعيد .

ان جماعات تسودها الميول الخاصة ولا يفكر افرادها بغير
 نفوسهم وفي الحالة الحاضرة ، دون ما نظر الى مخبات الغد ، ولا
 يوحى قادتيا من الاحترام ما يضمن لهم طاعة المسود ، ان جماعات
 كذلك لا تستقر بها السيادة ، بل ان ثباتها ضرب من المحال . فان
 تصادم عناصرها غير المتجانسة يقضي بها الى فلق واضطراب شاملين .
 وهذا ما حدث وحدث لجماعة المماليك في القاهرة . فان مراداً
 ما كاد يرجع اليها حتى تولدت دسائس جديدة افضت الى
 اضطرابات جديدة . فقد اجتمع في تلك المدينة ، فضلاً عن حزبه
 وخزفي ابراهيم وبيت علي بك ، بكوات ينسبون الى بيوتات
 اخرى . وكاد ضعف هؤلاء وضآلة شأنهم يجعلهم مهملين لا تأبه لهم
 الاحزاب السائدة . فتصادموا في شهر تموز من سنة ١٧٨٣ لضم
 قواهم ، وكانت منعزلة حتى هذا اليوم ، ونهضوا الى القيادة .
 وشامت المصادفة ان ينكشف امر هذه العصابة فنفى قاداتها الخمسة
 الى الدلا . فتظاهروا بالاستخذاء . ولكنهم ما كادوا يخرجون
 من المدينة حتى تحولوا الى الصعيد وهو الملاذ المعتاد الذي يوائم
 جميع المستأجرين . فلوحقوا نهراً كاملاً في صحراء الاهرام ، ولكن
 على غير طائل . واستنظفوا التخلص من المماليك والعرب ، وبلغوا
 المتيا دون ما جادت ، واستقروا فيها . وكانت هذه القرية الواقعة
 على اربعين ميلاً من القاهرة على خفاف النيل مؤنبة لاغراضهم ،
 اذ تسلطوا على النهر بحيث تبسر لهم الاسيلاء على كل موارد
 الصعيد . وعرفوا ان يفيدوا من هذا الوضع ، لان المؤن التي
 ترد في هذا الفصل من تلك المقاطعة قد وقعت في يدكم ، وحرمتم
 القاهرة من الميرة ونهضتها الجماعة . اخذ الى ذلك ان البكوات

واصحاب الاملاك الذين تقع مزارعهم في الفيوم قد حرموا ريعها لان
 المنفيين فرضوا عليها الجزية . وكانت هذه البلية مما يستلزم حملة جديدة .
 اما مراد بك وقد اذنبه الحملة السابقة فقد رفض أن يقوم
 بآخرى . فأخذها ابراهيم بك على عاتقه ، واثار إعداد العدة لها
 في شهر آب على رغم حلول رمضان . فحجزت المراكب وربانها
 على ما حدث في إبان الحملة السابقة . ثم فرضت الضرائب وصور
 منعبدو الارزاق . وفي أوائل شهر تشرين الاول خرج ابراهيم على
 رأس جيش تغتوه بالجيش الرعيب لانه كان يناهز ثلاثة آلاف
 فارس . وانطلق في الليل نفسه لان مياه الفيضان كانت مسما
 بوحث تغمر معظم البلاد . ولم تثن أيام قلائل حتى نواجه الجيشان ،
 يسمد ان ابراهيم لم يكن ذا مزاج حربي شأن مراد ، فلم يساهم
 المتحالفين ، بل فاضهم ، فتوافقوا على مخالفة شفهية قضت برجوع
 للكموات الى سابق حالهم . وترتب مراد من هذا الاتفاق انه رأى
 فيه دسيسة عليه ، وساد الحذر بينه وبين خصمه . وزاد في قلقه ما
 ابداه المنفيون من التشاؤم في اثناء أحد المجالس العامة . فأوجس
 الحيانة وزدادك الامر بان خرج من القاهرة بوجاله وانصرف الى
 الصعيد . وحسب الناس ان الحرب واقعة لا محالة . بيد ان ابراهيم
 آثر التسوية . وبعد انقضاء اربعة اشهر انحدر مراد الى الجزيرة
 منحضراً للقتال . على ان الفريقين بقيا خمسة وعشرين يوماً وجهاً
 لوجه ، يفعل بينهما النهر ولا يتقاربان . ثم شرعا بالتفاوض . سوى ان
 شروطه لم تكن مما يودح له مراد ، فرجع الى الصعيد لانه لم يكن من
 القوة بحيث يستطيع إملأ شروطه عنوة واقتداراً . فأوفد اليه مراد
 مفوضين تمكنوا ، بعد أخذ وردة سخابة اربعة اشهر ، ان يعودوا به

الى القاهرة . وكانت الشروط ان يستمر مراد على مقاسمة
 ابراهيم السلطة ، وان تنزع من البكوات الحصة املاكهم . واذ
 رأى البكوات ان ابراهيم ضعى بهم لادوا بالقرار . فطاردهم
 مراد واستعمل عرب البادية للقبض عليهم ، ثم رجع بهم الى القاهرة
 ليكواوا فيها قيد نظره . ولاج للناس وقتئذ ان السلم استقر .
 بيد ان ما حصل بين القائمين كان من شأنه ان يكشف عن
 حقيقة مرادهما الواحد تجاه الآخر . فلم يكن من المستطاع ، والحالة
 هذه ، ان يتصافيا لأن كلا منهما كان يتقن ان الآخر يتحين الفرص
 للإيقاع به . فلبثا في نقطة وحذر . وما عنت هذه الحرب
 الباطنة ان اكبر مراد بك على مغادرة القاهرة في السنة ١٧٨٤ .
 فحرب خيابه على ابواب المدينة حيث اظهر من العزم والجلد ما
 أدخل الرعب في قلب ابراهيم ، فهرب برجاله الى الصعيد ، واستقر
 فيها حتى شهر اذار من السنة ١٧٨٥ . ثم رجع الى القاهرة على اثر
 محالفة جديدة . ولا يزال يقاسم خصمه السلطة ويتناهبه له دسيسة
 جديدة فرجة الانتقام .

هذه هي خلاصة من الثورات التي تعاقبت على مصر في هذه
 السنوات الاخيرة . وفي لم البسط في ذكر الملاحظات المتعددة
 التي وافقت الحوارات لانها لا تفيد شيئا ، فضلا عما يعنونه جهتها من
 الشك والريبة . وان هي الا دسائس وخيانات واعتداءات على
 الارواح ينضي تكرار روايتها الى الملل . وحسب المطالع ان
 يتنبع سلسلة الوقائع الرئيسية ويستخلص منها فكرا عامة عن
 طبائع البلاد التي بعمرها وعن حالها السياسية . بقي علينا ان
 ننبسط في درس هاتين الناحيتين .

الفصل العاشر

الحالة الراهنة في مصر

منذ ثورة الكاخبة ابراهيم وثورة علي بك ، على الاخص ، أصبحت سلطة العثمانيين اقل استقراراً في مصر منها في أية ولاية اخرى . من الثابت ان للباب العالي في مصر بشا يشهد ، ولكن هذا الرجل المحصور قيد المراقبة في قصره بالقاهرة اذ هو سجين المالك اكنو بما هو يمثل السلطان ، وهو عرضة للخلع والنفي والطرود . ولا يكاد يتبلغ الانذار على يد ضابط اسود الرداء حتى ينزل^١ من قصره كأي من الناس . وقد شاء نفر من الباشاوات بايعاز من الباب العالي ان يستعبدوا سلطانهم بما حاولوه من وسائل المكر . بيد ان البكوات احاطوا هذه الدسائس بالخفا ، مما جعل الباشاوات يتنعمون ، في الوقت الحاضر ، بقضاء مدة اسرهم بهدوء وسكينة سخاية ثلاث سنوات ، وباتفاق محصلاتهم المعينة لهم . على ان البكوات لا يتجرأون على اعلان استقلالهم مخافة ان تؤول السيطرة على « الديوان » الى احد الاحزاب المتطرفة . فكل شيء يجري باسم السلطان ، وتقبل اوامره « على الرأس والعين » ، اي بعين الاحترام . على ان هذه الظاهرة المضحكة لا تقترب

١ صيغة النزل عبارة عن كلمة « انزل » ، اي انزل من القصر .

بالتنفيذ فقط . فكثيراً ما غلقت الجزيرة ، وإذا أُدريت فهي نافذة
 ابداً ، إذ يسقطون منها مقدار نفقات شتى لتنظيف الترع ، ونقل
 اوساخ القاعرة الى البحر ، ومرتبات الجنود ، وترميم الجوامع الخ الخ .
 وجميعها نفقات وهمية كاذبة . ويجتمعون الناس في حقيقة مبلغ
 الفيضان ودرجته . ولولا الخوف من مراكب الدولة التي تأتي
 الرشيد والاسكندرية كل سنة لتعصيل ضريبة الارز والحنطة ، لما
 ادوها . وهم مع ذلك يتصالحون على مقاديرها مع المكلفين بجبايتها .
 هذا والباب العالي يفض الطرف عن هذا التعسف جرياً على
 سياسته المألوفة . فهو يعرف انه اذا لجأ الى تدابير لتقبع الترم
 بجهود ونكاليب ، وقد نضطره الحال الى حرب معلنة يجوز ان
 تخط من شأنه ، فضلاً عن ان مصالحه اشد خطراً تفرض عليه حشد
 القوات جميعها في الشمال . وهو اذن في حرصه على سلامة الاستانة
 نفسها يكل الى القادير مهمة استعادة سلطانه على الولايات البعيدة .
 فيعمل على التفرقة بين الاحزاب حتى لا يسود احدها أو يستقر .
 وهذه الطريقة التي لم تحجب مقاصده حتى اليوم قد جاءت موافقة
 لكبار ضباطه ايضاً ، فهم يسارعون المتسرعين على تفويضهم وحمايتهم
 هم ، ويجمعون من جراء ذلك المبالغ الطائلة . وهذا هو اليوم شأن
 امير البحر حسن باشا ، فقد سلك المسلك نفسه مع مراد وابراهيم ،
 فحصل منهما على اموال باعظة .

الفصل الحادى عشر

ميشا المالك

ان المالك عند استيلائهم على الحكم في مصر قدوةوا بالوسائل التي حسبوا انها تضمن استقرارهم فيه . ولا ريب ان انجع تلك الوسائل كان ما قاموا به من رذل فرقتي الاحزاب والانكشارية العسكرية ، بحيث ان طائفتي الفرقتين ، وقد كانتا مفرقة في يد الباشا ، أصبحتا مثله ولا حول لها ولا طول . وهذا خطأ آخر تقع تبعته على غائق الباب العالي . فان عدد الجند الاتراك الذي كان حتى قبل ثورة الكاخية اربعين الف رجل خيالة ورجالة ، قد انزل الى نصفه بسبب جشع القادة الذين كانوا يحتفظون لانفسهم بالمرتبات المخصصة للجنود . وجاء على بعد اربعين سنة اكمل هذه البلية . فتسرع بالنخلص من الرؤساء الذين يقرئهم منهم ، وترك مراكزهم شاغرة ، وجرد القادة من النفوذ ، وورث الجيوش التركية حتى ان الاحزاب والانكشارية والفرق الخمس الاخرى أصبحت اليوم خليطاً من الصناعيين والمترفة والمتشردين الذين يرتضون حراسة اي باب لقاء اجر يتقاضونه ، ويرتجفون امام المالك كما ترتجف منهم سوقة القساعة . والواقع ان قوة مصر العسكرية تنحصر في فرقة المالك . فممنهم بضع مئات منشرون

في البلاد والقرى له حافظه على السلطة وجباة الضرائب والحؤول
 دون المظالم . على ان معظمهم في القاهرة . ولا يجاوز عددهم بحسب
 تقدير العارفين ثمانية آلاف وخمسة رجل بين بكوات ، وكشافه ،
 ومعتقين وارقاء . ويدخل في هذا العدد شيان لم يبلغوا العشرين
 او الثانية والعشرين من العمر . واعظم بيوتهم شأناً بيت ابراهيم
 بك الذي يتألف من ستمائة مملوك . ثم يأتي مراد بك وله منهم
 اربعمائة . على انه في جرائه وسخائه يعادل قدره خصه الثري
 البخل . ولكل من البكوات الآخرين ، وهم ثمانية عشر او
 عشرون ، عدد يراوح بين خمسين ومائتي مملوك . وثمة نفر
 من المماليك يصح ان نعتهم بالمبهمين ، وهم متحذرو بيوتات
 منقرضة يشايعون هذا او ذاك من القروص بحسب مقتضيات مصالحهم .
 وتراهم ابدأ على اغبة التحيز لمن يزيدهم عطاء . اصف الى هؤلاء
 بعض « السراجين » ، وهم فئة من خدم الجياد ينقلون اوامر
 البكوات ويقومون باعمال الجلاوذة . وهذا المجموع يكاد يبلغ
 عشرة آلاف فارس . ولا حساب عندهم للمشاة ، فهم لا شأن
 لهم في تركيا عامة ، وفي الولايات الاسبوية بوجه خاص ، لان
 اطنابن الفرس والتمر ما يرحل تسود هذه الاصقاع . فالجرب
 عندهم كثر وفر لا يحسن القيام بها الا الفارس . فهو دون سواه
 رجل الجرب في المعارف بينهم . ولما كان رجل الجرب عندهم
 — شأنه عند البرابرة — صاحب الجاه والشرف ، فقد رأوا في السعي
 على الاقدام دليل حقارة ، فاختصوا به الشعب . وهم من اجل ذلك
 لا يسحبون اسكان مصر الا باقتناء البغال والخيول ، محتفظين لانفسهم
 بحق ركوب الجياد . ويقاوسون هذا الامتياز الى ابعد حدوده .

فأنك لا تراهم في المدينة أو الحقل أو انشاء التزاود حتى من
باب الى باب ، الا على ظهور الخيل . ويحملهم على هذا الامر ، فضلاً
عما سبق ، نوع الملابس التي يلبسونها . وهذه الملابس التي لا تختلف
من حيث الشكل عن ازياء اهل البسر في تركيا جديدة بان
نوصف .

النسبة الاولى

البسة المالك

قميص واسعة من نسيج قطني تاصع اللون ضارب الى الصفرة ،
يعملها رداء كالمبذلة من كتان الهند او من نسيج دمشق او
حلب . وهذا الرداء المسمى بالعنتري ينحدر من العنق حتى
الكاحلين ، وينضم جانبا على مقدمة الجسم حتى الوركين حيث
يثبت بشككتين . ويعمل هذا الرداء رداء آخر بشكل الاول
واتساعه ، يصل كاه الواسعتان حتى رؤوس الاصابع ، ويسمونه
القططان . ويصنع عادة من الحرير ، وهو اثن من الرداء الاول .
وثمة منطق طويل يضم الرداين معاً الى القد ويقسم الجسم الى
جزئين . اضع الى ذلك قطعة ثالثة من الجوخ غير مبطنه ، هي
الجبة . ولا يختلف شكلها عن القطعتين الاوليين اجمالاً ، سوى ان
كثيراً ما مقصوحان عند المرفقين . وهذه الجبة تسمى ، في الشتاء
وغالباً في الصيف ، بالجلد فتصبح خروقة . وفوق هذه الغلافات
الثلاثة يأتي معطف رابع يرتدى في الاحتفالات ، وهو يغطي بمثل
الجسم ورأس الاصابع ، اذ يرون في كشفها امام العطاء ما ينافي

الحشمة والادب ، ويبدو الجسم تحت هذا المعطف مثل كيس طويل يخرج منه عنق غار ورأس حلق نعلوه محامة . وعمامة المهابك تسمى « الفاورق » ، وهو على شكل اسطوانة صفراء تحيط بها الحافة من الشاش منتظمة الاستدارة . وينتعلون هذا من الجلد الاصفر يمسو الزجل حتى العقب ، وخلفاً بلا حواشي معداً لان ينزع في الطريق . اما الثوب الغريب فهو السروال ، لانه من السعة بحيث يصل الى الذفن طولاً ، وكل ساق من ساقه تسع الجسم كله . ويصطنع المهابك من جوخ البندقية ، وهو اكثر سماكة وانعم ملمساً من الصوف الخشن . ولهذا السروال منطوق ذو حجرة يعقد على الاقسام المدلاة من الثياب التي ذكرناها ، فتضم جميعها تحت السروال تيسيراً للشي . فتمت تصورات المهابك منقطعة على هذه الصورة ، سهل عليك ان تفهم السر في تشاغل سخطهم ، وهم يرون في ثيابهم راحة وسعة . وعبثاً نقول لهم انها تعرفل سيرهم مشاقاً ، وانهم لا يحسنون الطراد ركوباً ، وان الفارس اذا اسقط عن جواده مصيره الملكة ، فجوابهم على كل ذلك « انها العادة » .

النبتة الثانية

جهاز المهابك

وانتم اذا كان جهاز جيسادهم اطبق على المعقول . ان اهل اوروبا منذ تعودوا البحث في علل الاشياء شعروا ان الفرس ، لكي تسهل عليه الحركات تحت فارسه ، يحتاج الى عدة وحمل خفيفين . وهذا النحول الذي طلع علينا به القرن الثامن عشر لا يعرف المهابك من امره شيئاً . فهم ما يوحوا على ذهنية القرن التاسع ،

يتقادون، ابدأً للعادة، ويوسقون الحصان بعدة ضخمة الهيكلي، منقطة
 بالحديد والخشب والجلد. يعلوها من وراء قروبيوس يرتفع ثانية فراربط
 ويغطي الفارس حتى رأس الورك، ومن امام قروبيوس آخر يده
 صدره اذا ما انحنى، ويستعيضون عن الحفة تحت السرج بثلاثة
 اغطية صوفية سمكية، ويثبت كل ذلك في السرج بحزام يمر فوقه،
 ويؤبط ليس بأبازيم ذات شوكلات، بل بسوط معقودة قليلة المتانة
 كثيرة التعقيد. وسروجهم واسعة المقدمة ولا سير لها في المؤخرة،
 مما يجعلها تسترسل على كفتي الفرس. والركب لوحات من
 النحاس تفوق الرجل طولاً وعرضاً وتوقع حوافها مقدار فيراط،
 وهي تتدلى من العرى. وهذه الركب زوايا حادة كالشفار تستعمل
 عوضاً عن المياميز لتفتح في كشوح الجباد جراحاً مستطيلة.
 ويوزن الركابان عادة عشر ليرات، وكثيراً ما تزن اثنتي عشرة
 ليرة (الليرة ٥٠٠ غرام). اما السرج والاطية فلا تزن اقل
 من خمس وعشرين ليرة، بنوع ان الفرس يحمل ستاً وثلاثين
 ليرة. وهذا الامر مستغرب، خصوصاً وان الخيل في مصر صغيرة
 القدود. والزمام ينتهي بحلقة حديدية تضغط على الذقن حتى تكاد
 تقطع الجلد، مما يجعل الفرس يحطم جانبي الفكين ولا فم له.
 ذلك ان الممالك يرجعون اللجام رجماً عنيفاً، فيطلقون العنان
 للفرس، ثم يوقفونه بغتة في اشد انطلاقاته. واذ يشد لجام الفرس
 تضلّبت قوائمه، وبطوي عرقوبه، ويتزلق بمجمله قطعة واحدة
 كأنه حصان خشبي. ومن المعلوم ان هذه الطريقة تلتف الفم
 والقوائم بنكرارها. على ان الممالك يجدون فيها اناقة، وهي تنفق
 مع اساليبهم في القتال. ومع ذلك فالمملوك فارس ثبت قوي،

على رغم ساقية المعقوفتين وكثرة تلاويه ، وعليه سبأء حربية تفنن
عين الغريب . ويجدر القول انه اكثر تونفاً في اختبار سلاحه .

النبة الثالثة

اسلحة الممالك

سلاحهم الاول قرابينة انكايزية ، طولها ثلاثون فيراطاً ، وعبارها
من القوة بحيث تطلق عشر رصاصات او اثنتي عشرة في وقت معاً ، بنوع
انها قاتلة وان لم تحكم رميتها . ويحملون في اوساطهم غدارتين مشدودتين
الى الثوب ببريم من الحرير . وتندى من القربوس خيمة من الاسلحة
يستعملونها للقتل ضرباً . ويتدلى من حمالة في جنبهم الايمن سيف
معقوف قاتلاً نشاهد نظيره في اوروبا ، طول نصله في خط مستقيم اربعة
وعشرون فيراطاً ، واذا قيس الخناؤه فثلاثون فيراطاً . ولهذا الشكل
الذي تراه مستغرباً ما يبرره عندهم . فقد دل الاختبار على ان النصل
المستقيم يقتصر فعله على موقع الضربة وحينها لانه لا يقطع الا بالضغط ،
في حين ان النصل الاعوج يزلق بقوة الذراع تفهراً ويتسع مدى فعله .
وهذه الملاحظة لم نفت البرير المتفننون في اساليب القتال والتفصيل . وهذا
ما حمل الشرقيين على استعمال السيوف الخنية العريضة . والمملوك
العادي يحمل سيوفه من الاسنانة ومن اوروبا . اما البكوات فهم
يتنازعون سيوف الفرس والمصانع القديمة في دمشق ، ويدفع عن السيف
الواحد اربعين او خمسين ليرة فرنسية ذهباً . وخصائص السيف المفضلة
عندهم خفته وحفاء معدنه ورقيقته ونموج حديدته ، وبوجه خاص رقة

١ قلت القديمة لانهم اليوم اعملوا صناعة الفولاذ .

شمرته ، ويجب الاعتراف انها رائعة ولكنها سريعة العطب كالزجاج .

النبتة الرابعة

تدرب المالك وتلاميذه

ان تدرب المالك على استخدام هذه الأسلحة شغلهم الشاغل
طوال الحياة . يخرج معظمهم صبيحة كل يوم الى سهل جبال
القاهرة ، وهناك يطلقون انة الجياد ، ويتدربون على اخذ القرابين
برساقة وتسيده الرماية فيها ، ثم يضعونها تحت الفخذ ويتزعمون
غدارة يطلقونها ويرمونها ما وراء الكتف ، ثم غدارة ثانية ترمي
بالتجربة نفسها ، متكئين على البريم الذي يشد كلا الغدارين الى
الثوب . فيشجعهم البكوات الحاضرون . ومن تمكن منهم من حطم
الحدف ، وهو عبارة عن اثناء من خزف ، ذهبت اليه النهاية
والمكافأة . ويتدربون ايضاً على معالجة السيوف ، وبنوع خاص
على تسديد الضربة من الشمال الى اليمين ، وتوجه من الاسفل الى
الاعلى ، وهي اصعب الضربات على من يتقنها . وهم على فسطح من
المهاد بحيث ان الكثيرين منهم يقطعون بسيفهم الحادة كلمة من
القطن كما يقطع قالب الزبدة ، ويرمون السهام ، ولو انهم نبذوها
من السائب القتال . واحب تلاميذهم لعب الجريد ، والجريد معناه
القضبة ، ويطلق على كل عصا ترمى باليد بحسب القواعد التي اعتمدها
الرومانيون للتوامي بالمزاريق . ويستعمل المالك عوضاً عن العصي
اغصان النخيل الوطية ، وهي اغصان طويلة اربع اقدام وزن الواحد
منها خمس ليبرات او ستاً . يتسلح الفرسان بهذه « الخراب »

ويخوضون الميدان ، ثم تنطلق بهم الجياد عدواً ، فيرمون الجريد عن بعد . فإذا ما رمى المهاجم الجريد انتفى . فبلحق به من يليه ويرمي الجريد بدوره . وتزألي الجياد فرارها مؤاناة تحسب معها أنها في مثل اغتباطهم . على أن هذه الغبطة شديدة الخطاير ، فبسة سواعد ترمي بشدة ، فتأني ضرباتها جارحة بل قاتلة . والويل كان لمن لا يتقي جريد علي بك !

أن هذه الألعاب التي تبدو لنا وحشية هي ذات علاقة بحالة الأمم السياسية ، وكانت شائعة بيننا لثلاثة قرون خلت . وما كان نلأسيها نتيجة لحادثة هنري الثاني^١ أو لفلسفة العصر ، بقدر ما كان نتيجة للسلام الداخلي الذي جعلها عبئاً فائداً . وإذا كانت قد بقيت على حافا عند الاتراك والماليك ، فما ذلك إلا لأن فوضى المجتمع تضطرم إلى التمرس بكل ما له علاقة بالحرب . فلنر إذا كانوا قد تقدموا في هذا الحقل بنسبة مراتهم عليه .

البذة الخامسة

الفن الحربي عند الماليك

إذا تحدث الناس في أوروبا عن فتنه أو حرب ، فثلوا للحال رجالاً موزعين كنائب وـمرابا وكوكبات ، وأزياء عسكرية ملونة ، ووحدات منتظمة خطوطاً أو صفوفاً ، وحركات خاصة أو مناورات شاملة ، وبالجملة ، سلسلة عمليات قائمة على قواعد موضوعية بعد امعان وتفكير .

١ هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٧-١٥٥٩) قتل بحربة أصابت إحدى عيبيه في أثناء مباراة . - المترجم .

تلك التصورات تصدق عندنا ، فإذا ما شئنا الانتقال بها الى البلاد التي ندرسها كانت مجرد اخطاء وحسب .
ان المماليك لا يعرفون شيئاً من صناعتنا الحربية . فلا ازياء
عندهم ، ولا نظام ، ولا وحدات ، ولا انتظام ، ولا يمشون لآمر .
تجمعهم غوغاء ، وسيرهم فوضى ، واقتناهم براز ، وحريمهم شقاوة
ولصوصية . وهي تنشب عادة في القاهرة نفسها . فتنفجر الفتن في
اوقات لا تهرها ، وينطلي البكوات الجياد ، وينطلق صوت النذير ،
ويظهر المتقاتلون .

ويستحرق القتال مابغة في شوارع المدينة . وتنتهي المعركة
بسقوط بعض القتلى . ثم يوجه المغلوب في طريق المنفى . اما
الشعب فلا علاقه له بهذا الاعتراك ، اذ ما هم ان يتذايح الطغاة لا
ولكن لا يجوز لنا ان نستههش شاهد القتال بهوده وسكينة . ان
وقوفه عند الموقف في معيعة الرصاص والسيوف يحيطه بأشد
المخاطر . ومن اجل ذلك تراه يفر مسرعاً ساحة القتال حتى يستقر
السلام .

ولا يندر ان ترى الرعاع يعملون النهب في مآكن المنفيين ، فلا
يصددهم عن ذلك اصعاب الغلبة . ومن الحسن ان نلاحظ ان هذه
العبادات التي نقرأها في انباء اوروبا : المماليك يفسدون الانصار ،
البكوات استنفروا الشعب ، الشعب يناصر هذا الحزب او ذاك ، لا
تعبير تعبيراً صادقاً عن واقع الحال ، لان الشعب في كل هذا عامل
لا يعمل .

وقد تنتقل الحرب الى الهواري حيث لا يبدى المتقاتلون من
فنون القتال اكثر مما أبدوا منها في شوارع المدينة . فيهاجم

أفواههم أو أجرامهم الآخر ويتمعه . فإذا تعادل الحصان في الشجاعة
تربص كلاهما أو تواعدا إلى مكات ، حتى إذا تلاقيا فيه تقارب
الحشدان مفرزات يسير في طلبعتها أشد الجنود مراساً . فبتجابه
القوم وينداعون للتزاع ، ثم يتهاجون ، ويختار كل رجل منزله .
ويطلقون النار إذا استطاعوا ، ولكن سرعات ما ينتقلون إلى
المفارقة بالسيوف . وهنا تظهر براعة الفارس ومرونة الفرس .
فإذا سقط هذا هلك ذاك .

وفي الهزيمة ، ينهض الخدم أسبادهم . فإذا كانوا ينجون عن
الوقيب قتلهم طمعاً بما يحملونه من ذهب . وكثيراً ما ينقرو
مسير المعركة بعد مقتل رجلين أو ثلاثة .

وقد أدرك المماليك ، في هذه الآونة الأخيرة ، أن مصلحة الحرب
تعود على أسبادهم ، فتركوا لهم شرف المغامرة في أخطارها . فإذا
وبحوا كان ذلك من حسن طالع الجميع ، وإن غلبوا على أمرهم
استسلم المماليك للمتنصر ، وهو كثيراً ما يكون قد فاضهم على
شروطه مسبقاً . وهم يعرفون أن منفعتهم في التزام السكون ،
فيطمشون إلى السيد الجديد الذي يجري عليهم الأجر ، ويرجعون
في ركابه إلى القاهرة حيث يصبحون عائلة غلبة بانتظار مصير آخر .

الفصل السادس

الانظام عند المماليك

إن التبرجج الذي يسود الملبس بدأش عن أسباب تكوينها .
فذلك القروي الفنى الذي يبيع في متغريلاً أو جيورجياً لا نطاً قدماء
أرض مصر حتى تتطور أفكاره وتتفتح عيناه على حياة واسعة المجال .

فكل ما حوله يوقف طعمه وجوانه. وعلى كونه ما يروح وقرباً يشمر انه
معد لان يصبح سيداً ، وينلس للرجال بذهنية حاله المنيعة ، ويساوم على
حاجة مولاه اليه ، فيبيعه خدماؤه واخلاصه ، وقيسها بالاجر الذي
يتقاضاه او بالفني يترفيه. وما كان هذا المجتمع لا يحدره الا عامل المال ،
فان اخس ما يتم له الاسباة ارضاء جشع خدمهم استبقاء لتعلقهم بهم .
وهذا هو السبب في امراة البكوات الاكل الى خراب مصر التي ينهبونها
خبياً ، وفي نرد المالك على اسبادهم وهم يتقنون اموالهم ، وفي هذه
السناس التي ما تزال تهزم عزاً كباراً وصغاراً . اذ لا يكاد يعتق
الرفيق حتى يتطلع الى اعلى المناصب . ترى ، من يستطيع الحد من
مطامعه ؟ ليس في من يتولون القيادة من مواهب التفوق ما يفرض
الاحترام ، فهو لا يرى بينهم الا جنوداً مثله رفوا الى السلطة بمراسيم
القوي . فاذا شاء هذا القوي ان يرعاه وحل به الى المقام نفسه . ولا
نعوزه عندئذ البراعة في فن الحكم لان هذا الفن ان هو الا قبض المال
وضرب السيف . ونشأ عن هذه الحال بلذخ مستفيض انطلقت معه
أمة الحاجات جميعاً حتى لم يبق حد لشراعة العطاء . وقد بلغ هذا
البلذخ مبلغاً عظيماً حتى اصبحت تكاليف المملوك الواحد لا تنقص عن الفين
وخمسة ايرة . وقد يكلف بعضهم ضعفي هذه التبعة . فكلما حل
رمضان جاء بانواب جدد من اجواخ فرنسا وانسيجة الهندية
وافشة دمشق او الهند . وكثيراً ما تبدل الجياد والاسرجة ،
والغداوات ، والسبوف ، والركاب الذهبية ، والاهجومات المفضضة .
اما القادة فينحسون ، نبيزاً لهم عن العمامة ، بالطي والحجارة
الكريمة ، والجياد العربية (ثمن الواحد يراوح بين مائتين وثلاثمائة
ايرة فرنساوية) ، وشالات الكثير (ثمن الواحد من خمس وعشرين

الى خمسين ابرة (ونساوية) ، وغرووات عديدة الجسداً ثناً يساوي
 خمائة ابرة . وقد لبذت النساء زينة الدنانير المصقفة على الرأس
 والصدر ، بحجة انها مفرطة في بساطتها ، واستعصن عنها بالباس
 والزمرد واللؤلؤ ، واخفن الى الشالات والقراء انسجة مديسة
 ليون وزخارفها . فبني كانت هذه حاجات طبقة حاكمة لا تعرف
 بحق ملكية او حياة ، تراث ثنا عواقب تلك الحاجات على
 الطبقات المكروهة على سد تلك الحاجات وعلى اخلاق اصحابها .

النبذة السابعة

آداب المالك

ان آداب المالك هي من النسخ بحيث يخشى على من وصفها ،
 بمجرد حقيقتها ، ان يتعرض لنهية المبالغة المقرضة . فقد ولد معظمهم
 على المذهب اليوناني ، وهم يطهرون عندما يشترجهم موالبيهم ،
 ولكنهم في نظر الاتراك كفار لا دين لهم ولا ايمان . وانهم
 غريباء عن بعضهم لا تربطهم العواطف الطبيعية التي تجمع بين سائر
 الناس . ولما كانوا لا اهل لهم ولا اولاد ، فلا الماضي فعل شيئاً
 في سبلهم ، ولا هم يفعلون شيئاً في سبيل المستقبل . وتراهم بجهة
 تعودوا الخرافات بحكم التربية ، والشراسة عن طريق القتل ،
 والعصيان عن طريق الاضطرابات ، والحياة عن طريق الدسائس ،
 والاقوم عن طريق المواربة ، وفساد الاخلاق عن طريق التهلك
 على انواعه . وهم بصورة خاصة متلهون هذا النوع الضري الذي
 طالما كان رذيلة اليونان والثر : وهي الامثلة الاولى التي يتلقونها
 من اسابدهم في السلاح . ولا يجد المرء تفسيراً لهذا الميل منى

عرف ان لهم جميعاً نساء . هذا ما لم تفكر من انهم يبحثون في
احد الجنسين عن اللذة التي حُرِّموا بها في الجنس الآخر . والواقع
انه ليس من يملوك واحد بلا وصية ، فقد افسدت عدوهم جميع
سكان القاهرة حتى مسيحيي سوريا المقيمين فيها .

الفصل الثاني عشر

حكومة الممالك

هذا هو نوع الناس الذين يتحكمون اليوم في مقدرات مصر ،
ويرثس الحكومة رجال من هذا الطراز . اما طريق الوصول الى
هذه المعالي فبعض ضربات سيف موقعة وايقال في الرياء او الجراءة .
ومن الطبيعي ان هؤلاء الوصوليين لا تقبل طبايعهم بتبدل الحظوظ ،
فهم ينطوون على نفوس عبيد في اثواب مارك . وكانت السيادة
في نظرهم عبارة عن ذلك الفن الصعب الذي يوجه الميول المختلفة
في امة كثيرة العدد نحو غرض مشترك ، ولكنها وسيلة للاستئثار
من النساء والخطي والجياذ والعبيد ، وارضاء الغوى . فالادارة داخلية
كانت او خارجية مستيرة بهذه الذهنية . وهي تقتصر من جهة على
المداراة تجاه بلاط الاسنانة نجساً للضرائب ولغضب السلطان ، ومن
جهة اخرى على شراء العديد من العبيد ، ومضاغة عدد الاصدقاء ،
وتلافي المؤامرات ، وابادة الخصم المستتر بالسهم والحديد . والرؤساء
ابداً في حالة النذر ، يعيشون عيشة الطغاة القدماء في سرفوزه ،
فلا ينال مراد وابراهيم ولا بين القرايينات والسيوف . وليس لهذا
المجتمع اي المام بفكرة الامن والنظام العام ^١ . والغرض الوحيد

^١ عندما كنت في القاهرة خطف المالك زوجة رجل يهودي نيكاً كان يجازان النيل ،
فكنا اليهودي امره الى مراد بك ، فأجاب بصوته الالجش « دح هؤلاء الشبان يعيشون »

عند هؤلاء القوم الحصول على المال ، والاستيلاء عليه حينما يظهر ،
واغتصابه ايأ كان مالكه ، وفرض الضرائب على القرى او على
الحرك الذي يجلبها على تجارة البلاد .

النبتة الاولى

حالة الشعب في مصر

كل ما في مصر يتفق والنظام الذي يسودها . فحين لا ينعم
الفلاح بشمرة انعامه تراه ينصرف الى العمل كادحاً ، فتهن الزراعة .
وحيث لا ضمانة لحريه الاستمتاع فلا صناعة قائمة ، والفنون بدائية .
وحيث لا تجدي المعارف نفعاً فلا ينشط الناس الى اقتباسها ونبقى
العمول على وحشيتها . وعنده هي حالة مصر . فان معظم اراضيها في يد
البكوات والمماليك ورجال الشريعة . اما اصحاب الاملاك الآخرون
فمندوم جد محدود ، فضلاً عما يصيب املاكهم من التكاليف وما
يتعاقب عليها من الضرائب والمكوس . والارت عندهم لا يشمل
العقارات ، بل هي تزول الى الحكومة ، ومنها يشتريها اصحابها .
والفلاحون آلات مأجورة لا يترك لهم للمعاش إلا ما يقيمهم الموت .
وما يحددونه من اوز وحنطة يذهب الى موائد اسبادهم ، فيما يحتفظون
الذرة ويصنعون منها خبزاً بلا خير ، لا طعام له اذا كان بارداً ،
يخبزونه في ملحة وقدعا من روث الجواميس والبقر . فهذا الخبز
مضافاً الى الماء والبصل النيء فونهم طوال العام . ويحسبون سعداء .

وفي الماء لوعد المالك الى اليهودي من قال له انهم يرجعون اليه امراته اذا دفع لهم مائة
غرنج في مقابل « اتعابهم » . وهذا ما حصل .

اذا تحلل طعامهم هذا شيء من العسل والخبز والخبث والسم ،
 اما اللحم والشحم فإذنان يرغبون فيها كثيراً ، ولكن لا اثر لها في
 ما كآهم في غير الاسباء الكبرى ، وفي بيوت أهل السعة منهم .
 وملبسهم كله عبارة عن قميص من الخام الأزرق وعبية سوداء مسن
 نسج خشن . ونعالهم رؤوسهم قفلسوة من الكتان يطوقونها بتدليل
 من الصوف الأحمر . اما الذراعان والساقان والصدور فعارية جميعها .
 واغلبهم لا يلبس السراويل ، ومساكنهم ككواخ ترابيزة يضيق
 الصدر من فيظها ودخانها ، ويحاصرهم فيها الامراض الناشئة عن
 الاوساخ والرطوبة والغذاء الردي . اضيف الى هذه الادواء الجسدية
 ما يفتايمهم من خوف الغزو والنهب وزبارات الممالك والانتقامات
 العائلية ومشاكل الحرب الاهلية المستدبة . هذه هي صورة تنطبق على
 كل القرى . وليست صورة المدن اكثر بهجة منها . ففي القاهرة نفسها
 يروع الغريب منظر الخراب والشقاء الشاملين . فشة جماعات تردحهم
 في الازقة باظهار بائسة تنمو عنها النواظر ، وابجسام عارية تشترها
 النفوس . وكثيراً ما تلتقي خيالة يرتدون الثياب الثمينة . بيد ان
 هذا البذخ يجعلك اكثر تألماً لمنظر البؤس والشقاء . فكل ما ترى
 وتسمع يفتكك في بلد العبودية والطغيان . فلا تسمع إلا
 أحاديث الاضطرابات الاهلية ، والفقر الشامل ، وابتزاز المال ،
 والضرب والقتل . فما من حوز يعصم الحياة أو الملك . ويسفك دم
 الرجل كما يسفك دم الثور . والقضاء نفسه يرفقه دون ما يقيد
 بصيغة أو شكل . فضابط الليل في طوافه وضابط النهار في
 تجواله يحاكان ويقتسمان في لغة بصر . ويرافق كليهما
 جلادون يقطعون الرؤوس عند أول اشارة يتلفونها ، وياقونها في

أكياس من الجلد مخافة ان تدنس الارض . ولبت الناس يذخرون للعقاب بسبب جريمة ولو صورية ! ولكن ما يحدث غالباً هو ان جشع ذوي السلطان او وشابة عدو يكونان السبب في ان يساق امام البك رجل تذهب النظان الى انه ذو مال . فيعرضون عليه اداء مبلغ منه ، حتى اذا انكر قلبوه عسلى ظهره وجلدوا باطن قدميه مائتين او ثلاثائة جلدة ، وقد يقتلونه بهذه الطريقة . والويل لمن يشتبه فيه انه من اهل السعة واليسار ، فثمة مائة دساس على أهبة السعي به . ولا يستطيع التملص من اغتصاب ذوي السلطان إلا اذا ظهر بظهر الفقر والبأساء .

التيمة الثانية

الذقاء والنجاسة في السنوات الاخيرة

تفاقمت حالة البؤس في العاصمة المصرية ابان السنوات الثلاث الاخيرة . فقد تضاعفت مع المساوى المعتادة الناشئة عن الطغيان المتناهي واضطرابات السنوات السابقة كوارث طبيعية اكثر تهديداً . فقد نفذ الهواء الاصفر من الاسنانة في خريف سنة ١٧٨٣ وفنك بالسكان فنكاً ذريعاً في فصل الشتاء حتى لقد خرجت الف وخمسمائة جثة من ابواب القاهرة في يوم واحد^١ . وجاء الصيف فجدت من شدة الوباء ، على مألوف نتائج في هذه البلاد . وعقبت هذه الكارثة

١ تقوم الجيانات في تركيا خارج المدن على نحو عادات الاقدمين . واذا كان لكل قبر حجر ضخم وبعض الداميك ، يجلس اليك ان هناك مدينة ثانية يصح ان يطلق عليه - كما حصل في الاسكندرية نادياً - اسم نكروبوليس ، اي المدينة السوداء .

كارثة أخرى مثلها هولا . فقد جاء فيضان سنة ١٧٨٣ ناقصاً بحيث بقي جزء كبير من الأراضي بوراً لعدم الري ، ولم يزرع قسم آخر لافتقار الناس الى البذار . وكان النيل لم يبلغ الحد المؤاني في سنة ١٧٨٤ فعم القحط . ولم يتقضى شهر تشرين الثاني حتى كانت المجاعة قد حصلت من سكان القاهرة عدداً يكاد يضاهي ما حصده الهواء الاصفر منهم . وافقرت الشوارع من المسؤولين الذين كانوا يملأونها لانهم ملكوا او ترحلوا . ولم تكن الكارثة اقل هولاً في القرى ، فقد هجرها عدد عديد من السكان هرباً من الفناء ، وانتشروا في البلاد المجاورة . وقد شاهدتهم في سوريا خلال السنة ١٧٨٥ افواجاً وجماعات . وكانت ازقة صيدا وصيدا وسائر فلسطين تعج بالمصريين ، وعلامتهم الفارقة لونهم الضارب الى السواد . وقد توغل فريق منهم حتى حلب وديار بكر .

ليس في الامكان حصر مقدار النقص في عدد السكان خلال هاتين السنتين ، لان الاتراك لا سجلات عندهم للمواليد والوفيات والاحياء . وفي الرأي السائد ان البلاد فقدت سدس ساكنيها . وقد تكررت في هذه الاحوال جميع المشاهد التي تقهر من وصفها الابدان ونطبع في النفس تاثيرات من الهول والكآبة لا تحي . فقد كانت الشوارع والباحات العامة — على نحو ما حصل ابان مجاعة البنغال لسنوات خلت — مزدرة بهياكل منهوكة القوى تستجدي باصواتها الواهنة شفقة عابري السبل ، ولكن على غير طائل ، لان خوف الخطر المشترك حجب القلوب . فكان هؤلاء النعماء يلفظون آخر انفاسهم ، فيما هم مستقلون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون انها توشح بالخطفة والاذى . وكثيراً ما كان صراخهم يزجج الممالك فيطاردونهم

باعقاب العصي .

ولم ينفر الجوع من ابة وسيطة كانت لسدة ما بهم من كلب
الجوع ، فقد التهبوا افذر الاشياء . ولا أنسى فط مشهداً شاعده
في عودتي من سوريا الى فرنسا في شهر اذار سنة ١٧٨٥ .
لقد رأيت تحت اسوار الاسكندرية القديمة ثاعمين جاثمين على جثة
جمل ينارغان الكلاب قطع لحم النخ .

وهناك نفوس شديدة المراس بعد ان تؤدي فسطها من
الشفقة لجه هذه النكبات العظيمة لا تنالك من ارت. فتولاه ردة
من الغضب على من يكابدونها . فتري ان هذه الشعوب التي لا
تلك الشجاعة لدفعها او تتلقاها دون ان تناسى بالانتقام لطيفة بان
توت . ويذهب البعض الى القول بمجازفة ان في هذه الوقائع دليلاً
على ان سكان البلاد الحارة مستضعفون طبعاً ومزاجاً ، وان الطبيعة
اعتدهم لان يكونوا ابداً عبيد الاستبداد .

ولكن هل بحث هؤلاء فيما اذا كانت تلك الحوادث وما يثاثلها
لم تقع في مناخات يريدون ايلامها شرف الاستثناء بامتياز الحربة ؟
وهل لاحظوا اذا كانت الحوادث العامة التي يستندون اليها لا
ترافقها احوال وملابس تشوه نتائجها ؟ في السياسة كما في الطب
من الاعراض ما يضلك عن حقيقة اسباب الداء . وكثيراً ما
يتعجل الناس في وضع القواعد الكلية بالاستناد الى حوادث فردية ،
فيأتون بهذه المبادئ الشاملة التي ، وان كانت تروق العقل ، الا انها
كثيرة الاجهام . ومن النادر ان تكون الوقائع التي يدور عليها
التعليل صحيحة ، لان ملاحظتها هي من الدقة بحيث يحش غالباً ان
تقوم المذاهب على قواعد وهمية .

وفي الحالة التي نحن في صددنا ، اذا نقصنا اسباب استكانة المصريين للاوعاق ، وجدنا ان هذا الشعب الذي تسوده احوال قاسية اجدر بالشفقة منه بالاحتقار ، والسبب في ذلك ان الحالة السياسية في هذه البلاد غيرها في اوروبا . فان آثار الثورات القديمة عندنا ما برحت تضاعف يوماً بعد يوم حتى تقرب الغرباء الغالبون من الوطنيين المغلوبين على امرهم ، وتولدت من امتزاجهم امم مختلطة ، موحدة المصالح . اما في مصر وفي معظم آسيا فقد اصبح الوطنيون مستعبدين - على التواقلبات حديثة العهد - لغالبين غرباء ، ونالفت من الفريقين جماعات مختلطة متباينة المصالح . فالدولة هنا قسنان : فئة الشعب المنصر التي يحمل افرادها جميع مناصب السلطة المدنية والعسكرية ، وفئة الشعب المغلوب الموزعة بين الطبقات المرووسة في المجتمع . والفئة الحاكمة التي تخول نفسها حق الاثرة في الملكية بقوة الفتح لا ترى في الفئة المحكومة سوى آلة طيبة للاستمناع . وهذه الفئة الاخيرة ، وقد نعت من كل مصلحة شخصية ، لا تؤدي لفئة الاخرى الا اقل ما يمكنها اداؤه . وانما العبد يحمل على عاتقه بذخ سيده وترفعه ، ويبحث عن وسيلة ليتحرر من عبوديته . وهذا العجز احدى الخصائص التي تميز عسدا الوضع عن مثله في بلداننا . فان الحكومات في دول اوروبا تستند وسائل الحكم من صميم الامم . وليس من السهل عليها او من الموافق لها ان تتعسف في استعمال السلطة .

ومهما يمكن من امر فهي لا تبلغ في استعمالها حدود الظلم والطغيان . وسبب ذلك انه فضلاً عن تلك الجماهير التي يسمونها الشعب القوي بكلمته الضعيف ابدأً باختلافاته ، توجد طبقة اخرى

توسط الشعب والحكومة وتوازن بين كليهما ، وهي طبقة الاتربة
الموزعين في المناصب الاجتماعية الذين يعينهم انت تحترم حقوق
الاحتراز والملكية . اما في مصر فليس من حالة وسطى ، ولا
طبقات اشراف وكهنة ونجار وملاكين يتكون منهم جسم وسط
بين الشعب والحكومة . فالناس هناك اما جنود ورجال شريعة
اي رجال حكم ، او حراث وصناعيون ونجار اي رجال الشعب .
واخص ما يعوز الشعب الوسيلة الاولى لمحاربة الظلم ، وهي توحيد
القوى وتوجيهها عليه . ان ابادة المالك تقتضي ان يتآزر الفلاحون
جميعاً ويشدوا . وفي هذا الامر استعانة يرجع سببها الى انتظام
طريقة الاستبداد . ففي كل ولاية او قضاء حاكم ، وفي كل قرية
فائقام يسهر على حركات الجمهور . وهو وان كان واحداً ضد
الجميع ، فان السلطة التي يثقلها تجعله قوياً مهاباً . وقد دل الاختبار
على ان الرجل الذي تدفعه الشجاعة الى سيادة قوم يجد بينهم
اذلاء يهرعون لمساندته . ان هذا الفائقام يكل الى بعض افراد
الشعب شيئاً من سلطته ، فيصبحون اسناداً له ، ثم يتحاسدون ويتنازعون
على رضاه ، فيستعملهم الواحد بعد الآخر ليأفي عليهم جميعاً . وفي
الغري من التحاسد والبغضاء ما يفسد التفرقة والتخاذل . ولكن
اذا افترضنا ان السكان اتحدوا وتضاموا ، وفي الامر ما فيه من
الصعوبة ، فأي قدرة لازمة من الفلاحين المشاة الخفاة ولو تسلحوا
بالمعصي والبنادق تجاه فرسان شاكي السلاح مدربين على اساليب
القتال ؟ اتي لأياس بوجه خاص من خلاص مصر كلها تأملت
طبيعة أرضها المؤانبة للفروسية . فاذا كانت افضل كتائب المشاة
عندنا ما برحت ترهب منازل الفرسان في السهل ، فما قولك في

سحب. يحمل فنون القتال البدائية ، ولا ينبغي له ان يقتبسها لانها
ثمرة المران ، والمران عديم امر محال . ان الحرية لا تجد مواردها
الكبرى إلا في البلاد الجبلية ، حيث تستطيع الشريعة الصغيرة
الاستعاضة عن العدد بالحق والبراعة . فهي متحدة في بادئ الامر
بسبب قلة عددها ، وتكتسب كل يوم قوى جديدة بسبب تعود
استعمالها . وتبقى المستبد الخنجر قد حدث السلطة من نشاطه
فيما ظل ، ولا تلبث هذه الجماعات من الفلاحين او السرايين التي كان
يحتقرها ان تصبح متمرسه بالطرب ، فتنازعه في السهول فنون
القتال وغرة القلبية .

ويختلف الامر في البلاد المسطحة حيث انفرق التجمعات على
اهون سبيل ، بحيث لا يبقى للفلاح - وهو الذي لا يعرف حتى
اقامة التاريس - من مورد الا شقة بيده والاستمرار في العبودية .
واذا كان من مبدا عام يجوز الاخذ به فليس اصدق من القول :
ان البلاد السهلية مقام الخمول والعبودية ، والجبال وطن النشاط
والحرية^١ . وقد يكون في حالة المصريين الحاضرة ما يكفي
شجاعتهم دون ان يصح القول ان بذورهما ليست في طبائعهم
او ان المناخ قد حرمهم ايها . وفي الواقع ان هذا الجهد المستمر

١ الجبابرة اكثر الشعوب نشاطاً قديماً وحديثاً . فالاشوريون الذين استحووا
البقاع الواقعة بين الخندوس والبحر المتوسط قد انطلقوا من جبال عطوريا التي هي موطن
الكلدانيين ايضاً . وقد خرج الفرس من جبال المعاد والمندونيون من جبال رودوب .
وقد شاع على هذه القاعدة اليوم في سكان سويسرا وايسونيا واشتوريا وغيرها وجميع
أحرار شديشو الشكيمة . وكنت احسب ان هذه القاعدة شاملة لولا عدو العرب والتمر
عنها ، مما يدل على ان ثمة سبباً ادرياً آخر يصح في السهول والجبال معاً .

في النفس ، الذي يسمى الشجاعة ، انما هو صفة نفسية أكثر منها
جسدية . وما كانت حرارة المناخ مرتفعة او منخفضة لتوحي الجرأة
على افحام المخاطر بمقدار ما تبعت عليها المروءة والثقة بالنفس .
فاذا انعدم هذان العنصران جاز ان تلبث الشجاعة في جمود . على
انه اذا كان ثمة من قوم جديرين بالمقاسة فهم اولئك الذين قرست
اجسامهم بالألم واكتسبوا صلابة تغلب عليه ، كالمصريين مثلاً .
فقد اخطأ من وصفهم انهم اناس اوعىهم الحر ، او خشنهم الجلادة .
اجل ، قد يكون لسكان المدن واعل الثراء هذا التأث الذي هو
خاصة من خصائصهم ايأ كان المناخ . بيد ان القرويين الميسرين
بأفلاحين تحقيراً لهم ، يعانون من المشقات ما يشير الدهشة والاستعراب .
فانك تراهم طوال ايام يفترقون من مياه النيل عراً معرضين
لحرارة شمس تقتل امثالنا . ومن كانوا منهم خدماً للماليك قاموا
بكل حركات الفارس ، فهم يتبعونه في المدينة ، وفي الحقل ، وفي
الحرب ، وفي كل مكان ابداً متوجلين ، ويقضون اياماً كاملة يتعقبون
الحيول او يتقدمونها ركضاً ، حتى اذا ادركهم التعب تعلقوا
بأذيالها كيلا يتخلفوا . وثمة سمات نفسانية تقضي بنا الى استقراءات
بمالة لتلك المظاهر الجسدية . فان اعتماد الذي يديه القرويون في
بعضاتهم وفي ثاراتهم ^١ ، وشراساتهم في اقتناسهم قرية^٢ واخرى ،
وتسلكهم بشرف المحافظة على السر^٣ برغم ضربات العصي ^٤ ،

١ اذا قتل رجل آخر حتمت عشيرة القاتل على عشيرة القتيل ثمة من قومه ،
تنتقل من قرية الى قرية ولا يدركها السبات .

٢ يقال ممن يتكبد هذا العذاب « انه رجل » ، وحبه بذلك تعويضاً .

ووحشتهم في معاقبة نائلهم وبنائهم لأفل الخلال بالعفاف^١ ،
 في كل ذلك دليل على أنه إذا كانت العادة قد ائتمنت فيهم
 النخوة في بعض النواحي ، فإن هذه النخوة لا يعوزها إلا التوجيه
 حتى تصبح شجاعة رهيبة . ان الفن الذي يثيرونها آونة بعد أخرى ،
 وقد عيل صبرهم - في مديرية الشرقية خاصة - نذل على نار تحت
 الرماد لا تنتظر للانفجار إلا يداً تعرف كيف تحركها .

النبة الثالثة

حالة الفنون والفنون

ان الحائل العظيم دون ثورة حسنة الطالع في مصر إنما هو
 الجهل المدقع الذي تتعرج فيه الأمة . وهذا الجهل ، وقد أصب
 العقول عن أسباب الادواء وعن ادويتها ، قد أعماه كذلك عن
 وسائل التداوي .

اني وقد نويت العودة الى هذا الموضوع لا أتيسر الآن في
 تفاصيله ، وحسبي الملاحظة ان هذا الجهل الشائع بين جميع الطبقات
 يند بمفاعيله الى جميع فروع المعارف الادبية والطبيعية والعلوم
 والفنون الجميلة حتى الفنون الميكانيكية التي ما يزال أبسطها في دور
 نشأته ، واشغال التجارة والحداثة والاسلحة بعيدة عن الاحكام
 والانقان . اما السلع والبضائع الحديدية والذهب والبنادق فتستورد

١ فهم يذهبون عند أقل شبهة ، على ما يجري في سوريا أيضاً ، ولا كنت في الرملة
 رأيت فلاحاً يتجول في السوق يوماً ورداؤه منقطع بدم ابنته التي تلبسها . ومعظم الناس
 يظنون انهم استعاضوا . اما المدانة التركية فلا تدخل في مثل هذه القضايا .

من الخارج ، وانك بالجهد تجد ساعاتياً في القاهرة ، وهو اوروبي .
والصاعة اكثر عدداً بما هم في حلب وازمير . ولكنهم اعجز من
ان يحكموا تركيب جبر كبريم . وفي القاهرة يصنعون البارود ،
ولكنه خشن . وثمة معامل للسكر يستخرج منها دهي المادة .
والابيض منه كثير التكاليف . والانسجة الحربية على شيء من
الانفان ، ولكنها اقل انفاناً بمراحل من مثيلاتها في اوروبا واعلى غناً .

الفصل الثالث عشر

حالة التجارة

(قد يدعش المرء وسط هذه الفيضنة الشاملة ان تحفظ التجارة بهذا النشاط في القاهرة . على ان من يتخصص مواردها بامعان يتبين ان ثمة سببين يجعلان من القاهرة مركزاً لتجارة واسعة : الاول استجماع ما تستهلكه البلاد في الرقة هذه المدينة . فهي موطن كبار الملاكين كافة كالمال بك ورجال الشريعة الذين يجمعون فيها جميع حاصلاتهم دون ان يردوا شيئاً الى البلاد التي تنتجها . والثاني مركزها الذي يجعل منها مجازاً الى جزيرة العرب والهند عن طريق البحر الاحمر ، والى الحبشة عن طريق النيل ، والى اوروبا والسلطنة العثمانية عن طريق البحر المتوسط فتقبل على القاهرة في كل سنة قافلة من الحبشة تنقل الرقيق (يراوح عددهم بين الف عبد والـف ومائتين) والعاج ومسحوق الذهب ودرى النعام والضموغ وطيور البيغاء والفردة^١ . وتقوم من افاصي مراكش نحو مكة قافلة اخرى يقد عليها حجاج تلك النواحي

١ نسير هذه القافلة بعازلة النيل . وقد رافقها الانكليزي بروس Brus في السنة ١٨٨٢ عائداً من الحبشة حيث قام برحلة هي اجبراً رحلات هذا العصر . فقد لقد القوت منها في عبورها الصحراء وقتل رجالها بفتاتون من الضموغ ليلماً عديدة .

حتى شواطئ السنغال^١ . فتسير بحفاة المتوسط لينضم اليها
حجاج طرابلس وتونس وغيرهم ، حتى تطلع على الاسكندرية عبر
الصحراء بثلاثة آلاف رجل او اربعة ، ثم نهبط القاهرة لنضم الى
قافلة مصر ، فبمهران مكة معاً ، ونعودان منها بعد مئة يوم .

على ان حجاج مراكش الذين فصلهم عن بلادهم مسافة ستائة
فرسخ فهم لا يرجعون اليها الا بعد مضي سنة او تزيد . وتحمل
هذه القوافل معها انسجة الهند والصكوفيات والصمغ والعطور
والؤلؤ والبن اليمني بنوع خاص . وهذه البضائع تصل ايضاً الى
السويس على ظهور السفن الشراعية التي تنطلق من جدة في شهر
ايار عند مؤاتة الريح الجنوبية . اما القاهرة فلا تحفظ بهذه
البضائع كلها . بيد انها فضلاً عن القسم الذي تستهلكه منها تفيد
من رسوم المرور ومن نفقات الحجاج . وثانيها من دمشق حيناً بعد
آخر قوافل صغيرة تنقل اليها الحراير والقطنيات والزيت والثار
المجففة . ولا يخفى مرفأ دمياط في الربيع من السفن التي تفرغ
فيه مشحونات النبع اللاذقاني الذي يستهلك في مصر على نطاق
واسع جداً . وتحمل هذه السفن من مصر الارز ، فيما تتوارد سفن
اخرى دون ما انقطاع على الاسكندرية ناقلة اليها من الاستانة
الانواب والاسلحة والفراء والمسافرين والادوات المعدنية ، ومن
مرسيليا وليفورنو والبندقية الكتان والحرير والخضوات والودق
والحديد والوحاص الخ... وتنقل هذه السلع الى الرشيد بجرأ ، ثم

١ رابت في القاهرة بعض عبيد هذه القافلة القادمين من بلاد « القولي » الواقعة
في شالي السنغال ، « الخبيري » انهم شاهدوا جماعة من القولية في تواجيد .

توجه على القاهرة عن طريق النيل . وتلك هذه النظرة الشاملة
على الساع سوق التجارة في القاهرة ، ولكن متى عرفت ان
قسماً كبيراً من البضائع الهندية والين يذهب الى الخارج ، وان
افاقه تسد سلعاً وبضائع من أوروبا وتركيا ، وان معظم استهلاك
البلاد يدور على أدوات البذخ والترف في حين ان اكثر منتوجاتها
من المواد الخام ، تبين لك ان هذه التجارة الواسعة لا تعود على
مصر بالمنافع الكثيرة والرخاء الوفير .

الفصل الرابع عشر

بروزخ السويس ومسألة اتصال البحر الأحمر
بالبحر المتوسط

تحدثت عن تجارة القاهرة مع جزيرة العرب والهند عن طريق
السويس . ان هذا الموضوع يشير قضية كثيراً ما تشغل الناس في
أوروبا وهي : أليس من المستطاع قطع البروزخ الفاصل بين
البحرين الأحمر والمتوسط فكيفاً لعبور السفن الى الهند في طريق
أقصر من الطريق التي يسلكونها اليها باتجاه رأس الرجاء الصالح ؟
ويذهبون الى الظن ان هذا العمل ممكن التحقيق بسبب فلة عرض
البروزخ . بيد اني تبين في سفري الى السويس من الأسباب ما
جعلني اعتقد العكس .

١ - صحيح ان المسافة التي تفصل بين البحرين قاروح بين
ثمانية عشر فرسخاً وتسعة عشر ، وان هذه الأرض خلو من الجبال ،
واذا وقفت على سطوح السويس واستعنت بالمنظار تكشفت
امامك سهول منبسطة فاحلة . واذا فليس الفرق في مستوى
البحرين هو الذي يقف حائلاً دون اتصالها ، ولكن العقبة الكبرى

١ ذهب الاقدمون الى ان البحر الأحمر أكثر ارتفاعاً من البحر المتوسط . وفي
الواقع اذا لاحظنا ان النيل من فناء اليوم حتى البحر يشير منحدرًا مسافة ثلاثين فرسخاً
فلا يبعد لنا الفكرة كثيرة الغرابة .

هي ان الشاطئ في مجمل القسرين المتقابلين من البحر الاحمر والوسط
عبارة عن ارض رملية منخفضة تنحطم بها البحيرات والمستنقعات ،
فلا تستطيع السفن الاقتراب منها ، بل تبقى على مسافة بعيدة من
الشاطئ . فكيف يمكن ، والحالة هذه ، حفر قناة ثابتة في رمال
متحركة ؟ ولا ميناء هناك صالحة ، والارض تقتصر الى البنابيع . فاذا
أهل هذا المكان بالسكان وجب ان يجر اليه الماء من النيل نفسه .
ويبدو ان طريقة الاتصال الوحيدة هي التي سلكت مرات
عديدة فيما مضى وافضت الى احسن النتائج ، عنت بها افامة
للمواصلات بين البحرين بواسطة النهر . فان الارض نواحي هذا
العمل دون ما جيد ، لان جبل المقطم ينخفض فجأة بؤازاة القاهرة
ويتخذ شكل ساحة نصف دائرية ينحدر حوله سهل متعادل
المستوى من ضفاف النيل حتى البحر الاحمر . وقد استوعى هذا
المكان انقياء الاقدمين ففكروا بوصول البحرين بواسطة قناة ثلثي
الى النهر . وذكر استرابون ان قناة اولى حفرت في عهد
سيروستريس الذي عاش في ايام حرب طروادة^١ ، وكان عرض
هذه القناة مئة ذراع ، على عمق كاف لير سقبة كبيرة . وبعد
ان اجتاح اليونان البلاد رمم بطليموس القناة المذكورة ، وجدها
تراجان في عهد الحكم الروماني . وقد حذا العرب حذر من
تقدمهم ، فقد جاء في تاريخ المكين ان القبط اصاب مصكة
والمدينة في عهد عمر ابن الخطاب فأمر عامل مصر عمرو ان يجر
قناة من النيل الى قلزوم حتى تمر عبرها مؤن القمبح والشعير الى

١ اي في عهد سليمان على ما ارى .

جزيرة العرب . وهذه القناة هي نفسها التي فر اليوم في القاهرة
ونتهي في الحقل الواقعة في الشمال الشرقي من بركة الحاج . اما
فلزوم - وكان يسميها الاغارقة كليسا - التي كانت تنهي اليها
القناة ، فقد خربت منذ عصور عديدة . على ان اسمها ومكانها باقيان
عند ربوة من الرمل والآجر والحجارة تقع على ثلاثة خطوات
شمالي السويس مقابل الجاز الذي يُعبر عليه الى النبع . وقد
شاهدت هذا المكان كما شاهده يديوه ، واخبرني العربان كما اخبروه
انه يسمى قلزوم . وقد اخطأ دانقيل ، اذن ، حين جعل كليسا في مكان
آخر بعد ثمانية فراسخ نحو الجنوب . واطنه اخطأ ايضاً بقوله ان
السويس هو ارسينوبيا القديمة . فقد اجمع اليونانيون والعرب على
ان هذه المدينة كانت تقع شمالي كليسا ، فيجب البحث اذن عن
معالمها بحسب دلالة استرابون . في آخر الخليج صوب مصر
دون الاحاج في ناحية الغرب حتى اجروود كما فعل سافاري . بل
ينبغي حصر البحث في الارض المنخفضة التي تمتد زهاء فرسخين من
ارل الخليج الحالي ، وهي اقصى مسافة يحتمل ان تكون قد
كسبتها الارض على البحر منذ سبعة عشر قرناً . وكانت هذه
المقاطعات ، فيما سلف من الدهر ، مزروعة بالمدن التي ذهبت بذهاب
مياه النيل . فقد خربت الترع التي كانت تسيل فيها هذه المياه
لانها سرعان ما وُدمت في هذه الارض الحاسفة بفعل الرياح
وثعاقب اقدام الجيول البدوية . وتقتصر اليوم التجارة بين القاهرة
والسويس على القوافل التي تسيّر عند وصول السفن وذهابها ، اي
في اواخر نيسان او اوائل نوار وفي خلال تموز وآب . والقافلة
التي رافقتها في السنة ١٧٨٣ كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل ومن

خمسة آلاف رجل أو هم يبلغون ستة آلاف^١، وكانت حولتها من
الآخشاب والأشعة والحبال المعدة لمراكب السويس، ومن مراكب
يحمل كل واحدة منها أربعة جمال، ومن حديد وقصدير ورصاص،
وبعض آلات الجوع وبراميل القرمز، فضلاً عن القمح والشعير
والقول وأنواع العملة التركية والاجنبية.

أما هذه البضائع كلها فقد كانت موجهة على جدة ومكة
وموكا تسديداً لأغان البضائع الواردة من الهند، ومن جزيرة العرب.
وكان يرافق هذه القافلة أيضاً عدد كبير من الحجاج يحملون مؤن
الأرز واللحم والخشب وكذلك الماء، لأن السويس أشد بلاد الله
فحطاً، فإذا ما اشرفت عن سطوحها على سهول الشمال والغرب
الرملية، أو على صخور جزيرة العرب الضاربة للبياض شرفاً، أو
على البحر والمقطم جنوباً، لما وقعت عينك على شجرة يستظل بها
المسافر أو نبتة خضراء يوثق اليها. وجل ما تشاهد في السويس
رمال صفراء ومستنقعات خضراوية المياه. ويزيد المشهد كآبة ما
تراه فيها من البيوت المتهدمة. ولا ماء صالح للشرب في تلك
النواحي إلا ماء النبع الواقع على شاطئ جزيرة العرب على بعد
ثلاث ساعات سيراً، ولكنه ماء أجاج لا يطيقه الأوروبي إلا
ممزوجاً بشراب الروم. والبحر هناك غني بالأسماك والأصداف.
ولكن العرب يقتلون الصيد ولا يحسنونه. فلما اقلعت السفن لم

١ بقيت هذه القافلة متجمعة زهاء أربعين يوماً وهي ترجى السفر مسن حين إلى
آخر متذرة بأسباب مختلفة منها أن ثمة أيام تؤم يتصبرون منها، شأن الاتراك بذلك شأن
الرومان من قبلهم. ثم انطلقت القافلة في ٢٧ تموز فوصلت إلى السويس بعد مسيرة تسع
وعشرين ساعة عن طريق الحواطات الواقعة على مسافة فرسوخ من جنوبي بحيرة الحجاج.

يبقى في السويس إلا الملوك حاكمها وخمسة عشر رجلاً من بطانته
فضلاً عن الحاشية .

والقلعة هناك عبارة عن خربة بلا تحصين يحسبها العرب معقلاً
بسبب مدافعها الستة ، والمدفعيين اليونانيين الذين يشحان بوجهها
فيما يطلقان النار . والميناء في حالة رديئة يستحيل معها على أصغر
المراكب الدنو من البر إلا في حالة المد . ومن هنا تنقل البضائع
خلال الكشبان إلى السفن الراسية في الخليج . ويقع هذا الخليج
على مسافة فرسخ من المدينة . ويفصل عنها ساحل منكشف إلى
البحر . ولا تعصمه وسية من وسائل الدفوع بحيث تسهل مهاجمة
الغالي وعشرين سفينة التي عدتها فيه . وهذه السفن نفسها لا
تستطيع المقاومة لأن مدفعية كل منها عبارة عن أربعة بجانبها يعاوها
العدو . وينقض عددها سنة بعد سنة بسبب تعرضها لثأرة البحر
للإصطدام بالصخور ، فينفد منها على الأقل واحدة من تسع .
وحدث في السنة ١٧٨٣ أن إحدى هذه السفن ألقت مراسيها في
« الطور » لتختزن الماء ، فذاعا العربان بينا كان يجارنها ينهمون
فوق اليابسة ، وسلبوا منها ألفاً وخمسمائة قفة من البن ، ثم أسدوها
لرياح غرمت بها على الشاطئ . ومعمل السويس لا يصلح للتوهم
إلا بقدر قليل ، ويقضي بناء المرسى فيه مدة ثلاث سنوات .
والبحر بده وجزره يركم الرمال على هذا الساحل ، فلن يحضي
القليل حتى يردم مدخل الميناء ويحدث في السويس ما حدث في
فلزوم وأرسينوي . ولو كان في مصر حكومة صالحة لاستفادت من
هذا العارض وشاوت مدينة ثابتة على الخليج نفسه حيث يصبح
بالمستطاع إقامة رصيف يعاوي البحر سبع أقدام أو ثمانية لأن المد

في ارتفاعه المعتاد لا يعلو الى اكثر من ثلاث اقدام وتصف
 القدم ، ولتست بترميم قناة النيل او بحفرها ثانية وحقت وغراً
 مقداره خمسمائة الف ليوة تدفعها كل سنة للعرب الموابكين
 للقوافل ، ولحسنت قناة الاسكندرية بحيث يصبح بالامكان انزال
 البضائع الى الارض نوا . ولكن مثل هذه العناية لا تعيرها
 الحكومة الحاضرة اي اهتمام . وهي لا تعنى بأمر التجارة الا
 بقدر ما ترى فيها اداة لاشباع شهواتها وشراستها ، حتى انها لا
 تعرف ان تستمر مصلحة الاوروبيين الكبرى في إقامة المواصلات
 بينهم وبين الهند . وعيناً حاول الانكليز والفرنسيون ان يعقدوا
 معها اتفاقاً لفتح هذه الطريق ، فكانت ترفض او تعرقل مساعيهم
 في هذا السبيل . ومما يمكن من امر فلا اهل بنجاح ثابت اكيد ،
 لان المعاهدات على امراض انها عقدت مع الحكومة فان
 الاضطرابات التي نالها القاهرة رأساً على عقب بين عشية وضحاها
 تبطل مفاعيل اي اتفاق من هذا النوع على ما حصل في حدود
 المعاهدة المعقودة في السنة ١٧٧٥ بين حاكم البنغال ومحمد بك .
 والماليك هم من سوء النية والطمع بحيث يجدون الحجة دائماً
 لابطال التجارة وزيادة المكوس الجمركية . ورسوم البن باعظة جداً
 في هذا الوقت ، لان البالة منه ، وبراوح وزنها بين ثلاثمائة
 وسبعين الى ثلاثمائة وخمس وسبعين ليوة وثمنها خمس واربعون
 ريالاً في موكا ، يدفع عنها في السويس رسم بحر مقداره مائة وسبع
 واربعين ليوة ، يضاف اليها تسع وستون ليوة وهو مبلغ الضريبة
 التي فرضت في السنة ١٧٨٣ . فاذا اضفنا رسم السنة بالمائة الذي
 استوفى عنها في جدة لتبين لنا ان مبلغ الرسوم يكاد يوازي ثمن المشتري .

الفصل الخامس عشر

الجمارك والضرائب

ان ادارة الجمارك في مصر ، شأنها في كل تركيا ، احدى الوظائف الحكومية الرئيسية . ويقوم على امرها رجل يجتمع بين مهوتي المراقب والملتزم العمومي . وتناط به جميع رسوم الدخول والخروج والتعامل . وهو الذي يعين المكلفين جبايتها . وهو الحاكم المستبد بأمر التجارة فيسيرها وفق مشيئته . ولا تجاوز مدة التزامه السنة الواحدة . وقد ضمنه من الحكومة في سنة ١٧٨٣ مبلغ الف كيس ، والكيس خمسمائة قرش . يضاف اليها ما يلحقه من البص والمطالب الاخرى العارضة ، بمعنى ان مراد بك او ابرهيم بك اذا احتاج الى مبلغ خمسمائة الف ليرة استقدم اليها المتعهد المذكور فلا يتردد فط في الاداء . على انسه يحصل مقابل ذلك على برامة فخره الحق في احالة البص على الهيئات التجارية المختلفة ، فيقرض عليها المكوس بالتراضي بينه وبينها . وكثيراً ما تعود عليه هذه الوسيلة بالربح والغنية . وفي بعض الولايات التركية يكلف هذا المأمور جباية الميري ، وهي ضريبة تلحق الاراضي فحسب . ولكن جبايتها في مصر منوطة بالكتابة الاقباط الذين يمارسون مهامهم بادارة امين سر القائد . وينوب هؤلاء الكتابة سجلات كل قرية فيحصلون المكوس ويدفعونها للخزينة . ويحدث كثيراً ان

يستفيدوا من امة الفلاحين ، فلا يسلطون اليهم ايديا لئلا يفسدوا
من افساط فيضطروهم الى الاداء مرتين . وليس مسن النادر ان
يكرههم على بيع ابقارهم وجواميسهم وحتى الخنازير التي يفرشها
هؤلاء النساء . ويصح القول انهم عمال خليون باسبادهم . ان الضريبة
العادية على هـ القدان هـ هي ثلاثة وثلاثون فرشاً اي ما يقرب من
ثلاث وثلاثين ليرة عن زوج البقر . ولكنها كثيراً ما تبلغ مائتي ليرة
تعبثاً . وبقدر مبلغ ما يجني من اموال الميري ، تقداً وفيحماً وشعيراً
وغیره ، بخمسين مليوناً بالعملة الفرنسية ، في حين ان الخبز يباع
هـ الرطل بقضة هـ .

ولنعد الى الجمارك . فقد كان يتولى امرها اليهود فيما مضى
وفقاً لعادة قديمة . ولكن علي بك باصم بلصاً عظيماً في السنة
١٧٦٩ فرزحوا ونضعهموا ، وآل امر الجمارك الى مسيحي سوريا
ولا يزال في يدهم . فقد نزع هؤلاء المسيحيون من دمشق الى
القاهرة منذ خمسين سنة . وكانوا في بدء امرهم عشرين او ثلاثاً ،
ولكن ما جنوه من الربح جذب اليهم امراً اخرى يبلغ عددها
اليوم خمائة . وقد اظهر هؤلاء القوم من القناعة وحسب الاقتصاد
ما جعلهم يملكون زمام التجارة فرعاً بعد آخر حتى تمكنوا من
خيانة الجمارك بعد كارثة اليهود . وقد اصبحت لهم ثروة ومطامع
يخشى معها ان يسيروا الى ما حارب اليه اليهود . وقد حسب الناس
ان ساعتهم قد دنت وآذنت يوم هرب رئيسهم انطون فرعون
الى ليغورنو (١٧٨٤) سعياً وراء الامن والاحتراز ليستمتع بثروة
تبلغ الملايين . ولكن هذه الحادثة لم تنكسر ولم تقض الى
الشرقيون عامة بتكرههم غادات الاوروبيين وبأفقون من الميرة .

النبذة الأولى

تجارة الفرنجة في القاهرة

يلى المسيحيون في اتساع المناجم التجار الأوروبيون ، وهم يعرفون في المشرق باسم الفرنجة . فلهندقيين في القاهرة مؤسسات منذ عهد قديم يستقدمون اليها السروج والانسجة الحريرية والمرائي واصناف الخرزوات وغيرها . ويساهم الانكايين بتصدير الاجوانح والاسلحة والآنية المعدنية التي ما برحت تحتفظ بشهرة التفوق . بيد ان الفرنسيين الذين يبيعون امثال هذه البضائع بأثمان رخيصة قد حازوا الافضلية منذ عشرين سنة وتبدوا منافسيهم . وجاء تهب الثقافة السائرة من السويس الى القاهرة في السنة ١٧٦٩

١ تجاوبت انباء هذا الساب في فرنسا بتجاسة السكرانة التي نزلت باليد دي سان جرمان M. de Saint Germain واحداثت دويماً بيدياً . لقد كانت القاطنة مؤلفة من ضباط وسافرون بريطانيين وبعض الاسرى الفرنسيين الذين نزلوا في السويس من ظهور سفينين ، عائدتين الى بلادهم عن طريق القاهرة . وبلغ مسمع عرب للطور امر هذه القاطنة وما يحصل ان تنقل من الثروة نمزموها على سبلها ، وسابوها فعلاً على مسافة خمسة فراسخ من السويس . فحارده الأوروبيون فجريداً ولبثوا عرافة من كف اليد . وشتمهم الخوف فاقدموا عصبيين . ورجع بعضهم الى السويس ، فباحب سبعة منهم ان يملكهم بلوغ القاهرة فدرطوا في الصحراء . ولكن النيب والعطش والجوع وحرارة الشمس ما لبثت ان اعدتكم الواحد تلو الآخر . وبقي الميد جرمان يغالب الآلام وحده . وقام في هذه الصحراء العارية القاطنة ثلاثة نهارات وليتين ممرضاً لفر الريح الشهالة ليلاً (كان ذلك في شهر كانون الثاني) ولقيط الشمس نهاراً . ولم يجد ما يستظل به الا غليظة زج رأسه بين اشواصها . والحق به العطش فارنوى ببره . واخيراً في اليوم الثالث لاحت له مياه بركة الحاج ، فجمع قواه حتى يصل اليها . وليسكنه سقطة ثلاث مرات عياه . ولولم

يكيل للانكايز الضربة القاضية . ومنذ ذلك الحين لم يبق في هاتين
المدينتين اثر لاي عامل ينتسب الى هذه الامة . واساس تجسار
الفرنسيين في مصر ، شأنه في سائر المشرق ، الاجواح الرقيقة
المسماة لوندان باب اول ولوندان باب ثان ، وهي من صنع
مقاطعة لانغدوك Languedoc .

وهم يبيعون منها كل سنة تسعمائة او الف بالة . وتقدر ارباحهم
بخمسة وثلاثين او اربعين من المائة . ولصكن ما يستجمعونه من
البضاعة يلحق بهم خسارة تجعل صافي ربحهم خمسة عشر من المائة .
ويستوردون الحديد والرصاص والابازير ومائة وعشرين برميلا من
القرمز والانسيجة وبعض اصناف الخرزوات وانواع العملة .
ويأخذون مقابل ذلك من الجزيرة وحموغ افريقيا وانسيجة
القنب الغليظة المصنوعة في منوفه ويرسلونها الى اميركا ، ثم الجاوة

يرى احد الجمالين عن بعد انقضى عليه في اللحظة الثالثة . ولصكن هذا الرجل الحسن خلقه
الديته حيث توفر على معالجته بكل ادوية مدة ثلاثة ايام . وترامى الحجر الى تجار
القاهرة فاقبل من نقل السيد جرمان اليها . فوصل في امس حال . وكان جسده عبارة
عن جرح واسع وآفته غس جنة . ولم يبق فيه الا لينة الحياة . بيد ان عظم
السيد شارل ماجالون Charles Magallon الذي كان في منزله وعيانه قد مكثه من
استعادة قواه .

لقد حدث الناس كثيرا في ذلك الوقت عن يوية العرب ، مع انهم لم يفكروا بأحد
من رجال القاعة . ويجب اليوم لوم الاموربيين على ما ابدوه من قلة الاحترار ، لانهم
تصرفوا بحرف الجبانين . فقد كان يسودهم الشقاق ولم يكن في حوزة احدهم سلاح ناري
صالح ، بل كانت جميع اسلحتهم في اسفل الصناديق . ويبدو من جهة اخرى ان العرب
لم يقوموا بما قاموا به من تقصاء انفسهم ، فان اهل القاعة يكونون ان المسألة دبرت في
الاستانة بسعي شركة الهند الانكليزية التي لم يمكن لبروتها ان يتلفها الافراد في تصدير
البضائع الى البنغال . وقد ذلت المواقف اللاحقة على حجة هذا القول .

والزعفران وملح الامونياك والارز . ولكن هذه المواد قليلا ما
تقيم دينهم كله . وتراحم ابداء في حيرة بما يستعوضون به من سلع ،
على كون منتجات مصر متعددة ومنها القمح والارز والذرة
الصفراء والبيضاء والسهم والقطن والقنب والسنا ونخب او شعير
ورصب السكر والنبطونس وملح الامونياك والعدس والشعير .
وقد تلجج الحرير والنبية . ولكن الصناعة والعمل في جهود لانت
الزراع في مصر لا يحدد . ويقدر ما يستورده الفرنسيون في السنة
العادية ثلاثة ملايين ليوة . وقد كان لفرنسا فضل بقي حتى السنة
١٧٧٧ ، ولكن النفقات التي استوجبتها وجوده حدث بأولي الشأن
الى نقله الى الاسكندرية . فلم يعترض التجار على نقله ولم يطلبوا
تعويضاً ، ولبثوا في القاهرة على مسؤوليتهم الخاصة . ولم يتبدل
وضعيتهم فيها وهي قاتل وضعية افولنديين في فانكازاكي ، أي انهم
محصرون في زقاق واسع يتعاشون ، وقلما كانت لهم صلات
بغيرهم . وهم يتعاشون الخروج ما استطاعوا لكلا يتعرضوا للشتم
الشعب الذي يكره اسم الفرنجة ، او لاهانات المالبك الذين يكرهونهم
على التوجل عن شهور الخير في الارفة . واذ هم في احسانهم
الاعتاد ، ترتعد فرائصهم من وباء الطاعون يحصرهم في منازلهم ، او
من فتنة تعرض حبيهم للنهب والسلب ، او من يلصق بقرضه عليهم
الفائد او البكوات . وفي كل ذلك ما فيه من المخاطر .

وتقتحم هموم اخرى مماثلة بسبب متاجرهم . فهم مضطرون
الى البيع ديناً ، وقلما سددت ديونهم في آجالها . ولا ضمانة للفانج
امام القضاء ، فالقاضي شر من الافلاس . وتجري المعاملات
على اساس الذمة . ولكن هذه الذمة قد تشوهت .

بما ظنهم الناس في الدفع سنوات ، وكثيراً ما احتجوا عن الرد .
والمسيحيون ، اخص حملاتهم ، اكثر خيانة للامانة من الاتراك
انفسهم . ومن البين في السلطنة جميعها ان المسيحيين ينشطون عن
المسلمين في الطوائع . وتري من اجل ذلك ان القاهرة اقل اساكلي
الشرق استقراراً واكثرها استقراراً . فقد كانت تقوم فيها منذ
خمس عشرة سنة تسعة محلات فرنسية لم يبق منها في سنة ١٧٨٥
إلا ثلاثة ، ولا يعد ان يزول جميعاً منها . فالمسيحيون المقيمون في
ليثودونو يتعاملون مع مواطنيهم رأساً ويكيلون هذه المحلات ضربة
خاصة . اما ورق توسكان الذي يعتبرهم من رعاياه فهو يدعم تجارتهم
بشكل سلطانه ويعمل على اتساعها .

الفصل السادس عشر

مدينة القاهرة

القاهرة ، وقد تحدثت عنها كثيراً ، مدينة شهيرة يجدر أن أخصها ببعض التبسط زيادة في التعريف . إن عاصمة مصر هذه لا يعرفها أهل البلاد بأسم القاهرة الذي أطلقه عليها مؤسسها . فالعرب يسمونها مصر . وهو اسم لا مضاف معروف له ، وقد يكون الاسم القديم الذي عني به الشرفيون مصر السفلى . تقع هذه المدينة على الضفة النيل الشرقية وعلى مسافة ربع فرسخ منه ، مما يحرمها حصنة كبرى لا تعوض عنها القناة الواصلة بينها وبين النهر ، لأن الماء لا يسيل فيها إلا في أمان الفيضان . أنك إذا سمعت بالقاهرة الكبرى تجلجليل اليك أنها عاصمة شبيهة بعواصمنا على الأقل . ولكن إذا لاحظت أن المدين لم تعرف التجصيل عندنا إلا من مائتي سنة لم يدعشك أن تكون على هذه الحالة من الحمجية في بلاد كل ما فيها ينسم بطابع القرن العاشر . فلبس في القاهرة بنايات فخمة عامة كانت أو خاصة ، أو ساحات منتظمة أو شوارع مخططة تظهر فيها روائع الفن البنائي . وفي ضواحيها تلال غبراء من الانقاض المتراكمة يوماً بعد يوم ، تقوم حياها القبور العديدة واقذار الطرقات التي تنفر العين والشم في وقت معاً . والارفة في داخل المدينة ضيقة متعرجة وغير مبسطة ، يزدحم فيها الناس والجبال والحير والكلاب فيثور فيها غبار مزعج .

وكثيراً ما يرش الأفراد الأرض أمام أبواب منازلهم فيعقب
الغيار الوحل والابجزة السكرية الرائحة . ومنازل القاهرة تتألف
من طابقين أو ثلاث خلافاً لما هي العادة في الشرق ، ويعلو طابقها
الآخيرة سطح مبلط أو مطلي بالطين ، واكثرها من الآجر ،
وبعضها مبني بحجارة جبل العروق تفتطح من جبل المقطم القريب .
وتحمل هذه البيوت مساحة السجون لأن لنافذاتها على الشوارع ،
اذ الخطر كل الخطر في أن تكون المنازل مضامة في تلك البلاد
حيث يتخذون الحيلة ليجعلوا مدخل الدور واطلة الاعتاب .
وتوزع الغرف في الداخل ردي . يسدئك توى في منازل
العظماء بعض الزينة وشيئاً من وسائل الراحة . رثة ابناء واسعة
تندقق المياه في أحواضها الرخامية ، وبلاطها المرفش بالرخام والحرف
الملون مغطى بالنضائد والحصائر التي تعلوها سجادة ثينة يجلس
عليها القوم متربعين . وفي محاذة الجدران ارائك عليها الوسائد
المتنقة والمعدة لتكس عليها المرافق والظهور . وعلى علو ثاني
اقدام من الأرض اطار من الصفائح المرصعة بالحرف الصيني
والباباني . والجدران مرفشة بالآيات القرآنية والنقوش الملونة التي
تعلو أبواب البكوات أيضاً . وليس للنوافذ زجاج أو أطر متحركة
بل عوارض مشبكة قد تزيد اسكلاف صنعها على اسكلاف المرائي
عندنا . وينفذ النور الى الدور من الساحات الداخلية حيث تعكس
اشجار الجوز ظلالاً خضراء تروق النظر . وقد نافذة صوب الشمال
أو في اعلى السقف تبعث الفواء الرطب . ولكن وجودها يناقض
مناقضة غريبة وسائل الدفء التي نكثر في المنازل كمالاحف الصوف
والفراء . ويؤمن الاغتيا ان في هذه الاحتياطات ما يبعد الامراض ،

ولكن وجل الشعب بتقصيه الأزرق وحصائره الغليظة أقل تعرضاً
للزكام .

التبذة الأولى

سكان القاهرة والقطر المصري

كثيراً ما يتسامون عن عدد سكان القاهرة . فإذا ما اعتدنا
على قول متعهد الجمارك أنطون فرعون الذي ذكره البارون
دي طوت Le Baron de Tott كان عدد سكانها سبعمائة ألف نسمة
بما فيه بولاق ، وهي ضاحيتها ومينائها المنفصلة عن المدينة . بيد أن
تعداد السكان في تركيا أمر كئيب لأن سجلات المواليد والوفيات أو
الزواج لا وجود لها . فالمسلمون ينظرون من الإحصاء . أما المسيحيون
فيمكن إحصاءهم بالاستناد إلى أوراق الخراج . والثابت في الأمر أن
دائرة القاهرة ثلاثة فراسخ وفقاً للمخطط الذي رسمه نيبوهر في السنة
١٧٦١ ، وهي تكاد تضاهي دائرة باريس ضمن خط الجادات . وتقوم
في هذا الإطار جناحين وخرائب وأراض خالية . فإذا كانت باريس
في محيط الجادات لا تحتوي أكثر من سبعمائة ألف نسمة على كون
منازلها من خمس طبقات ، أصبح من الصعب التصديق أن القاهرة ،
ومنازلها ذات طبقتين ، تحتوي أكثر من مائتين وخمسين ألف نسمة .
وأنه لمن المستحيل أيضاً تقدير عدد سكان القطر المصري بكامله . بيد أنه
لما كان عدد مدنه وقراه لا يتجاوز ألفين وثلاثمائة ^١ على ما هو معروف ،

١ عرف دانتيل بالثين عن قرى مصر ، فالأولى وهي من القرن الماضي تحتوي
ألفين وستة وستين مدينة وقرية . والثانية وهي من أواسط القرن الحالي تضم

وكان لا يمكن ، من طريق المعادلة بين الاماكن بما فيها القاهرة نفسها ، ان يزيد عدد سكان المكان الواحد على الف نسمة ، اصبح من الثابت ان عدد السكان الاجمالي لا يجاوز ٢٤٣٠٠٠٠٠٠ نسمة . ان الاراضي الصالحة للزراع تبلغ ٢١٠٠ فرسخ مربع بحسب قول دانفيل . ففي كل فرسخ مربع والحالة هذه ١١٤٢ نسمة . وهذه النسبة التي هي اعلى منها في فرنسا نفسها تحمل على الاعتقاد ان مصر ليست من خالة السكان بقدر ما يتوهمون . ولكن اذا لاحظنا ان الاراضي لا ترواح فقط وانها جميعها خصبة ، لئن لنا ان النسبة ضعيفة جداً متى قيست بما كانت عليه وما يمكن ان تكون .

وبين الغرائب التي يدعش بها الاجنبي في مصر هذا العدد العجيب من الكلاب الشبيهة التي تطوف بين الارفة ، ومن الجيدان المختلفة فوق البيوت مرساة اصواتها المزعجة الفاجعة . والمسلمون لا يقننوها على ما يعرفون من قذارتها ، بل كثيراً ما يقننوها بفضلات الموائد . واكثر طعام الكلاب من الطرقات ، ولكن ذلك لا يحول دون تعرضها للجوع والعطش . والغريب انها لا تصاب ببداء الكلاب . وهذا الداء غيب معروف في سوريا ايضاً . ولكن اللغة العربية تنطوي على اسم ، وما كان اصله اعجبياً .

الفين واربعائة وخمس وتسعين ، منها تسعمائة وسبع وخمسين في الصعيد والى واربعمائة وتسع وثلاثين في الدلتا ، والموجز الذي يسطه هو من السنة ١٧٨٣ .

الفصل السابع عشر

امراض مصر

النبة الاولى

العمى

اكثر ما يدعشك في مصر من الامراض العمى وسعة انتشاره . فكثر ما كنت اشاهد في نجواي بين اذقة القاهرة بين مائة شخص عشرين عمى وعشرة عور وعشرين غيرهم من ذوي العيون الحمراء او المتقيحة او المشوبة بالبقع . ويكاد يكون جميع الناس متقنعين بالعصائب ، وهي الدليل على انهم مصابون بالرمم او نافون منه . وشار اندهنة ايضاً رباطة جأشهم التي يقبلون بها هذا الويل العظيم . يقول المسلم : « هذا ما قد كتب » ، ويقول المسيحي : الحمد لله ، انها مشيئة ، فليكن مباركاً . ان هذا النسل خير ما يتفزع به المرء بعد حصول الداء . ولكنهم يجاوزون الحد في الركون اليه حتى يمتنعوا عن البحث في اسباب الداء ، فيصبح تسليمهم احد هذه الاسباب . لقد عالج بعض اطباء هذه القضية ، ولكنهم طرفوها بصورة مبهمه جملهم ما يلابسها من الاحوال . وسأرسم عنها صورة عامة توصلنا لحل المعضلة :

١ - ان نزلات العيون ونتائجها ليست خاصة بمصر ، بل تحدث

في سوريا حيث هي أقل انتشاراً ، ومن الجدير بالذكر انها متحصرة في السواحل البحرية .

٢ - ان القاهرة وهي ملائ بالافذار ابدأ اكثر تعرضاً لما من سائر القطر المصري ، وغامة الشعب اكثر من اهل اليسار ، واهل البلاد اكثر من الاجانب . ويندر ان يصاب بها المالك . وفلاحو الدلتا اكثر تعرضاً لها من عرب البادية .

٣ - ليس هذه التقلبات فصل معين ، بل هي تقع في كل الشهور ايا كان عمر المصابين .

اما وقد بسطت هذه المسائل قبلوج لي انه لا يجوز التسليم بأن سبب الداء الرياح الجنوبية ، والا وجب ان ينتشر الوباء في شهر نيسان وان يتأثر به البدو كالفلاحين . ولا يمكن التسليم ايضاً بأن سببه القبار الدقيق المنتشر في الهواء ، لان الفلاحين هم اكثر تعرضاً له من سكان المدن . وقد تكون عادة النوم على السطوح اكثر ملائمة للحقيقة . ولكن هذا السبب ليس وحيداً ولا مجرداً ، لان هذه العادة مألوفة في النواحي الداخلية النائية عن البحر كوادى بعلبك ، وديار بكر ، وسهول حوران ، وفي الجبال حيث لا تتأثر الابصار بالنوم على السطوح . فاذا كان النوم في الهواء الطلق مؤذياً في القاهرة وسائر بقاع الدلتا ، لزم ان يكون هذا الهواء قد اكتسب من مجاورة البحر خاصية ضارة . وهذه الخاصية هي الرطوبة التي اذا امتزجت بالحرارة تصبح ولا شك مبدأ العلل . وان ما في افواه من الملوحة ، في الدلتا ، خصوصاً ، يساهم في تغذية الداء بما يجده من التهييج والحسك في العيون كما تبينه بنفسي . وارى في طعام المصريين عاملاً آخر قوياً ، فالجين واللبن الرائب والعسل والثار الخضراء

والخضر النبتة التي هي ما كل الشعب تحدث في أسفل البطن تشويشاً
يؤثر به البصر ، على ما تبينه أهل الممارسة ، ولابصل التي خصوصاً
مميزة في تبييج العين تعلمنها من رهبان سوريا وخبرتها بنفسي .
والاجسام التي يكون غذاؤها على هذه الطريقة تستقيض اخلاطها
الفاسدة الساعية للتسرب ، واذ كانت العرق العادي بحول هذه
الاخلاط من المسالك الباطنية ، فهي تنفذ الى الخارج من المضارف
التي هي اقل مقاومة لها . ولا شك انها تؤثر الرأس لان المصريين
يخلقونها كل السبع ويغطونها بعمامة كثيرة الحرارة تستعرقها بغزارة .
فاذا ما كشفت هذه الرأس وتعرضت للبرد ، انقطع عرقها ونحول
الى الانسان او الى العيون باعتبار انها اقل مقاومة . فيضعف
العضو لدى كل نزلة ، ولا يلبث ان يتلف . وهذا الاستعداد في
الجسم ينقل عن طريق النسل ويصبح سبباً آخر للمرض . وهذا
ما يفسر ان أهل البلاد اكثر تعرضاً له من الغرباء . وما يدلك على
ان عرق الرأس عامل قوي في تسبب الداء هو ان المصريين القدماء
الذين كانوا حاسري الرؤوس لم يذكر الاطباء انهم كانوا يصابون
بالرمد^١ . وهذا هو شأن عرب البادية الذين قلما اعتسوا في الصغر .
فيهم كذلك خلو من هذا المرض .

النبتة الثانية

الجذري

ان عدداً كبيراً من حوادث العمى في مصر يرجع سببه الى

١ على ان التاريخ يذكر ان بعض الفراعنة ماتوا عمياناً .

عواقب الجدري . فهذا المرض الكثير الفتك في الأرواح هناك لا
يعالج بحسب الطريقة الصالحة إذ يعطى المصاب في الأيام الثلاثة الأولى
دبساً وعسلًا وسكرًا . ثم يسمح له في اليوم السابع باللبان وبالسك
المالح كما لو كان في الصحة النامة . ولا يعاملونه مسهلًا قط ، ويتعاشون
خصوصاً غل غيبه حتى لو امتلأ بالقبح وانطبقت جفونه وانصقت .
ولا يقومون بهذا العمل إلا بعد مرور أربعين يوماً يكون القيح
خلالها قد فرج العين كلها وتأكأها . ولا يعني هذا أنهم لا يعرفون
التلقيح . ولكنهم قلما توسلوا به . كذلك السوربون وسكان
الاضول ، فهم يعرفونه منذ زمن طويل ، ولكنهم لا يارسونه ^١ .

ان هذه الطريقة السيئة في العلاج من العوامل التي تساعد
على غناء المرض . وما كانت النتائج تبطل فعلها لانه ليس من
الروافة بالمقدار الذي يتوهمون ^٢ . اما التغذية الرديئة فهي سبب
ما ترى من هياكل المنسولين الدمية المنظر ومن مسحة الشقاء
والوهن التي ترتسم على وجوه صبية القاهرة . وما كانت هذه
الخلوقات الصغيرة في ابي مكان مثلها في هذه المدينة من حيث
المظهر الخارجي الفاجع . فكانت هؤلاء البؤساء بأعينهم الجوفاء ،
وسجلهم الشاحبة المنورمة ، وبطونهم المنتفخة ، واطرافهم المزيقة ،
ولونهم الصفراوي يقالبون الموت دائماً وابدأ . وترغم امهاتهم
الجاحلات ان عين الجسد الحبيثة فعلت بهم ما فعلت . وهذه الحرافة

١ وطريقهم في ذلك أنهم يدخلون في الجدد خيطاً او هم ينتفون المريض جفافة
البثور .
٢ ولما شاهد بالمهايك الذي يمتعون بالقوة والنشاط بفضل حسن التغذية واتظام
المناس .

متأصلة في البلاد التركية . اما السبب الحقيقي لما يعانون فمرده
الى التغذية الرديئة . وترى انهم ، على رغم التعاويذ^١ ، يموتون
افواجاً وجماعات . وما من عاصمة كالقاهرة تمتاز بهذه الميزة
المؤسفة في ابتلاع سكانها .

وقد مرض كثير الانتشار في القاهرة ، وهو الذي نسميه
عامتهم بالمرض المبارك ، ونسبه نحن على غير حق بمرض نابولي .
ونصف سكان القاهرة مصابون به . ويعتقد اكثرهم انه منات من
الحرف او السحر او القذارة ، ومنهم من يوقب في سببه الحقيقي .
ولكن هذا السبب ذو علاقة بأمر ينكسون بشأنه فلا يجراؤن
على المباحة به . وهذا المرض المبارك متعسر البرء . وفلما نجح معه
الزئبق او عمل فيه مها كانت طرق المعالجة . والنباتات المعروفة
في مداوانه انقع وان لم تكن اكيدة المفاعيل دائماً . ومن حسن
الطالع ان جرثومته قليلة النشاط بالنظر الى غزارة العرق ، طبيعياً
كان او مفعلاً . ولا تعدم ان ترى شيوخاً يرافهم المرض حتى
التاين من عمرهم . بيد ان عواقبه الوخيمة تظهر في المواليد
المولودين . واشد ما يكون خطره على المصابين الذين ينقلون الى
بلاد باردة . فهو ينمو فيها نمواً سريعاً وبعض شفاؤه بفعل هذا
الانتقال . وينتقم امره في سوريا ودمشق والجبال حيث الشتاء .
الفارس . فاذا اهلل انتهى الى اعراضه المعروفة وقد شهدت منها
مشككين .

١ كثيراً ما ترى على وجود الامتساع والرجال في مصر عود ممد من الفاس
الاجر او قطع الساج او الزجاج الملون . هي بحسب زعمهم تحول نظرة الحسد الاولى
وتنقل ضررها المؤذية .

ويختص مناخ مصر بشرة جلدية تعاود الجسم مساهمة . ففي
اواخر حزيران او ارايلى تموز تنتشر في الجسم بشور وتآليل كثيرة
الازعاج . ولاحظ الأطباء ان هذه الآفة تحدث على اثر تجدد الماء
ففسدوا سببها اليه . وحسب الكثيرون ان الماء يفعل فعلة بالاجسام
بسبب كثرة الرواسب الملحبة فيه . ولكن ملحوظة هذا الماء غير
ثابتة ، مما يجعلنا نذهب الى سبب آخر ابسط . فقد سبق وقلت ان
مياه النيل تأسن في مجراه عند اواخر شهر نيسان ، فتحدث في
الاجسام المرتوية منها اختلاطاً وديئة . فعندما تصل المياه الجديدة
يحصل في الدم اختار تنفصل بنتيجته تلك الاختلاط وتطرد نحو الاديم
حيث يستحبها العرق ، وهو استنفاض كثير الفائدة .

وفي القاهرة ايضاً داء انتفاخ الحصىين الذي كثيراً ما يقضي
الى قبة عظيمة ^١ . ويلاحظون انه اكثر ما يصيب اليونانيين
والافياط مما جعل الناس يحسبون ان عيبه الافراط في تناول
الزيت الذي يتعاطاه اولئك طوال ثلثي السنة . ويظنون ايضاً ان
الاستحمام بالمياه السخنة احد اسبابه . وللافراط في الاستحمام اضرار
اخرى ^٢ . والاحظ بهذه المناسبة ما عرفته بالاختبار من ان العرق

١ القبة والادوية انتفاخ في الحصى يسمى العامة القرف .

٢ الفصريين والأتراك عامة ولع بالحمات السخنة يصعب تصديره في هذه البلاد
الحارة ، وارى انه ناشى عن فرش الشربة على الرجال الوشوء بعد الغسل الجسي .
لما النساء قلن فقلا عن ذلك مواقع اخرى ، منها ان الحمام هو مكان الاجتماع الوحيد
الذي يمكن فيه عرض زينة واكل البطيخ والفاكهة والخضرة . والاستحمام يوليهن
تلك البدانة التي يسيونها جالا على ما لاحظ بروسير اليان Prosper Alpin . ولكن
آراء الاجانب في هذا النوع من الاستحمام جد مختلفة ، ويحك ذلك بعضهم به ، فكما ان

المستقطر من اللبن أو الحليب أو النمر أو الصبار شديد الاثر في
الحصبتين . فاذا تعاطيته ثلاثة ايام او اربعة نورمتا ووجعتاك .
فاذا لم تنقطع عن معاملة هذه الحفرة فحول الداء الى قيلة .

وليس للعرق المستخرج من الزبيب مثل هذه السيئات ، فهو
ممزوج بالانيسون دائماً وقوي جداً لانه يستقطر ثلاث مرات على
النوالي . ويتعاطاه نصارى سوريا واقباط مصر بكثرة ، حتى ان
هؤلاء يحتسونه عند العشاء اكواباً ملأى . وكنت احسب ان
في الامر مبالغة حتى شيدته مشاهدة اليقين ، ولكنني ما زلت
استغرب كيف ان هذا الافراط لا يقتل صاحبه فوراً او لا
يحدث فيه على الاقل امراض السكر الشديد .

ان الربيع في مصر ، وهو بمثابة الصيف في مناخاتنا ، يؤذن
بحييات خبيثة سريعة العافية ابداً . وقد لاحظ طبيب فرنسي توافر
على معالجتها ان مداوانها بالكينا ، في حالة خوارها ، قد انقذت مرضى
اشرفوا على الهلاك . فعند ظهور الداء يجب الافتصار في الأكل
على النباتات الحسنة والامتناع عن اللحم والسمك والبيض بنوع
خاص ، لان لها مفعول السم في مصر . وقد دلت الملاحظات في
هذا البلد وفي سوريا ان الفصاد يجلب الاذى اكثر من المنفعة حتى
في اكثر الحالات موافقة ، لان غذاء الاجسام ، وهو عبارة عن

البيض يرتاحون اليه ، كذلك يرى فيه البعض الآخر ازعاجاً شديداً . ورائي من هذه القلة
الاخيرة ، قد حصل لي من جرائه دوار وارتياف في الزكيتين طوال يومين . واعترف ان
في تلك المياه اغرقة حقاً وفي ذلك العرق السبب باختلاجات الرئتين اكثر منه بالخوارق فذة
مستغربة جداً . ورائي لا احسد الاثراك على اعيونهم او حماماتهم ولا كيهم المرحطين بالملاطفة .
وفي اليوم التالي كان يعاطي المريض حفنة خفيفة لاستفراغ الكينا من جوفه .

طعام رديء كالفاكهة الخضراء والخضر النيئة والخبز والزيتون ،
يكسبها دماً قليلاً وخلطاً كثيراً ، وهي في الأجمال صفراوية كما
يستدل من العيون والحواجب السوداء ، والذون الأحمر والأجسام
الخرزية . والمرضى الشائع عندهم مرض المعدة ، إذ يشكو معظم
الناس من حرقة الحلقوم والقيء الحمضي . ويندأون لها بالقيئات
والطراير .

ويحدث أن تصبح الحيات الحبيثة وبائية حتى يحسب الناس أنها
الطاعون الذي بقي لي أن أتحدث عنه .

البقرة الثالثة

الطاعون

شأن بعضهم أن يحملنا على الظن أن الطاعون ينشأ في مصر .
بيد أن الواقع يكذب هذا الرأي القائم على الأخطاء المبهمة ، إذ
يؤكد تجارة القمحون في الاسكندرية منذ سنوات طويلة أن
الطاعون لا يتسرب قط من داخل البلاد^١ ، ويوافقهم المصريون
على ذلك ، بل أنه يظهر أولاً على ساحل الاسكندرية ، فينفذ
منها إلى الرشيد ، ومن الرشيد إلى القاهرة ، فإلى دمياط ، فإلى سائر
الدلتا . ويلاحظون أن هذا الوباء ينتشر دائماً على أثر وصول أحد
المراكب المقلعة من الزمير أو الاسنانة ، وأنه إذا كان شديداً أبان

١ بروسر ألبن Prosper Alpin طبيب من البندقية كتب في سنة ١٨٤٦ أن
نشأ الطاعون ليس في مصر ، بل في اليونان وسوريا وبلاد المغرب ، وذكر أيضاً أن الحور
يقتل الداء .

فصل الصيف في احدى المدن المذكورة كان خطره اشد على
المدينة الاخرى في فصل الشتاء الذي يلي . ويبدو من الثابت ان
موطنه الحقيقي الاسنانة حيث يتأبد بفضل ما يظهر الاتراك من
اهمال اعمى اذ تباع امتعة المرقى الموبوئين علانية . ثم تأتي سفن
الاسكندرية فنقل الفراء والاثواب الصوفية المبيضة على النهر
المذكور ، ونصرفها في اسواق المدينة حيث تزرع جرائم الوباء .
والبوغاثيون الذين يتعاطون هذه التجارة هم في الغالب ضحاياها الاولى .
ويجد الوباء شيئاً فشيئاً الى الرشيد حتى ينتهي الى القاهرة متأزماً
في مسيره الطريق الذي تسلكه البضائع يومياً . اما التجار الفرنجة
فلا يكادون يستشعرون وقوع الداء حتى يعتصموا في « خاناتهم »
مع خدمهم ، ويقطعوا كل صلة بالخارج ، فتسلم اليهم اقواتهم عند
باب الحان ، فيسلطها البواب بكلايب من حديد ، ويضعها في برميل
ماء معد لها . فاذا ما شاء احد مكائمتهم ، وقفوا منه على مسافة
لحول دون الناس بالثياب او بالنفوس . وهم بهذه الطريقة يتقون
الآفة ما لم يخلوا بقواعد الاحتراس . فقد حدث منذ سنين ان
هراً قفز عن السطوح الى مقر تجارنا ، فنقل الطاعون الى رجلين
منهم ما لبث احدهما ان قضى نحبه .

ويمكنك ان تتصور مبلغ الضرر الذي يستولي على هؤلاء القوم
في احتباسهم ، وهو يستمر من ثلاثة شهور الى اربعة ، يقتصرون
خلافاً على النمل بلعب الورق والتنزه مساءً على السطوح .
وما يسترعي النظر ان الطاعون يسلط في الاسنانة صيفاً فيها
يضول او يزول شتاء . وهو بالعكس يسيطر في مصر شتاءً حتى
اذا ما اطلق شهر حزيران ابادته . بيد ان هذه الغرابة الظاهرة

نقوم على قاعدة واحدة . فالشئاء يبئد الطاعون في الاستانة لان
بردها فارس جداً ، والصيف يذكبه لان الحرارة فيها مشوبة
بالرطوبة بسبب جوار البحار والجبال والغابات . وفي مصر يتبره
الشتاء بسبب رطوبته واعتداله ، ويحققه الصيف لانه حار وجاف .
ويعمل فيه عمل في اللحوم التي يمنعها من الفساد . وما كانت الحرارة
مؤذية إلا بمقدار ما تتزج بالرطوبة ^١ . ان مصر تنكب بالطاعون
كل اربع سنوات او خمس . ولكن ما يجده من التلف في
الارواح خليف بان يجعلها قاعاً صفصفاً لولا ما تعاض به من
الغرياء المقبلين عليها جماعات من سائر ولايات السلطنة .

اما في سوريا فانطاعون نادر جداً ، وقد مضت خمس وعشرون
سنة على آخر مرة تفشى في انحاءها . ويرجع ذلك الى ندورة السفن
المقبلة من الاستانة تواتراً . فضلاً عن انه لا يقبل بسهولة في هذه
الولاية . فاذا ما نقل من الارخبيل او من دمياط نفسها الى
خلجان اللاذقية او صيدا او عكا ، فهو لا يتأهل فيها . ويقضي له
لسي يغزو سوريا بأسرها ان تلابسه احوال اعدائية وبمر بطريق
معبئة كان يأتي من القاهرة الى دمشق رأساً .

ان التسليم للفدر مضافاً الى همجية الحكومة فد حال حتى اليوم
دون الاحتراز من هذا الداء الوبيل . على ان الاتراك تأثروا
اخيراً بجدوى الوسائل التي اعتمدها الفرنجة . ويبدو ان السباب
العالي أصبح باذي الاعظم للقضية ، اذا صح انه اصدر في العام

١ - لوحظ في القاهرة ان حلة الماء الذي ترشح عليهم المياه النازلة باستمرار من
القرب المعلقة فوق ظهورهم لا يصابون قط بالطاعون ، ولكن الامر هذا الغشال لا
رطوبة .

المنقضي ارادة بالشاء محاجير صحة في ازمير نو كنديا والاسكندرية .
وسبق لحكومة تونس ان قدّرت بهذا التدبير الرشيد منذ سنوات .
على ان فوض الادارة التركية كفيلة بان ينتهي الامل بهذه
المؤسسات الى اخفاق رصم ما لها من الاهمية القصوى للتجارة
ولسلامة دول البحر المتوسط .

١ والدليل على ذلك انه الطاعون انتشر السنة الماضية في تونس انتشاراً لم يسبق له
مثيل ، وكانت قد تلته اليها مر ١ كـبـ مـتـة من الاسنانة فكان ركبائها من رشوة الحراس
والدخول خلسة الى البلاد دون التوقف في الكرتينا .

الفصل الثامن عشر

النبتة الاولى

مورة موجزة عن مصر

ما يزال المجال واسعاً لوجوه البحث عن احوال مصر ، ولكنها وجوه غريبة عن الغرض الذي انويته ، او هي تدخل فيها سأورده عن سوريا . فلن انبسط فيها والحالة هذه .

اذا ذكر المطالع ما قلته عن طبيعة الارض ومنظرها ، وغتل بلاداً مسطحة مقطوعة بالترع ، مغمورة بالنيساب ثلاثة اشهر ، موحلة بخضرة ثلاثة اشهر اخرى ، غبراء مشقة الاديم في سائر ايام السنة ، وتصور على هذه الارض قرى خربة من الطين والآجر ، وفلاحين عراة شاحبي اللون ، وجواميس ورجالاً واشجار جتيز ونخيل ، وبحيرات وحقولاً بحروثة وبخلاء شامعاً ، واخاف الى ذلك شيئاً ساطعاً في زرقة سماء فلما تشوبها السحب ، ورياحاً تتراوح شدة وليناً وهي في الحائين مستمرة المبوب ، امكنه ان يكون فكرة قريبة من طبيعة البلاد ، وقد نسى له ان يتعرف باحوال السكان الشخصية بما ذكرته عن نرفهم اجناساً وشيعاً وبيئات ، وعن نوع حكومتهم التي لا تعترف للانخاص بملكية او امان ، وعن السلطة المتناهية الموكول امرها الى طبقة عسكرية متفخمة الاخلاق خشنة المراس ، ويمكن اخيراً تقدير قوة هذه الحكومة

بأجمال حالتها العسكرية وقيمة جيوشها والملاحظة انه ليس في مصر
 او على حدودها اي تحصين او متراس او مدفعية او مهندسون ،
 وان بحريتها عبارة عن غاوية وعشرين مركباً يعاين كل واحد منها
 اربعة مجانبين صدنة ويقودها بحارة لا يعرفون ما البوصلة . فعلى
 الثاوي . ان يستخلص لنفسه رأياً عن بلاد كهنه . فاذا رأى
 انني اصفها له بغير ما وصفها غيري ، فلا يدهش من تباين النظرات ،
 فليس ما هو اقل اجماعاً من احكام الرحالين في امر البلاد التي
 عاينوها . فهم كثيراً ما يناقض بعضهم بعضاً . فهذا يطوي ما
 خفذه ذلك . وآخر يصف بالجنة مكاناً يراه غيره جنة عادي . أجل ،
 يأخذ عليهم الناس هذا التناقض ، ولكن نقادهم بشاركونهم فيه
 لانه كائن في طبيعة الاشياء . ومهما يكن من امر فان احكامنا
 لا تستند الى الخصائص الحقيقية في الاشياء بقدر مسا هي تقوم
 على تأثراتنا بها او على التأثيرات التي نكون فيها عندما نرى هذه
 الاشياء . ويدل الاختبار اليومي على تداخل الافكار الغربية في
 تلك الاحكام بما يجعل ان البلد الواحد الذي يبدو لنا جبلاً في
 وقت من الاوقات يوحى لنا بالكراهية في وقت آخر . هذا
 فضلاً عن انه يصعب على المرء ان يستخلص من الوهم الناس .
 عن عادته الاولى . فساكن الجبال يكره الساحل ، وساكن
 الساحل يحتقر الجبال .

يريد الاسباني سماء محرقة ، فيها يبغي الدمار كي طقساً غامساً .
 نحن نحب خضرة الغابات ، والاسوجي يؤثر عليها بياض الخارج .

وقد نقل احد سكان لا بوليا من كوخه المدخن الى غياض شاتنبي
فبات من القيظ والكآبة . فلكل ذوقه الذي يحكم بتفضاه . الى
افهم ان تكون مصر في عين المصري اجمل بلاد العالم ، وان لم
يكن قد عرف غيرها . ولكنني اذا سمع لي بابداء الراي كشاهد
غياث ، اعترف بانني غير مجازيه في ما يرى . انني مقر بسخاه
خصبها وتنوع حاصلاتها وافضلية موقعها للنجارة ، ومسلّم بانها غير
معرضة لتقلبات الفواء التي تهلك محاصيلنا ، وبان الاعصارات لا تنجأها
كما تنجأح امريكا ، وبان الزلازل التي اكتسحت البونغال وايطاليا
في ايامنا هذه تآذرت حدود فيها على ككونها لم تكن خلوا من
وبلاتها ١ . حتى اني اسم بان الحر الذي يرهق الاروبيين لا يتضرر
منه سكانها ، ولكن ما قولك في هذه الرياح الجنوبية القسالة ،
وبهذه الريح الشمالية التي تولد الصداع الشديد ، وبهذا العدد العديد
من العقارب والبعوض ، وخصوصاً الذباب الذي لا نستطيع ان
تناول طعاماً إلا اوشكت ان قبضت منه . وما من بلد كمصر
في عدم تبدل المنظر ، فتنة سهل غار مترامي الاطراف ، وآفاق
مسطحة متساوية ، واشجار تحيل تقوم على ساق هزيلة ، واكوخ
من الطين على الطرق ، فلا تقع عينك قط على سناء تلك المناظر
التي تستوق الافكار والابصار بتنوع الاشياء والمشاهد والتأثرات .
وما من بلد اقل مدعاة للافتنان وانبي عن ريشة الرسامين والشعراء .
فلا ترى فيه شيئاً مما يجعل السحر والعنى في تصاويرهم . ومن
الجدير بالنظر انه لا العرب ولا الافدمون جازوا على ذكر شعراء

١ حدث فيها زلزال شديد سنة ١٦١٢ .

مصريين ، وفي واقع الحال بأي شئ . يعني المصري عسلى قيثارة
 غيتار وتبوكريوس ؟ فليس عنده الجدول الصافية ولا الخائل
 الريانة ولا المغاور المنعزلة ، ولا يعرف الاودية ولا السفوح ولا
 الصخور المدلاة . ولا يجد نوميسون هناك صفيح الرياح في الغابات
 ولا دحرجة الرعود في الجبال ولا سكون الجلال في الاحراش
 القديمة ، ولا دوعة العاصفة او ما يعقبها مسن عذوب مهيب ، بل
 ثمة دائرة ازلية تتعاقب فيها ابداء مشاهد المواشي السينة ، والحقول
 الخصبة ، والنهر المنعكسر ، وبحر المياه العذبة ، والفرى المائلة كالجزر .
 فاذا ما انطلق الفكر الى الافاق التي تشملها الابصار جزع ألا
 يجد غير البواري المتوحشة التي يباس فيها اسافر النائه الموهون نعباً
 وظلماً امام الزحائب التي تفصله عن العالم ، فيستصرخ الارض والسماء
 على غير طائل ، وتضيع صيحاته في سهل الجرد لا يردعها اليه اصدية
 ولا ترجيعاً . فهو ، وقد عري من كل شئ ، واحذقت بسسه وحدة
 الكون ، يقضي كدماً ويأساً امام طبيعة كئيبة دون ان يتأسي
 بدمعة تلدف على مضايه .

ان بحاوره النقيضين في مصر لما يزبد ولا شك في محاسن
 تربتها . فعراء البادية يقابله غزارة النيل ، ومشاهد الحرمان تؤيد
 في عذوبة الاستمتاع ، هذا الاستمتاع الذي كانت موارد كثيرة
 فيها سلف من الدهر ، وكان بالمستطاع ان يعود الى سابق عهده لو
 كانت الحكومة صالحة . ولكن تروة الطبيعة اليوم لا تنال منها
 ولا ثمر . وبعيداً بطري الناس حدائق الرشيد والقاهرة ، فالبلدة فن
 خليق بالشعوب المتحضرة ، ويحيطه الاتراك لانهم لا يأبهون بأمر
 الحقول والزراعة . وانست البساتين في بجل ارجاء السلطنة إلا

غياخاً بيرة القيت فيها الاشجار دون ابي عناية حتى انها لا تستحق
 ان يقال عنها اشجار قوضى . اما اشجار اليمون والارج (الكباد)
 التي تحيطها بكل ضروب العناية والاتقان فهي في مصر شجرات
 عادية تظلل الاكوالح وتطبع في النفس صور الاعمال والبؤس
 والشفاء ، يستلقي التوكي في ظلالها مسترخياً مدخناً غليونه دون
 ان يجهد نفسه بعناء التفكير . لا شك ان للجبل والحافة لذاتها ،
 شأنها بذلك شأن العقل والمعرفة ، ولكنني اعترف انني لا استطيع
 ان احسد العبيد على راحتهم ، ولا ان اسي خول هذه الآلات
 المحركة نعلها ، حتى اني ما كنت لافهم مصدر حماس الرحالين لمصر
 لو لم يدلني الاختبار على اسرار هذا الخماس الخفية .

النبذة الثانية

مآلات الرحالين

لاحظ الناس منذ زمن بعيد ان في الرحالين ميلاً الى تزيين
 ميازين اسفارهم . وادرك اهل الخلق ما في رواياتهم من غلو
 ومبالغة ، فأوردوا مثلاً حذروا به من الركون الى كل ما يزعمون .
 ولكن المبالغة ما برحت قائمة لانها نمت الى اسباب تتجدد ابداً ،
 وكل منا يحمل بذورها ، حتى ان اللوم كثيراً ما يجب ان يوجه
 الى من صدر عنه . فلنفحص رجالة مقيلاً من بلاد بعيدة على مجتمع
 نسوده البطالة والفضول ، تر ان جودة اخباره تلفت النظر اليه

Multum mentitur qui multum vidit
 من يصدق كثيراً
 يكذب كثيراً .

وتجمل مستلطفاً ، فيحبب الناس لانه يفكرهم ولان مزاجه ليست بما
يجفل او يلبو . فلا يعم هو نفسه ان يشعر انه لا يثير الاهتمام إلا
بقدر ما يولد في النفوس تأثيرات جديدة ، ويجدو به حرجه على
الاستزادة من هذا الاهتمام ان يضيف الى تصاويره كثافة تلون .
فيصور الاشياء اكبر مما هي ليحملها اكثر روعة وفعالية . ويشجع
ما يصيبه من نجاح حتى يدخل الخس اليه هو نفسه ، ولا نلبث ان
نقوم بين سامعيه وبينه مناظرة بكل علم فيها من اسباب الدهشة
ما يكافئونه عنه بمظاهر الاعجاب . وهذا العجب الذي رآه في
سفره ينعكس فيه اولاً ، ثم يتدرج الى مستعبد ، فيروونه عنه
بدورهم . والازدهاء الذي يترج في كل شئ ، يصبح احد اسباب
هذا الميل الناري في كل منا الى تصديق الغرائب او روايتها على
الناس . والفكاهة تهنا اكثر من الاقتباس . وهذا ما يحمل القاصحين
في المرتبة الممتازة من تقدير الناس وفي طبقة الكتاب .

ولماسة الرجالين سبب آخر ، فالحيلة ، وقد ابتعدت عن الاشياء
التي استمعت بها ، فتلبس من الحرمان ، لان البعد يذكى الرغائب ،
وشبع النفس بما حولها يجذبها الى ما ليس في متناولها ، حتى ان
الانسان ينأى عن بلده طامعاً لو خرج منه . والرجال الذين
يمرون في مصر مروراً ليسوا من هذه الفئة ، بعكس الذين لبثوا فيها
زماً . ويعرف تجارنا ذلك ، اذ لاحظوا ان رطوباً ممن سئوا
الاقامة في مصر لم يرجعوا الى فرنسا حتى احس كل شئ من حافظتهم ،
فانسمت تذكاراتهم عنها باهيج الالوان . ولم ترض سنن على رحيلهم عنها
حتى لم يبق بالامكان النصور انهم اقاموا فيها يوماً من الايام .
لقد كتب لي احد المقيمين في القاهرة : ما السبب في انك ما

يوحنا نفذ فكر بناء ، وكيف حفظت الصورة الحقيقية عن مقام
الشفاء هذا ، في حين نشعر بان الذين يعودون اليه قد نسوا الى
درجة ندهشنا ؟

اعترف بان تأثير الاسباب الشاملة الشديدة المتعاقبة التي ذكرتها
كان من شأنه ان يفعل في نفسي لو لم ادركه والتحاشاه بحرصي على
الاحتفاظ بتأثيراتي الاولى والمحافظة على الحقيقة . وقد آتني ان انقل
بالبحث الى مواضيع اجدر بالاهتمام ، ولكن القارىء لا يغفر لي ان
اغادر مصر دون ان احذثه عن الخرائب والاعرام . وسأقول فيها
كلمتين .

الفصل التاسع عشر

الخرائب والاعرام

لقد سبق لي وبينت كيف ان صعوبة الاسفار في مصر ، وقد تزايدت في هذه السنوات الاخيرة ، تحول دون البحث عن العاديات ، فعند انعدام الوسائل والاحوال المؤاتية يضطر الباحث الى الاقتناع بما رأى الآخرون او نشرهوا . ولست اواني اذن بحاجة الى تكرار ما ذكره على التوالي بول لوكا ومايه وسيكار وبوكوك وغريفس وفوردن وفيبور وسافاري ، Paul Lucas, Maillet, Siccard, Pocock, Greaves, Norden, Niebuhr et Savary.

بل سأقتصر على بعض النظرات الشاملة .

ان اهرام الجيزة مثل ساطع على ما المعت اليه من صعوبة الملاحظة . فهي وان تكن قائمة على مسافة اربعة فراسخ من القاهرة ، ويورها عدد عديد من الرحالين ، إلا أنهم لم يتفقوا قط على حقيقة مقاييسها . فقد قيس علوها مرات بالطرق الهندسية ، ولكن كل عملية كانت تقضي الى نتيجة مختلفة^١ . ويقضي حل المسألة قياساً رسمياً يقوم به اناس من ذوي المعرفة . وربما يتم هذا الامر

١ يجب ان يضاف الى قائمة القوارق التي ذكرها سافاري قياس حديث يكون بوجه الشكل وجه من وجوه الهرم الكبير ستارة قدم على علو عمودي يبلغ ربما اثنى وثلاثين قدماً .

يجب ان نقول بخطأ جميع القياسات التي تجعل ارتفاع الهرم الكبير مساوياً لقاعدته ، لان مثلثا يتثن الانبطاح . ويبدو لي ان معرفة هذه القاعدة من الاهمية بمكان ، لاني اعتقد انها ذات علاقة باحد القياسات المربعة عند المصريين . فاذا كان في تقطيع الحجارة قياسات معينة متثلة ، جاز لنا ان نستدل على مقاييسهم الاخرى .

كثيراً ما يشكو الناس انهم لا يفهمون اوصاف باطن الهرم . وفي واقع الحال انه من الصعب ان يتبين المرء ذلك في الرسم ما لم يكن خبيراً بعلم القحططات . والسبيل الافضل الى مثل صورته هو اصطناع هرم من الطين بمقاييس مصغرة يكون القيراط فيها مثلاً بمثابة خطوة . فتتجسم امامنا كتلة تكون قاعدتها ثنائي اقدام واربعة فراربط ، وعلوها ثنائي اقدام ونصف القدم . فاذا قطعناها شقين من الاعلى الى الاسفل امكن ان نرسم فيها القناة الاولى المنحدرة بخراف ، والنفق الصاعد على النحو ذان المنتهي الى غرفة القابر . ان باستطاعة نوردن ان يتبسط اكثر في هذه التفاصيل . ولكن هذا العمل يحتاج الى اهل فن متمرس .

ان سلسلة الصخور التي تقوم عليها الاهرام لا ترتفع عن مستوى السهل اكثر من اربعين قدماً او خمسين . وحجرتها كلسي ضارب الى البياض . وحجر الاهرام من نوع شبيه به . وقد حسب الناس في مستهل هذا القرن ، بالاستناد الى ما ذكره هيرودوتس ، ان موادها نقلت من الخارج . بيد ان الرعاليين وقد لاحظوا المشابهة التي ألمعت اليها ، رأوا من الطبيعي ان تكون الاهرام قد بنيت من الحجر نفسه ، فصاحبت رواية هيرودوتس عن نقل الحجارة ضرباً من الخرافة . ويظن ان شكل الصخور

السطح دليل على ان معظم حجارة الاهرام قد استخرج منها ، في حين ان باقية قد استخرج من مناجم مستقرة . على انه اذا كان الرأي القديم بعيداً عن التصديق ، فلما كان الرأي الحديث قائماً على غير الافتراض . واذن ، فلا يصح استناد الحكم في هذا المجال الى القول ، انه لا يصدق ان تكون الحجارة قد نقلت من مقالع بعيدة ، وانه من الخافه ان يكونوا قد نكبوا هذه النفقات الباهظة الخ . . . ففي المسائل المتعلقة بأراء الاقدمين وحكوماتهم نصعب المقابلة بين الاحتمالات . ومنها بدا الحادث الذي نحن بصدده بعيداً عن المعقول قائماً اذا لاحظنا ان المؤرخ الذي اوردته قد استقى معلوماته من الوثائق الاصلية ، وانه شديد الدقة في جميع الحوادث التي اوردتها وأمكننا التحقق من صحتها ، وان الصخور اللبينة لا ترتفع في اي من الامكنة الارتفاع الذي يفترضونه ، واذا تذكرنا المقالع العظيمة الممتدة من سوادي الى منقلاط على مسافة خمسة وعشرين فرسخاً ، واذا لاحظنا ان حجارها وهي من النوع نفسه لم نستعمل لأي شيء آخر ، حملنا كل ذلك على التوقف عن البت في الامر ريثما يظهر فيه ما يحلو البقين .

كذلك سئم بعض الكتاب من الرأي القائل ان الاهرام كانت قبوراً . وهم يرون انها كانت هياكل او مراصد ، لانه من الغرابة في نظرهم ان تبذل الامة الرشيدة مثل هذا الجهد لاشادة مدفن رئيسها ، او ان يكون الملك قد ارهق امته بالحجارة ليحس رفائلاً من خمس اقدام في جبل من حجارة . بيد اني لست اكرر القول انهم يخطئون باحكامهم على الاقدمين اذا ما استندوها الى آرائنا وعاداتنا . فقد تبدو الدوافع التي حملتهم على العمل مستغربة

في نظرها وفي نظر العقل نفسه ، ولكن ذلك لا يخفف من قوتها
ومن فعاليتها . وناسب اليهم التناقض اذ يفترض فيهم حكمة تنطبق
على مبادئنا . ثم اننا نفرط في تعليل امورهم بحسب افكارنا نحن
لا بحسب افكارهم . وانني ارى بالاعتداد على هذه ونلك ان
الاهرام لم تكن يوماً من الالام مرآد فلكية^١ ، لان جبل المنظم
اكثر منها ارتفاعاً ، فضلاً عن انه يحجبها . والرصد المرتفع لا فائدة
منه في مصر ، لان الارض كثيرة التسطبيع والابخرة تحجب النجوم
عدة درجات فوق الافق ، ولان الصعود على معظم الاهرام امر
متعذر مستحيل ، واخيراً لانعدام الفائدة من جمع احد عشر مرصداً
مقارباً تقارب الاهرام الاحد عشر التي يطل عليها الواشي من
الجيزة . ويصح القول اذن ان افلاطون الذي ذهب هذا المذهب لم
يعن إلا حالات عارضة ، او ان له في هذا المجال وزن الحطيب
اليلبع ليس إلا . واذا ما وازن المرء بين شهادات الاقدمين
والاحوال المكانية ، وثقه الى وجود ثلاثين او اربعين أثراً فاقه
على مقربة من الاهرام بشكل هرمي ، وعرف ان هذا المكث
لجذب البعيد عن مواطن الخصب تنوافر فيه الشروط اللازمة
عند المصريين المدافن ، وان جبانات منفيس كانت تقع في سهل
الموميات بالقرب من هذا المكان ، نيقن ان الاهرام ان هي إلا
مقابر . ومنى عرف ان الناس في منفيس كانوا الى ما قبل عهد

١ يستندون هذا الزعم الى كون الاهرام مصوبة الى خرافق السماء الاربعة .
على ان الاقدمين كثيراً ما شادوا الرموس على النحو نفسه الذي يلقى مع ما كانوا
يروونه من خلافة بين فكرة البحث وعلم الفلك .

موسى يعتقدون برجوع الارواح الى اجسامها بعد انقضاء سنة
آلاف سنة ، قيل عليه ان يصدق ان الطغاة الذين سادوا هذا
الشعب النوسوس قد صرفوا تلك العناية لجعل رفائهم في مقبر حصين
يمنع الجنات . وهذا هو السبب الذي جعلهم يحرصون على
تخطيط الاجساد والمحافظة على اشكالها بواسطة الاطباء والعصائب
والاضرحه . والناورس الذي تراه في الهرم الكبير يدل على ان
غرفة الموتى الذي هو فيها ما صلحت يوماً إلا لايواء ميت^١ .
وشاء البعض ان يكون في النفق العامودي الذي ينزل الى ما
تحت الهرم سر من الاسرار ، وقد نسي ان من عادة الاقدمين
جميعهم ان يجعلوا الى داخل اللحد مسالك فكتهم - في الابام
التي تعينها الديانة - من الاحتفالات امام الموتى بارافسة السوائل
وتقدمة الطعام وغير ذلك . فيجدر بنا والحالة هذه ان نرجح
الرأي القديم القائل بان الاهرام مدافن اموات . وثبت جميع
الاحوال ان الاهرام قد اعدت لهذا الغرض . وثبت ذلك ايضاً
احل الكلمة التي حملتها عن طريق الاشتقاق العلمي ، فجاء مفادها
بالحرف الواحد : غرفة الميت .

لم يكن الهرم الكبير الوحيد الذي فتحه يد الناس . فثمة هرم آخر
في صحارة بنطوي في داخله على التقاسيم نفسها . وقد حاول احد
البكوات منذ بضع سنوات ان يفتح هرمًا ثالثاً في الجزيرة
ليستخرج منه كنزاً موهوماً . فعاجله في الناحية التي فتح منها الهرم
الكبير وعلى الارتفاع نفسه . وبعد ان هدم اربعمائة حجر على غير

١ قياسها ثلاث عشرة قدماً طولاً ، واحد عشر قدماً عرضاً ، ومثل ذلك علواً .

طائل اقلع عن فكره الجشعة ، ولكنه تكبد مشقات ونفقات همة .
ليس من يعرف العهد الذي بني فيه معظم الاهرام . ولكن تاريخ
بناء الهرم الكبير متفق عليه ولا نزاع في صدقه .

يقول هيرودوتس انه شيد في عهد شيوبس^١ وهو الثاني بعد
الملك بروتيا الذي عاصر حرب طروادة . ويستدل من ذلك ان
الهرم بني بعد انقضاء ١٤٠ او ١٦٠ سنة على بناء هيكل سليمان اي
سنة ٢٦٠ قبل المسيح .

ان ايدي الزمن والبشر التي تداوت على تخريب الآثار القديمة
لم تستطع حتى الآن ان تنال من الاهرام مثلاً . فان رسوم
بنيانها وضخامة هيكلها قد وقياها الخدات ، وهما كفيلا ان
يتخطيا بها ابد الدهور . وقد تحدث الرحالون عنها بجماعة لا مبالغة
فيها ولا مغالاة . ان هذه الجبال المصطنعة تبدو للناظر على مسافة
عشرة فراسخ ، ويلوح لك انها تبعد عنك كلها الفتوت منها .
وترى ، اذ انت على مسافة فرسخ منها ، انها تشارفك حتى يحيط
اليك انك أصبحت عند اقدامها . ثم تصل اليها . وهنا لا ارى اي
وصف يفي بمختلف المشاعر التي تتولاك ، ففي ارتفاع ذراها وسرعة
منحدرها واتساع دائرتها وفخامة قاعدتها ، وفي صورة العصور
السائلة التي تذكرها ، وفي التأمل بالمشقات التي اقتضاها بنيانها ،
وبذلك الصخور الهائلة التي هي صنع الرجل الصغير الحقير الزاحف
عند اقدامها ، ما يترك القلب والعقل دهشة ورجفة وانضاعاً
واعجاباً وإجلالاً . ولكن يجب الافرار ان اندفاع النفس هذا

١ يقول ان هذا الملك حكم خمسين سنة صرف منها عشرين سنة في بناء الهرم ،
وقد سخر تلك سكان مصر لتقطيع الحجارة ونقلها وبنائها .

بعقبه شعور آخر . فإلك بعد أن تستعظم فطرة الإنسان لا ثابت
 أن تتأمل في وجه استعماله ، وتلقي نظره أسف على حاله .
 ويؤثرك أن تكون أمة برمتها تحملك المشاق عشرين سنة لاشادة
 ضريح لا طائل تحته . وشيورك المظالم والمقارم التي تنبت عمن
 تسخير الناس لنقل حبله المقادير من المواد ومعالجتها تقطيعاً
 وتنضيداً . وتسخط على عديان الطغاة الذين امرؤا بتلك الصنائع
 البربرية . وهذا الشعور يعاودك مراراً فيها أنت تطوف بين
 عادات مصر . فهذه الأناوية وهذه المياكل وهذه الأعرام العظيمة
 الضخامة لا تدل على عبقرية شعب غني يحب للفنون بقدار ما هي
 تدل على عبودية أمة تكاد ما تكابد من عوى سيادتها . وإنما
 تغفر عندئذ للجشع الذي ينتهك قبورهم ويحجب آمالهم ، ويضعف
 شفافنا على تلك الآخرة . وفيها يتألم رجل الفن إذ يرى أن أعمدة
 القصور تحز فيها المناشير لتصبح رحي المطاحن ، لا يزال الفيلسوف
 - وقد زال التأثر الذي يتولاه لزوال كل شيء جميل - أن يبتسم
 لعذل الاقدار الخفي الذي يبعد إلى الشعب ما تكلف من أجله
 المشقات الكبار ، فيخفف كبرياء هذا البلذخ النافس لينسجه في
 أحقر حاجاته .

أن مصلحة الشعب هي التي نلي علينا ولاشك - أكثر مما قلبه
 مصلحة الآثار - النعي بأن يتولى زمام مصر غير حكامها اليوم .
 ولكننا ولئن اقتصرنا على ناجة الآثار فحسب ، فالانقلاب أمر لازم
 الحدوث . فلو كانت تلك مصر أمة تقدر الفنون الجميلة لتكشفت
 جاهلية هذه البلاد عن موارد غزيرة يضمن بها أي بلد آخر . وقد
 يساعد الحظ أيضاً على اكتشاف الكتب على ما حدث في دمياط

منذ ثلاث سنوات إذ غير الباحثون في الأرض على مئة مؤلف
مكتوبة بلغة غير معروفة أحرقوا جميعها لحال بناء على قرار
شيخ القاهرة . لم يبق في الدار اليوم أثره نستحق النظر لأن
السكان قد هدموا كل شيء ، إما بسبب الحاجة أو بداعي
الوسواس . ولكنها ما تزال سليمة في الصعيد في محاذة البادية
حيث يقل تردد الناس وسكانهم . ومن المؤمل أن تكون كثيرة
في الواحات ، هذه الجزر التي تفصلها عن المعمور بحار من الرمال
لم يخط إليها أي مسافر فيما وراء الاسكندرية . إن تلك البقاع
التي كان لما فيها سلف من الدهر حواضرها وهياكلها لم تصل إليها
يد البراة بالتخريب . ويجب أن تكون قد احتفظت بصنائعها
وابنيتها لأن أهلها قد بادوا أو القرضوا . وتلك الصنائع الدينية
في الرمال باقية وكأنها أمانة للأجيال المقبلة . وإلى عهد الزمان
الذي لا نحسبه بعيداً نحمل نباتنا وآمالنا . فيصبح «الامكان» عندئذ
إن نذهب أرض النيل والصحاري الليبية في كل نواحيها ، وإن
يفتح الحرم الصغير ويهدم رأساً على عقب بتكاليف لا اعتقد أنها
تجاوز الخمسين ألف ليرة . وإلى هذا العهد أيضاً يجب التوثيق مثل
الرموز المبروغرافية وإن كنت اعتقد أن حلها اليوم ليس بالامر
المتعذر .

حسبنا الحوض في مجال الحدس والأطمان ، فقد آن لنا أن
ننتقل بالبحث إلى ولاية لاقل عن مصر جدارة بالاهتمام من حيث
عهدنا القديم والحديث .

القسم الثالث

سوريا الطبيعية

الفصل العشرون

الجغرافيا والطبيعات

إذا خرجت من مصر وسلكت البرزخ الفاصل بين أفريقيا وآسيا ، متبعاً شاطئ المتوسط ، انتهى بك المطاف الى ولاية تركية ثانية نعرف عندنا باسم سوريا . وهذا الاسم ، شأن اسماء اخرى غيره ، قد نقله الينا الاغريق محرفاً من كلمة آشور ، بعد ان اخضع آشور بنينوى هذه المقاطعة لسلطانهم . ولم يكن لسوريا عهدئذ اسمها اليوم ، لانها لم تكن مشتملة على فينيقيا وفلسطين . ويجهل العرب تسميتها الاغريقية ويطلقون عليها اسم بر الشام ، ومعناه بلاد الشمال . وهم يعنون بذلك البقعة الواقعة بين خطين يتجه احدهما من الاسكندرون الى الفرات ، والثاني من غزة تحده صحراء جزيرة العرب شرقاً والبحر المتوسط غرباً .

التبذة الاولى

منظر سوريا

إذا القيت نظرة على خارطة سوريا تبين لك ان هذه البلاد عبارة عن سلسلة جبال تشعب بيناً وتجالاً الى كل ناحية . وهذا ما تبينه من نظرك الى الارض نفسها . فانك سواء اتيتها من البحر او قابلتها من الصحاري الشاسعة ، فكشفت لك ، عن بعد حديق آفاق ، يحف بها سور غائم يمتد من الشمال الى الجنوب على مدى البصر . وكلما اقتربت منها بدت لك قسم مترامية تراها طوراً منعزلة ، ودارة متجمعة في سلاسل تنهي عند خط رئيسي يعاو كل ما حوله . ويسير هذا الخط دون ما انقطاع من الشمال حتى جزيرة العرب . وهو يداني البحر بين الاسكندرون والعاصي ، ثم ينفرج بمرور هذا النهر ، ولا يلبث ان يتبع مسيره جنوباً ، بعد ان ينحرف عن الشاطئ قليلاً ، ويمتد فيما متحدة الحلقات حتى منابع نهر الاردن حيث يقسم شعبتين تكتنفان هذا النهر وبحيراته الثلاث . وفي طول مسير هذا الخط تنفرع منه شعب عديدة ، وكأنها تنفرع من جذع رئيسي . ويذهب بعضها متلاشياً في الصحراء حيث ينتهي على شكل اخواض كحوض دمشق وحوران وغيرها . ويتراس بعضها صوب البحر في منحدرات كمنحدر الكرمل والناقورة والرأس الأبيض ومجمل البقعة الممتدة من بيروت حتى طرابلس ، وهي في الغالب لطيفة الانحدار عند سهول انطاكية وطرابلس وصور وعكا وغيرها .

النبتة الثانية

الجبال

تختلف الجبال شكلاً ومنظراً كلما اختلفت مستوى ومكاناً .
 فين الاسكندريون والعاصي تكسوها اشجار الصنوبر والشرين
 والسنديان والآس والغار والدرر والريحان ، وتضفي عليها بهجة
 تبهط لها اسارى المسافرين المكتئب ينظر فيوس العارية . وفيه على
 بعض السفوح اكواخ تحيط بها شجرات التين والكرمة . وهذا
 المنظر يلفت من وطأة تعبته في طريق وعرة المسالك تصعد به
 وتنزل باستمرار من اسفل الوادي الى اعلى الجبل ، ومن اعلى
 الجبل الى اسفل الوادي . اما فروع الجبال السفلى التي تنحدر نحو
 شمال حلب فهي على العكس حضور عارية لا خضرة فيها ولا
 تربة ، والتلال القائمة على البحر في جنوبي انطاكية مكسوة
 بالزيتون والتبغ والكروم^١ . ولكن السفوح والقمم من ناحية
 الصحراء عبارة عن سلسلة من الصخور البيضاء . والجبال حوب
 لبنان مرتفعة ، ولكنها وافرة التربة في اماكن عديدة ، وهي صالح
 للزراع الكثيرة ما تناوبت عليه اليد العاملة . وهناك بين ركام الحمى
 تقوم بقايا من الارز لم يبق لها الا مسحة من القمامة^٢ . واكثر

١ يستتر جن فيوس الذي يتألف انطاكية كطود منيف . ولكن بين Plin
 تجاوز حد المقالات فيقول ان قمم تشرف على البحر والاميل في وقت معاً .

٢ لم يبق منها الا اربع ارضات او خمس تشرف النظر .

ما تراه الصنوبر والسندبان والنوت والعليق والتين والصكروم .
والجبال ، فيها جاوز بلاد الدروز ، تنخفض وتصبح أكثر مؤانسة
للحرارة ، ثم تعاد في الجنوب الشرقي من الكرميل وتكنسي
بأحراش لا بأس بجبال مناظرها ، ثم تعري في اتجاه اليهودية
وتضييق حول أوديتها وتصبح وعرة حتى تنتهي إلى البحر
الميت في أركام من الصخور الموحشة المملأ بالكهوف والمهاوي .
وفي غربي الأردن والبحيرة ترتفع سلسلة أخرى من الجبال أكثر
وعرة وارتفاعاً ، ومرآها كتيب حبيبا تلج في الصحراء عند نهاية
الأرض الآهلة .

بذلك النظر أن لبنان أعلى تلك القن . فلا تكاد تغادر لارنكا
في قبرص حتى تشاهد ، على بعد أربعين فرسخاً ، منه الغائقة في الأفق .
وبذلك على ذلك مجرى الأنهر أيضاً . فنهير العاصي المنحدر من
جبال دمشق إلى مسا وراء انطاكية ، ونهر الفاصية الشج من
شماله بعليك صوب صور ، ونهر الأردن الذي يصب في الجنوب —
كلها تثبت أن لبنان يشارف مسا حوله . وأكثر القوي تنوعاً بعد
لبنان جبل عكار . فالك تراه حالماً تتوكل المعرة ، فيبدو كصومعة
عظيمة ، لا تغيب عن نظرك مسافة يومين .

لم يتيسر لأحد حتى اليوم أن يقيس ارتفاع هذه الجبال
بواسطة ميزان الهواء ، ولكن هناك مقياساً طبيعياً يحوز الاعتقاد
عليه ، أعني به الثلج . فهو يكو جميع القمم شتاء من

عن جري

١ - يطلق على هذه الأرض اسم مغاور جحشفتي التي حالما أوى إليها قطع
الطرق . ومن هذه المغاور ما يسع المدا وخمسة رجل .

الاسكندريون حتى القدس . ولا يحل شهر آذار حتى يذوب الا
في لبنان . فهو يبقى في منعرجاته العالية بأمن ومن رياح البحر
ومن فعل الشمس . وقد شاهدته في اواخر شهر آب
١٧٨٤ فيما كنت اخشى من الحر في وادي بعلبك . ولما كان
من المعروف ان التلج يتطاب في هذه الدرجة من خط الاستواء
ارتفاعاً يراوح بين الف وحمائة خطوة والف وسائة ، تبين لنا
ان لبنان يبلغ هذا الارتفاع ، وانه اذن ادنى من جبال الالب
وحق من جبال البرانس .

ان لبنان المشتمل على سلسلة كسروان وبلاء الدروز يظهر
بظهر الجبال العظيمة . ففي كل خطوة ترى تلك المشاهد التي تبسط
فيها الطبيعة الحسن والعظمة جيناً ، والغرابية جيناً آخر ، والتنوع
ابداً . فاذا وصلت بحراً ونزلت الى الباقية ، شخص امامك هذا
السور الشاهق ، وكأنه اطبق على الارض ، وذلك الكتل الجبارة
المنطقة في الوفيغ ، وفرضت عليك الدفشة والاجلال . فاذا انتقل
المراقب الى تلك القمم التي كانت تحجب نظره ، تكشف له فلولات
شاسعة تصبح مثاراً آخر لاعجابه . ولكنه لكي يستكمل متعته
يجلّال هذه المناظر يجب ان يستوي على ذرى لبنان نفسه او على
صنبن . فهناك عند الآفاق في كل النواحي الى ما لا حد له .
واذا كان الجو صافياً نعت الابصار في الصحراء المتاخمة خليج
العجم من جهة وفي البحر الغاسل شواطئ اوروبا من جهة
اخرى ، فتشعر النفس وكأنها تخضع للعالم . وتترامى النواظر
على سلسلة الجبال المتعاقبة ، وتحمل الفكر بلجة بصر من انطاكية
حتى القدس ، ثم تقترب الى محيطها القريب فتغوص في عمق

الشاطئ، البعيد، وأخيراً ينحصر الانتباه في أشياء مختلفة، فتتخصص
 الصخور والاحجار والسواقي والتلال والقرى والمدن، فتتولد لك
 لذة خفية في أن ترى هذه الأشياء متناهية في الصغر بعد أن
 رأيته متناهية في الكبر. وتنظر بالتباعد إلى الوادي المغور
 بالسحب العاصفة، وتبسم إذ تسمع تحت خطاك هذا الرعد الذي
 طالما صدر فوق رأسك، وتحب أن ترى تحت قدميك هذه
 الروابي والشاخات وقد أصبحت في انخفاضها عنك شديدة باللام
 الحول أو إدراج المسارح. ويروى لك أن ذكوت قد أصبحت
 أعلى نقطة بين هذا التعدد من الأشياء فتتأمل إليها بالتباعد الكبر.
 عندما يجتاز المسافر تلك الجبال يرتفع بآدي. ذي بدء من
 وعودة السبل وشدة الجدار المنحرف وعشق المياوي. وتلك لا
 يلبث أن يطعن إلى راحة البغال، فينهل بها يريه من مختلف
 المشاهد مرثجاً. وهنا كما في جبال الالب يسير إماماً كاملة حتى يصل
 إلى مكان هو نصب غيبه منذ ساعة انطلاقه. فيدور ويهبط وينسلق.
 وتبدل حوله المراتب باستمرار كأن قوة سحرية تغير في كل
 خطوة ثلاثين المناظر. فهي تارة قرى على أكمة الانزلاق على
 منحدرات شاهوة ومرتبعة على نظام عجيب البك معه أن السطوح
 في صف من البيوت هي طريق للصف الذي يشاؤها، وتارة دير
 على قمة منفردة، كثير ما يروحنا في وادي النمر. وهنا صخرة
 ثقبها النبار فأصبحت قنطرة طبيعية، على ما ترى في نهر اللين.

١. أن نهر اللين، ويسمى أيضاً نهر بروت، يصب في نهر الصليب. أن قياس
 القنطرة المذكورة هو مائة وستون قدماً طولاً على خمسين وثلاثين قدماً عرضاً ومسا
 بقارب التي قدم ارتفاعاً فوق الساقية.

وهناك صخرة منحوتة شائعة كأنها السور العظيم . وحسبنا ما
 نشاهد على التلال دكاً من الطيارة غرقها المياه وغرلتها ، فاصبحت
 وكأنها الخربة ساهم الفن في تزيينها . وتروى في أماكن عديدة أن
 المياه لما تمر في طبقة متحنية قد احفرت الأرض وكونت الممر
 كما حدث في نهر الكلاب على مقربة من عينطورا . وقد فتحت
 ما في أماكن أخرى خليجاناً تحت أرضية . وهذا ما يشاهد في
 ماو الباس الروم وفي مار يوحنا^١ . وقد حدث في بعض
 الأحيان أن هذه العوارض الطبيعية قد كانت سبباً في نزول
 الفيض إذ تنحدر الأرض وتنحدر الصخور على المنازل المجاورة
 ونقال أهلها على ما حدث منذ عشرين سنة لقرب كانت تقوم
 بالقرب من ماو جرجس وزالت معالمها تماماً . ومن عهد قريب
 حدث في جوار المكان نفسه أن زحلت رهوة فيها التوت
 والكروم وانطلقت كسفينة التومل في البحر ، حتى استقرت قطعة
 كاملة في أسفل الوادي . فنتجت عن ذلك قضية حقوقية غريبة
 بين صاحبي القطعتين وضعت إلى محكمة الأمير يوسف ، ف قضى
 بالعروض عن الحائز . وقد يلوح لك أن هذه الحوادث تبعث

١ أن هذه الجداول تحت الأرض كثيرة في سوريا ، فمنها ما هو عند منابع الناصبي
 والأردن ، والذي نراه قرب دير مار يوحنا ذو فوهة تسمى البوابة ، وهي الفرة عرفت
 عشر قدام تقريباً وأفعه في منخفض على شكل قمع نزل في العمق حتى غرس عشرة قدماً
 وفي جانب أسفلها فوهة كثيرة العمق . وقد ردمها الأتراك منذ سنوات لأن جنة القيت
 فيها الحفلة الخابية وجاء الشتاء واستجمعت المياه فكونت بحيرة عميقة ، ثم شرب بين الخصى
 فجرات طينها الرابطة ونهاه وما لبثت المياه أن تفجرت بدوي شيد يقصد الرعد ولرأت
 تمل منقطع الهواء إلى مسافة مئتي متر وانفتحت ما في مفرقها من الأشجار .

على السرب من سكنى الجبال ، ولكنها في أعلى حوادث بركة
 فضلا عن ان الإقامة في الجبال أفضل من الاستماع في الخصب
 السهل ، لأن الماء فيها بأمن من ارتفاعات التراك . وهذا الأمن
 الذي يعده الأهلوت من اتقن الغيبات جعلهم يبدلون من
 الكد والعمل في صخورهم ما يحاول عبثاً ان يجده عند غيرهم .
 فقد اكبروا هذه الأرض الصخرية على الطيب بفضل ما أبدوه
 من فن وعناية . فإذا شاوروا الأفاقة من المياه المستجروها على
 السفوح في الف منعرج ، أو أقاموا دونها السرد في الأودية .
 وإذا أوشكت الأثرة على الانتهاز سئدوها بالجدر والاسوار حتى
 ان الجبال تبدو لك وكأنها ادراج مسرح متواكبة ، تنظم فيها
 اشجار النوت والكرومة صنفاً قد تبلغ من السفل الوادي الى قمة
 الزبوة مئة أو مئة وعشرين صفاً .

البذة الثالثة

ضبعة الجبال

إذا بحثت في كتابان هذه الجبال وجدت انهما من الصخور
 الكلسية الصلبة الضاربة الى البياض ، وهي وقالة كالصفيح .
 وهذا النوع من الحجر هو نفسه في مجمل أنحاء سوريا ، فهو غرة
 اجرد يشبه منظره منظر الصخور الفاتكة على شواطئ بروفندسيا ،
 على ما ترى في السلسلة المحاذية للطريق الموصل بين انطاكية
 وحلب ، تلك السلسلة التي تخضع جدران هذه المدينة عند مجراه
 الأعلى .

وتحفة أرمناز الواقعة بين سرخس وفقطين مضيق يشبه تمام

المشابهة المضائق التي تمر بها بين مرسيليا وطولون . فإذا سرت
من حلب الى حماه رأيت عروق الصخر نفسه ممتدة في السهل ،
فما توى على الجبال القائمة عن يمينه وكاماً منه بين أخربة عظيمة
من المدائن والقصور . وهذا هو نوع الصخر الذي تتوكل منه
انضاد لبنان وانتبدنان وجبل الدروز والجليل والكرميل ، وينتد
حتى جنوبي البحر الميت . قال سكان في جميع هذه الامكنة
يشدون منه الحثاني ويستخرجون الكلس . ولم اؤا او اسمع قط
ان تلك الحجارة تحتوي على اصداف منجمية في اعالي لبنان .
بيد ان بين البترون وجبيل مقلعاً من الصفائح تحمل شفراتها
رسوم النباتات والاسماك والاصداف والعنصل البحري بنوع
خاص . ومسيل عسقلان في فلسطين يجري على حجر خشن مالح
ذي مسام ، يحتوي على اصداف من المتوسط عثر بوكوك على
امثالها في الصخور المحيطة بالبحر الميت .

ولا يكثر من المعادن فيها الا الحديد ، فجبال كسروان
والدروز مملأى به . ويستخرج السكك في الصيف . الا انه
يترج بالتراب . ويبدو ان في الجليل مثل تلك المعادن ، لانت
موسى قد وجد فيه منذ ثلاثة آلاف سنة بعض حجارة من
حديد . وينجذب الناس حديثاً مبهماً عن منجم النحاس قرب
حلب . وقد ذكر لي الدروز انه على اثر انهار ذلك الجبل
الذي المعب اليه قد عثروا على معدن ظهر انه من الفضة
والرصاص ، ولكن الناس سرعان ما اخفوا معالم هذا الاكتشاف
الذي كان من شأنه ان يحول اليهم نظر الاتراك .

النبذة الرابعة

البراكين والزلازل

ان جنوبي سوريا - حوض الاردن - بقعة بركانية . فبتاييع
بحر لوط الكبريتية ، والحجارة الاسفنجية المنقاة على شواطئها ،
وحمامات طبريا الحارة انما تدل على ان هذا الوادي كان مقراً لنيران
لم تطفأ حتى اليوم . وكثيراً ما تنصاعد من البحيرة السفة من
الدخان ، وتتفزع الارض على جوانبها . ولو لم تكن الافتراضات
في مثل هذا الموضوع عرضة للايهام لصح الظن ان جميع هذا
الوادي قد تكون من الخصاصف الارض التي كانت تصب الاردن
في المتوسط . ومن الثابت على الاقل ان المـسـدـن الحـسـي الذي
دمرها النار قد خربت بفعل بركان ثائر . يقول استرابون
صراحة : « ان التقليد السائر بين السكان (اي اليهود) يشير الى
ان هذا الوادي كانت تقوم فيه ثلاث عشرة مدينة زاهرة تحرقها
نيران بركان . » يعزز هذه الرواية ما يراه المسافر من انقاض
على شاطئ البحيرة الغربي . ان ثورة البراكين قد سبخت منذ
امد بعيد . بيد ان الزلازل ما برحت تميز هذه المقاطعة من
وقت الى آخر . والشواطئ معرضة لها بوجه عام على ما يدل
التاريخ . والامثلة جاءت متعددة في انطاكية واللاذقية وطرابلس
وبيروت وحيدا وصور وغيرها . وحدث في السنة ١٧٥٩ زلزال
عظيم انزل الخراب والدمار في البلاد . ويؤمنون ان وادي
بعلبك مني بخسارة عشرين الف نسمة . ونعاقبت الغزات خلال

ثلاثة أشهر فقط أهل لبنان واضطربوا وهجروا المنازل مستعيضين عنها بخيام نصبوها في الهواء الطلق . وفي اليوم الرابع عشر من شهر كانون الأول ١٧٨٣ ، فيها صككت في حلب ، حصل زلزال ، بلغ من الشدة مبلغاً عظيماً ، حتى فرغ الجرس المعلق فوق بيت القنصل الفرنسي . ويلاحظون في سوريا ان الزلازل اكثر ما تحصل في الشتاء على الرامطار الحريف . وهذه الملاحظة التي تؤيد ما عاينه الدكتور Shaw في بلاد المغرب تدل على ان فعل المياه في الارض الجافة يساهم في حركات الارتجاج هذه .

النبذة الخامسة

الجراد

نشترك سوريا ومصر والعجم ومعظم آسيا الجنوبية بأفة لا تقل هولاً عن الزلازل ، غلبت بها ارجال الجراد التي تحدث عنها الرجالون . ان مقادير هذه الحشرات لا يصدق امرها الا من شاهدها بنفسه عياناً . فهي تغطي الارض على مدى عدة فراسخ . ويسمع لها ، من بعيد اذ ترمّ العشب والشجر ، ضيقاً يذكرك بجيش يعمل النهب في الحقل . فخير لقوم مجابهة النور من مكابدة هذه الحيوانات الضامة التي تزحف وكأن النار في اعقابها . وحينئذ نحل كتابها نهي الحضرة من الحقول كسائر يملوي . فتعري الاشجار والاغراس من اوراقها ، وتصبح اعصاناً جرداء وجذوعاً . وبلمحة بصر تزول مشاهد الربيع الغنية لبعثها منظر الشتاء المسبب . وعندما تنطلق هذه الازجال طائفة لكي تتجاوز عقبة من العقبات او تسرع في اجتياز مكان جديب ، يمكن القول حرفياً ان السماء

فقد اظلمت . ومن حسن الطالع ان هذه الآفة لا يتكرر لزوما
كثيراً ، اذ ليس من نادرة مثلها في احلال المجاعة الاكيدة وما
يلحقها من اوبئة . ويلاحظ سكان سوريا بحق ان الجراد لا يقبل
على البلاد الا بعد فصول الشتاء الكثيرة الاغتيال . وانه يقبل دائماً
من بادية جزيرة العرب . وتفسر لنا هذه الملاحظة كيف يبقى
الجراد المعتدل على بيوض هذه الحشرات فتتور بسرعة ، وكيف
تضجحل الاعشاب في تلك السهول الشاسعة ، فترحل عنها ارجال
الجراد الهائلة .

عندما يظهر الجراد على حدود البلاد المزروعة يجتهد السكان
بتحويده عنها بدفعات كثيفة من الدخان . فاذا ما اعوزهم الحشيش
اليابس والخبث ، احفرروا الحنادق ودفنوا فيها عدداً عديداً من
الجراد . بيد ان اجدى العوامل ضد هذه الحشرات انما هو الريح
الجنوبية من جهة والطارئ المسمى بالسرمر من جهة ثانية . فهذا
الطارئ الشبيه بالصفايرة تتجمع منه اسراب كالزواجر وتلاحق الجراد
فتلتهم منه فسماً وتقتل ما تستطيع قتله . والفلاحون يضمنون
بهذا الطارئ فلا يسبحون قط بالخطباءه . اما الريح الجنوبية
والجنوبية الشرقية فانها تطرد غيوم الجراد بشدة صوب البحر
المتوسط ، فتفرق منه مقادير هائلة . فاذا ما دفعت هباتها على
الشاطئ ، انثت وافسدت الهواء بضعة ايام على مسافة بعيدة .

ومن المعلوم ان طبيعة الارض في هذه الاحقاع السورية المترامية
الاطراف تختلف باختلاف الامكنة : فالارض الجبلية وعرة ، في حين
ان تربة السهول مريضة وافرة الحطب . وهي بين حطب وانطاكية
كلاجرة المسجون الدقيق ، او كأنها لبغ اسبانيا . على ان مياه

العاصي التي تجتاز هذه المنطقة مصبوغة بلون ابيض بسبب الاتربة
البيضاء التي تنقلها من جوار منابها . ونكاد تكون سائر الارض
في غير هذه الامكنة سمراء تشبه مزيجاً من التراب والحديد .
ويندر وجود الحصى في سهول حوران وغزة وبعبك . فاذا ما حل
فصل الشتاء توصلت الارض حتى اغوارها ، فاذا رجع الصيف
نشفت صدوعاً واسعة عميقة .

النبذة السادسة

الأنهر والبحيرات

لقد عودتنا المغالاة في التصوّر ، وإذا شئت ، فالصور المضخّمة التي رسم بها التاريخ والروايات الأشياء السائفة ، أن نتكلم عن مياه سوريا بالجلال يفنّ الحيلة . فليد لنا أن نقول نهر الأردن ونهر العاصي ونهر أدونيس . بيد أننا لو شئنا أن نحفظ الأسماء معناها المعتاد لما وجدنا في هذه البلاد غير الجدول ، فإن العاصي والأردن ، وهما أعظم مجاري تلك النواحي ، لا يتجاوز سعة مصبها سنين قديماً^١ . وما سواهما من الميايل لا يستحق الذكر ، لأنها إذا تضخمت قليلاً في الشتاء بفعل ذوبان الثلوج ، فانت لا تقيس أمكنتها في سائر أيام السنة لولا الحصص المستديرة والكتل الصخرية التي تملأ مجاريها . وأن هي إلا سواقي ذات شلالات تتبع من جبال هي على قيد خطى قليلة من البحر بحيث لا يتيسر لامواها الوقت للاستجماع في أودية طويلة لتتحول فيها إلى أنهر . وتشخص هذه الجبال نفسها حوامل دون تضايف المياه في أماكن عديدة فتتكوّن البحيرات ، ومنها بحيرات البطاكية وحلب ودمشق والحولة وطبرية والبحيرة المسماة بالبحر الميت أو البحيرة الأسفلتية . ومياه تلك البحيرات ، باستثناء الأخيرة ، مياه عذبة تحتوي انبعاثاً مختلف اجناسها عما نعرفه^٢ .

١ صحیح ان الأردن عمیق ، ولولا ما يفيض العاصي من المواجه المديدة ، لقي جافاً طوال الصيف .

٢ يكثّر في بحيرة البطاكية الأتكليل وضرب من السمك الآخر رديء .

وتنفرد البحيرة الاسفانية في انها لا تحتوي اى هي او
 ثابت . فلا ترى خضرة على ضفافها او سحابة في مياهها . وروموا
 خطأ ان جوعها فاسد حتى ان الطيور التي تجتازها معرضة للهلاك .
 فلا يندر ان ترى السنونو ترف وجه مائها لتأخذ منه القنطرات
 اللازمة لبناء أعشاشها . اما السبب الحقيقي في انعدام الحيوان
 والنبات فهو تلك الملوحة الحادة في مياهها ، وهي أشد حرافة من
 مياه البحر بقدر عظيم . والارض المحيطة بها مشربة بتلك الملوحة
 ايضاً ، وفتت على الأغراس . والهواء مثقل منها بالبحر فضلاً عما
 يتلقاه من بخرة الكبريت والحر مما يجعله غير مؤات لنمو النبات .
 وهذا ما يجعل المنظر قوياً حول البحيرة ، والمياه صافية وغير
 قابلة للفساد بسبب ملوحتها . ومنبت هذا الملح لا ليس فيه ولا
 غموض ، لان في الشاطئ الجنوبي الغربي مناجم من الملح المعدني
 حلت منه بعض القطع . وموقع تلك المناجم في سفح الجبال التي
 تشارف هذه الجهة . ويستخرجها عرب تلك النواحي منذ أقدم
 العصور . كذلك سكان القدس . وعلى تلك الضفاف ايضاً قطع
 من الفير والكبريت يشجر بها العربان . وفيه ينابيع حارة وصدوع
 عميقة تدلك عليها عن بعد اعرام صغيرة بنيت على جنباتها . وتكثر
 هناك على نوع من الحجر تبيض منه بالاضحك رائحة كريهة ،
 وهو يلهب كالقير ويصقل كالرخام الابيض ، ويسعمل لتبليط
 الساحات . وانك تجد اخيراً كتلاً مشوكة يتراعى لك انها قاذيل
 محطومة ، وبحسب الحجاج الجهة الموسوسون انها اثر من حادثة

الجنس ، وبحيرة طبرية اخرى منها بالاسك والرامطين بنوع خاص .

امرأة لوط ، في حين انه لم يقل ان هذه المرأة قد تحولت الى حجر
كما حدث لنيويا^١ ، بل الى ملح قد اضمحل ولا شك بالذوبان في
الشتاء التالي .

وقد حار بعض علماء الطبيعيات في مسألة المياه التي يصحبها
الاردن باستمرار في البحيرة ، حتى ذهبوا الى الافتراض بان ثمة
نفقاً تحت الارض ينفذها الى البحر المتوسط ، ولكنه فضلاً عن
فقدان الدليل على وجود هذا النفق ، فقد أثبت « هاليس » Hales
بالحسابات الدقيقة ان التبخر يستفد مياه النهر . وهذا التبخر
يكتنف حتى تراه بالعين المجردة ، اذ يتراكم الضباب عند بزوغ
الشمس فوق البحيرة ، ثم لا يلبث ان ينشع عنها بفعل الحرارة .

البقرة السابعة

النسخ

يسود الاعتقاد ان سوريا بلاد شديدة الحر . على ان هذا القول
يقضي شيئاً من الايضاح ، اذ تختلف درجات الحرارة من قصوى
الى دنيا على مسافة مئة وخمسين فرسخاً عن خط الاستواء عرضاً .
وقد اعتبار آخر ناشئ من طبيعة الارض ، فهي إما واطئة مسطحة ،
او مرتفعة جبلية . ونفسهما على هذا الوجه يحدث فروقاً محسوسة ،
لان ميزان ريومور Reaumur يبلغ على الساحل ٢٥ او ٢٦
درجة ، فيما لا يجاوز في الجبال ٢٠ او ٢١ درجة^٢ . كذلك يكسو

١ امرأة امطورية تحولت الى حجر . - العرب .

٢ اعني درجات ميزان الحرارة شتاء على ساحل سوريا وفي مراكب خاصة لبحر
او شان فوق الجبل . وترتفع صيفاً حتى ٢٥ درجة او ٢٦ في القوف المتكلمة الاقال .

الثلج سلسلة الجبال شتاءً ، في حين أن الاراضي الوسطى لا تعرفه
قط ، وإذا عرفته فحين قصير .

فهنالك والحالة هذه مناخان : احدهما شديد الحرارة في الساحل
والسهول الداخلية كبعثك وانطاكية وطرابلس وعسكا وغزة
وحوران الخ... والآخر معتدل يكاد يشبه المناخ عندنا ، وهو يسود
الجبال ، خصوصاً متى بلغت بعض الارتفاع . ان صيف سنة ١٧٨٤
قد اعتبره الدروز احمرّ ما عرفوا منذ عهد بعيد . على اني لم
اجد فيه وجهاً للمقابلة بقبض صيدا وبيروت .

تتعاقب الفصول في هذا المناخ مثل تعاقبها في اواسط فرنسا .
فالشتاء يستمرّ من تشرين الثاني الى اذار ، وهو شديد قس .
فلا تنقضي سنة بلا ثلج . وكثيراً ما يغطي الارض شهوراً كاملة
ويعلو اقداماً عديدة . والربيع لطيف كالخريف ، وليس في الصيف
ما يفوق الاحتمال .

وبحصل العكس في السهول ، اذ حالما تعود الشمس الى خط
الاستواء يصبح القبط مرهقاً ويستمرّ حتى عيد جميع القديسين .
والشتاء ، مقابل ذلك ، هو من الاعتدال بحيث ان البرنقـال
والنخل والموز وغيرها من الاغراس اللطيفة لا تهرج على غائتها
في الارض . وانه لمنظر شائق يستمتع به الاوروبي اذ يرى ، تحت
نافذته في طرابلس خلال شهر كانون الثاني ، اشجار البرنقال مثقلة
بالزهر والشمر ، فيما يكون الثلج والصقيع فوق رأسه على ذرى
لبنان . على انه من الجدير بالملاحظة ان الشتاء في النواحي الشمالية

اما ميزان الهواء فن الغريب انه يستقر عند الثمانية والعشرين فيراطاً في الايام الاخيرة من
ايار ، ولا ينهول عنها حتى شهر تشرين الاول .

وفي شرقي الجبال أشد صقيعاً دون أن يكون الصيف أخف قهراً .
فلا يمر شتاء في انطاكية وحلب ودمشق إلا والجليد والثلج على
الأرض بضعة أسابيع . وهذا امر مرده الى زحول الأرض اكثر
منه الى نسبة مواقعها من خط الاستواء . فالسهل المنبسط شرقي
الجبال بقعة شديدة الارتفاع عن مستوى البحر ، متفتحة للرياح الجافة
القادمة من الشمال والشمال الشرقي ، ومحجوبة عن الرياح الغربية
والجنوبية الغربية الرطبة . اما انطاكية وحلب المقابلتان لجبال
الاسكندرون فهما تنقيان هواء لاذعاً من تلوّجها .

ان سوريا ، وهذا هيكلها ، تجمع تحت السماء الواحدة مناخات
مختلفة . ونحشد في إطار ضيق من ضروب الاستمتاع ما وزعته
الطبيعة ، في أي مكان آخر ، على مسافات بعيدة من الأزمنة
والامكنة . فهي غنداء ، مثلاً ، قد فصلت الفصول بالاشهر ، في حين
يصح القول انها هنا منفصلة بالساعات . هل ضابقتك في صيدا
او طرابلس حرارة تموز ؟ ان ميسر ست ساعات ينقلك الى طقس
اذاً في الجبال المجاورة . وهل ، على العكس ، تأملت من صقيع
كانون في بشراي ؟ حيث تباراً واحداً لتعود الى الساحل بين
زهور ايار^١ . فقد جاء في قول شعراء العرب ان حنين يحمل
الشتاء على رأسه ، والربيع على كتفيه ، والحريف في صدره ، فها يرفد
الصيف عند اقدامه .

لقد خبرت بنفسي حقيقة هذا المجاز طوال ثمانية اشهر قضيتها

١ ان العديد من سكان هذه المنطقة يفضون شتاء في جوار طرابلس ،
فها تكون منازلهم دافئة في الثلوج .

في دير مار يوحنا^١ على سبعة فراسخ من بيروت . فقد غادرت طرابلس في اواخر شباط والبقول في مل ، فاشيا ، والزهور في تفتحها . وبلغت عينطورا^٢ ، فاذا الاعشاب في بدء نباتها . اما في مار يوحنا فكان كل شيء في غمرة الثلج ، ذلك الثلج الذي لم يتعرّ منه حين قبل آخر نيسان اذ تفتقت براعم الورد في واديه . وكانت بواكير التين قد انقطعت عن بيروت عندما كنا نأكل ثمراته الاولى ، ودود القز فيها اصبح فبالج حين لم يكن الناس يبنوا قد ورقوا نصف شجر التوت .

الى هذه الميزة الاولى التي تؤيد الملاذ بتعاقبها ، نضاف ميزة اخرى تتضاف معها تلك الملاذ بتتويع المحاصيل . فالأعنان الفين الطبيعية لا يمكن ان تنحصر في مسافة عشرين فرسخاً بمحاصيل اكثر النواحي تباعداً . ففي الحالة الراضة ، وعلى رغم همجية الحكومة التي تناهض كل نشاط وكل صناعة ، يدعئك ما تراه من تعدد المنتجات في هذه الولاية . فانه فضلا عن انواع الحنطة والشعير والفول والقطن التي تزرع في كل مكان ، توجد عدة اصناف اخرى مفيدة او لذينة الطعم ، وهي تختص بامكنة مختلفة . فالسقم الذي يستحب منه الزيت ، والذرة^٣ الشبيهة بذرة مصر بكتران في فلسطين^٤ ، والذرة الصفراء تنوثر في ارض بعابك ،

١ مار يوحنا النور قام قرب القرية . يقع هذا الدير في وادٍ صغير ينصب مياهه في نهر الكلب . رهبانه ملكيون كاثوليك من رهبانية القديس باسيليوس . وسأستوفي الكلام عنهم فيما يلي .

٢ مهندكان قباليسوعيين ويشغلون الآن العازربوت .

٣ حبوب من الحبوب يشبه القمح اقرب اعراضه على ذلك من قصب .

٤ لم ار قط الحنطة السوداء في سوريا ، والشوفان فيها قليل . اما الحبوب فعظما

والأرض ينصب في بطاح الحولة . ولم ينل به الناس إلى زراعة قصب
 السكر إلا في الآونة الأخيرة . فقد نال في إسبانيا صيدا وبيروت
 نحو في حدائق الدلتا . ويسمى العظم على خلاف الأردن في بلاد
 بيسان ، ولكنه يحتاج إلى العناية . وتنتج اللاذقية أصناف التبغ
 الذي يصدر إلى دمياط والقاهرة . وزراعة التبغ منتشرة في الجبال
 كافة . والزيتون ينمو في انطاكية والرملة ويرتفع الارتفاع شجر
 الزان . والنوت ثروة بلاد الدروز بما ينتجه من الخبز الجميل .
 والكرمة تعطي ثمرة بالامكان أن تعادل خور بورديو . وفي بلاد
 اللبمون والبطيخ . وهذا الأخير يفضل منه في بولس . وفي غزة
 التمر والرمال . وفي طرابلس البوقال . وفي بيروت التبن والموز .
 وتختص حلب بالفستق . وفي دمشق جميع الفواكه نواحيها . فترتبطها
 نضاج التفاح نور منديا ، وخوخ لائورين ، ودراق باريس . وغيرها من
 المشمش عشرون نوعاً ، واللوزي منه يرغبه الناس في كل تركيا .
 وهناك شجر القرمز الذي يكثر في السواحل . ولعله يحمل هذه
 الحشرة الثمينة كما في المكسيك وسان دومينغو^١ . وإذا لاحظنا
 أن جبال اليمن المكسوة بشجيرات البان الفاخر انما هي انما
 لجبال سوديا ، وأن التربة والحرارة في كلا البلدين تكادان

الشعير والذئب .

١ - فقد شك الأستاذ زيدا أن دولة القرمز خاصة بالمكسيك فحسب . وهذا
 ما جعل الأسبان يضنون بأنكبتها عظمى تصديرها حية تحت طائل عقوبة الإعدام . على
 أن المسير ثاري Thierri تومل إلى فرنسا سنة ١٧٧٦ إلى سان دومينغو .
 ولكنه حين أن سار هذه الجزيرة كان يتنوي الحشرة المذكورة قبل وصوله . وهذا
 دليل على أن الطبيعة لا تفصل الحشرات عن الأغراس المقصودة بها .

تعاذلان^١ ، أمكننا القول ان اليهودية بنوع خاص تصلح لانتاج هذا المحصول الخاص بجزيرة العرب . فلا عجب اذن ان تكون سوريا مع ما فيها من خصات الارض والمناخ بلد الرغد على تر الأرملة ، وان يكون الرومانيون واليونانيون قد اجتمعوا في مصاف اجمل ولايتهم حتى انها عادت مصر في نظرهم . وقد شئ احد الباشاوات الذي يعرف البلدين عن ايها المفضل عنده ، فقال : لا شك ان مصر مزرعة بمثارة ، ولكن سوريا مصيف ساحر^٢ .

١ - الارض في اليمن ونهضة كثيرة الشبه بارض سوريا ، على ما لاحظته ببوهر . راجع رحلته الى جزيرة العرب .

٢ - ان في سوريا جميع حيوانات الداجنة . وفيها قتلا عن ثلث الجاموس والجل ، ومنعها عظيمة . ونجد في سواها الغزالان ، وفي الجبال والقياض خنازير برية اصغر لواما وافن شرسة من حازيرة . ولا وجود فيها لظاء والايائل . ولها غثرت على القاب والشعاب الخلفي . ولادة مسند عجيب من فضيلة ابن آوى (يسمونه في سوريا « آوي » ثعلبا بموانه ، ويطلقون عليه في مصر اسم « تيب ») . تجمع بين آوى لمرأة في سواها المذات حيث ثقات بجفها . وهي لا تعدي على الحسد ، والغرب وحيتها الوحيدة لسباع عن النفس . وتتأذى كل مناء باصوات مزرعة مشومة . وقد يستمر نحو اربعة اربع ساعة ليلا . وهناك في الاماكن المغفرة : الصباغ والشموس التي ينعونها خطأ بالعمرة ، واخص المناطق التي تأتي اليها هذه الوجرش لبنان وبلاد السروز ونايل وجبل السكر من سواحي الاسكندرون . وليس في تلك البلاد اسود او دبة . والطران الثانية كثيرة . اما الطران البرية فتكثر او نقل بحسب الاماكن ، واحما الاراب البري والجل الآخر . والاراب ثمر الوجرش . وفي ارض صيدا نوع من الطير يسمى ابو القباب colibri . ان السيد ادلسون Adanson الذي كان ترجمانا في هذه السنة اهدى الى شجرة عطر الاثنية واحدا منها . وهذا الطائر مع البجع هو الوحيد الذي ينفث الطير في سوريا .

البذرة الثامنة

خصائص الهواء

لا يجوز ان يفوتني التحدث عن خصائص الهواء والبلاد ، تلك العناصر التي لها في سوريا امراض جذيرة بالنظر . ففي الجبال والسهول المرفعة الممتدة شرقها تحس الهواء خفيفاً صافياً جافاً ، وهو ، بالعكس على الساحل ، رطب ثقيلاً ، خصوصاً بين الاسكندرون وبافا . وهذا ما يجعل سوريا ، في مدى طولها منقسمة منطقتين مختلفتين تفصل بينهما سلسلة جبال هي في الوقت نفسه سبب هذا الاختلاف ، لانها بارتفاعها ترفع حائلاً دون الرياح الغربية وتسبب هذا الوكام من الابخرة الصاعدة من البحر والتجمعة في الاودية . ربما ان الهواء لا يكون خفيفاً إلا بقدر نقائه ، فهو لا يستطيع تسلك هذا السور حتى فاته وتخطيه إلا بعد تخلصه من كل ثقل غريب . وينتج عن ذلك ان هواء الصحراء والجبال يوانم الصدور المتبلة ، فيما هو خطر على الصدور الواضبة . والاوروبيون المهددون بداء الصدر يرسلون من حلب الى اللاذقية او صيدا . ولكن هذه الحسنة في هواء الساحل يقابلها سيئات ، منها انه بسبب الجبال وتزللات العيون التي المعت اليها في معرض حديثي عن الدلتا ، فالندى الليلي والنوم على السطوح يؤديان الى حوادث مرضية تفلّ بقدر ما يتبعد المرء عن البحر الى الجبال . وهذا ما يزيد فوني السابق بهذا الصدد .

السفحة التاسعة

خصائص الماء

واللهاء وجه اختلاف آخر . فمياه الينابيع في الجبال عذبة
سليمة ، ولكنها في السهل ، شرقاً وغرباً ، أجاج حيناً تفنقر الامكنة
الى ينابيع . وهي رديئة كلها توعلت في البادية . وهذا مما يجعل
الامطار ثينة في نظر سكان الحدود ، فيختزنونها في آبار وركابا
بحكمة الافقال . والبئر اول شيء يسد لناظرنا بين الحرائب
الدائرة .

ان حالة السماء في سوريا ، وبالأخص في الساحل والصحراء ،
اكثر نباتاً وانتظاماً مما هي عليه في مناخاتنا ، اذ قلما تحجب
الشمس يومين متواليين . وتندر الغيوم صيفاً ، وكذلك الامطار
فهي لا تسقط قبل اواخر تشرين الاول ، ولا تكون عندئذ
طوية الامد او غزيرة المطول . وهذه الامطار يرغبها الفلاحون
ليبدروا في الارض ما يسونه غلة الشتاء وهي الحنطة والشعير ، ثم
تغزر ونكثر في شهري كانون الاول والثاني ، وكثيراً ما نستعمل
زجاجاً في الاماكن المرتفعة . اما في شهري اذار ونيسان فتعطل
بعض الامطار وهي توالي زروع الصيف كالسم والذرة والنبع
والفطن والفول والبطيخ . والطقس في سائر ايام السنة منساو
يشكو فيه الناس الجفاف اكثر من الرطوبة .

النبذة العاشرة

في الرياح

نسب الرياح ، شأنها في مصر ، سيراً دورياً ذا علاقة بكل فصل من الفصول . فتبدأ الرياح الشمالية الغربية بالهبوب نحواً إلى الاعتدال الخريفي . فيصبح الهواء جافاً صافياً ولاذعاً . ومن الجدير بالنظر ان هذه الرياح تحدث الصواع في الساحل كما تحدثه في مصر الرياح الشمالية الشرقية . ويحصل ذلك في القسم الشمالي من البلاد أكثر من حصوله في قسمها الجنوبي . وهو لا يحصل قط في الجبال . ويلاحظ أيضاً ان هذه الرياح تستمر ثلاثة أيام متوالية على غرار الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية في امت الاعتدال الآخر . وهي تستمر حتى تشرين الثاني اي ما يقارب خمسين يوماً تعاقب خلالها على الهبوب مع الرياح الشرقية بنوع خاص . ونعتبرها الرياح الشمالية الغربية والغربية ، ثم الجنوبية الغربية بين تشرين الثاني وشباط . ويقول العرب ان هذين الشهرين ه فصول الشتاء . وفي شهر آذار تظهر الرياح الجنوبية المؤدية بنفس الاحوال التي تظهر فيها في مصر . ونحف وتلطف كلما تقدمت نحو الشمال . وهي أكثر اعتدالاً في الجبال منها في السهول . وتستمر عسادة اربعاً وعشرين ساعة او ثلاثة أيام . اما الرياح الشرقية التي تهب محلياً فهي تستمر حتى شهر حزيران حيث تهب الرياح الشمالية التي توافي انطلاق الاثرعة على الساحل ذهباً وياهاً . ويحدث في هذا الفصل ان الرياح تدور كل يوم دورة الآفاق وترافق الشمس في سيرها من الشرق الى الجنوب ومن الجنوب

الى الغرب انعود الى سابق ذروتها ذهاباً من الشمال . وتناط
على الساحل لبلد ربح مكانية تسمى ربح البر . فهي لا تهب الا
بعد مغيب الشمس ، وتستمر حتى شروقها ، ولا قد الى اكثر من
فرسخين او ثلاثة في البحر .

ان اسباب هذه العوازل من القضايا الميوة للاهتمام التي تتعلق
بالفيزياء . وهي تستحق ان تبحث حلولا . وما من بلد كسوريا
في مؤاتة طبيعتها مثل هذه الملاحظات . فكان هذه الطبيعة قد
هأت فيها جميع الوسائل لدرس اعراضها .

اما عندئذ نحن فيندر ان يتنى لنا متابعة التبدلات العظيمة
التي تطرا على الهواء ، بسبب مناخاتنا الضبابية حيث تغتمرها الفارات
الواسعة . فالأفق الضيق الذي يحجب ابصارنا انما يحجب فكرنا في
الوقت نفسه . فلا يتكشف امامنا إلا مشهد قصير المدى بحيث
ان العوازل الحادثة فيه لا تبدو إلا وهي مشوشة باحوال
متعددة .

اما هنا فتمتة مشهد واسع الجنبات يفتح امام النواظر . فنظرو
فيه العوامل الطبيعية الكبرى متقاربة في مجال يكون فيه تقاعلا
قريب المناول .

ففي المغرب ينسط سهل المتوسط المائع الفسيح . وفي المشرق
سهل البادية الذي يضاهي الاول باتساعه ويختلف عنه بحفافه .
وبين هذين المسطحين ترتفع الجبال التي تبدو ذراها وكأنها مراد
تنطلق منها النواظر الى ثلاثين فرسخاً . فبامكان اربعة راضد
ان تخضع ابصارهم جميع سوريا في مدى طولها ، بحيث انهم
يستطيعون من قمم فيبوس ولبنان وقبور ان يطلقوا النظر الى

افق مئاد غير متناهي ، ويلاحظوا كيف ان ناحية البحر الصافية
الاديم ، اولاً ، تستجمع فيها البحرة لتودع شيئاً فشيئاً ، ثم تتساقط
الجبال وتعاودها ، وكيف ان ناحية الصحراء ، وهي شقافة ابدأ ،
لا تولد الغيوم قط ، ولا تحمل منها إلا ما اقبلته من البحر .

ويصبح بإمكانهم عندئذ ان يجيبوا على سؤال ميخائيليس^١
« هل ان الصحراء تولد الندى » ، بان الصحراء ، اذ كانت لا
تحتوي على الماء إلا بعد امطار الشتاء ، فهي لا تستطيع توليد
الابخرة في غير ذلك الفصل .

واذا ما سرحوا الطرف في وادي بعلبك اللاعب من القبط ،
فما ياتع ببياض الجليد والثلج في ذرى لبنان ، تجلست لهم حقيقة
تلك القواعد الثابتة ، وهي ان الحرارة تزايد بمقدار القرب من
مخطط الارض ، وتتناقص بمقدار البعد عنها ، بحيث يلوح انها ليست
سوى نتيجة فعل الاشعة الشمسية في الارض .

ويكون في مقدورهم اخيراً ان يقوموا بمحاولات ناجحة لحل
معظم القضايا المتعلقة بذياب الكرة الفلكية .

راجع أسئلة ميخائيليس التي عرضها على رجائي ملك الدنمارك .

الفصل الحادي والعشرون

نظرة في عوارض الرياح والفيوم والأمطار والضباب والصواعق

انني ان يباشر هذا العمل مني بنسطة بنفاذيه سأنعرض بإيجاز لبعض الفكر التي ولدها في منظر الاشياء .

لقد تحدثت عن علاقات الرياح بالفصول ، وأشرت الى ان الشمس ، يتوافق سيرها السنوي مع العوارض الناشئة عن حسنه وذلك ، زبدو وكأنها العامل الرئيسي في هذه العوارض ، وكان فعلها في الهواء الذي يغطي الارض انما هو السبب الاول في ما يدور فوق رؤوسنا من الحركات العظيمة .

فيجدد بنا ، لكي نفهم نظامها بجلاء ، ان نستعرض سلسلة الافكار من مبدئها ، ونتبصر خصائص عناصرها العامل .

اولاً : من المعروف ان الهواء سائل متعادل الاجزاء متحركها ، وهي تفرغ دائماً ، كالماء ، الى المستوى الواحد ، بحيث لو أدخلنا الهواء الى غرفة ماحتها ست اقدام مثلاً ، في كل الجهات ، للأها بالتساوي .

ثانياً : ومن خصائص الهواء التمدد او الانقباض ، اي انه يشغل مدى اوسع او اضيق بكمية منه واحدة .

ففي مثل الغرفة المقفولة ، اذا افرغنا ثلثي كمية الهواء التي

محتويها ، القشر الثلث الباقي مكانهما ومملأها في كامل سمعتها . وإذا
نحن ، بدلاً من ان نفرغ الهواء ، أضفنا اليه ضعفاً او اضعافاً
وسعتُهُ الغرفة ايضاً ، وهذا ما لا يحدث الماء .

ان النار تزيد خاصة التمدد فعالية ، بحيث ان الهواء الساخن
يجمع من الاجزاء ، في مدى معين ، اقل ما يجمعه فيه الهواء البارد ،
فيصبح الخف منه ويندفع الى اعلى .

فاذا اضفنا الى الغرفة المفترضة مدفاة ، ملأى بالنار ، ارتفع
الهواء الذي يسها الى السقف ، وحل محله الهواء المجاور له الذي لا
يلت ان يتأثره بفعل التأثير نفسه . ويقوم عندئذ بحري من اسفل
الى اعلى بفضل تدافع الهواء الجاني . ويصبح الهواء الاكثر
حرارة في القسم الاعلى ، فيها يكون اقله حرارة في قسمها الاذن
وفها يستمر الهواء ان في السعي الى التوازي بفعل قاعدية
السائلة ١ .

والآن ، اذا نقلنا هذه المفاعيل الى ما يجري على مدى
واسع ، في الكرة الارضية ، لافئناها نفس معظم عراض
الرياح .

يكن اعتبار الهواء الذي يغطي الارض اوقيانوساً كبير الميعان
تحتل فعره ، ويقوم سطحه على ارتفاع مجهول . فبقنضى الناموس
الاول ، واعني السائلة ، يمل هذا الاوقيانوس الى التوازن
والاستقاع . بيد ان الشمس التي تحرك ناموس التمدد تسير فيه

١ وفي عهد الهواء التمدد دون الحواجز التي تحبسه ، ولكن هذا القول لا يؤثر في
غرضنا .

اضطراباً يجعل جميع اجزائه في ثوجرج مستمر .
والاشعة الشمسية بتسلطها على سطح الارض تحدث فيها مفاعيل
المدفأة المفترضة في الغرفة ، وتجعل فيها حرارة يتبدد معها الهواء
المجاور ويصعد الى الطبقة العليا . فاذا كانت هذه الحرارة هي اياًها
نفسها في كل مكان لجأت المفاعيل العامة متائلة ، ولكنها تتبدل
بتأثير احوال متعددة تصبح السبب فيما نلاحظ من وجود التفاوت .
ومن الثابت ان الارض تسخن بمقدار ما تقرب من عناصره
الشمس ، والحرارة اذن معدومة في القطب ، فيما هي في درجتها
التصوي تحت الخط . وهذا ما يفسر ان مناخاتنا شديدة الصقيع
في الشتاء ، وحارة في الصيف . وهذا ما يقصر ايضاً ان الحرارة ،
في مكان واحد قائم في عرض واحد بالنسبة الى خط الاستواء ،
تختلف اختلافاً كبيراً بحسب ما تكون الارض مسالمة صوب
السهل او صوب الجنوب ، ويكون سطحه كثير الانحراف او
قلبه عن اشعة الشمس ^١ .

ومن الثابت ايضاً ان سطح المياه اقل من سطح الارض
توليداً للحرارة ، فالهواء فوق البحر والبحيرات والانهر اخف
سخونة مما هو ، في العرض نفسه ، فوق اليابسة .

وترى ان الرطوبة مصدر اعتدال الهواء ، وهو السبب في ان
البلاد المكسوة بالغابات ، والكثيرة الغدران ، اشد صقيعاً مما لو
جفت غدرانها وقطعت اشجارها ^٢ .

١ وهذا ما جعل مونتسكيو يلاحظ بصواب ان بلاد النهر الواقعة في دائرة متوازية
لخط الاستواء بالبلد لا تكثراً وافرنا هي اكثر منها تعرضاً للصقيع .

٢ وهذا ما يقصر كيف ان غالباً La Guile كانت اشد برودة مما هي عليه اليوم .

ثالثاً : وثمة ملاحظة هامة هي ان الحرارة تتناقص بمقدار الارتفاع فوق مخطط الارض العام . يدل ذلك على ذلك ان الجبال الشاهقة تحمل الثلوج على ذراها ، ولو كانت واقعة تحت سطح الاستواء . وهذا ما يثبت ديمومة البرد في الطبقات العليا من الرقيع . واذا ما نسبنا المفاعيل المشتركة الناشئة عن الاحوال المختلفة تبين لنا انها تفسر معظم الحوادث التي تتولى تفصيلها . ولما كان هواء المناطق القطبية البرد واوزن مما هو عليه في منطقة الاعتدال ، وجب ان يحدث ، بفعل ناموس التوازن ، ضغطاً على الهواء يسوقه من القطبين صوب خط الاستواء . وهذا يقوم بالعمل على الوقائع ، لان جميع الرحالين قد تبينوا ان الرياح في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي تنطلق من دائرة الافق التي يقع القطب في وسطها ، اي من الناحية الواقعة بين الشمال الغربي والشمال الشرقي . ويأثر هذا ما يحدث في البحر المتوسط بوجه خاص .

لقد اشرت ، في معرض حديثي عن مصر ، ان دائرة الرياح الشمالية اكثر تسلطاً من غيرها على ذلك البحر . وتفسير هذا الحادث هو ان الشمس في ساحل بلاد المغرب تهب الهواء الذي يغطيه . فيرتفع هذا الهواء المتدد او ينحدر صوب اليابسة . واذا يجد هواء البحر ضعف المقاومة من هذه الجهة فهو ينطلق نحوها للبحال . ولكنه يسخن بدوره وينبع الهواء الاول . وهكذا دوالبك حتى يفرغ المتوسط من الهواء .

واذا يفتقر الهواء الجاثم فوق أوروبا الى سند من هذه الجهة فهو ينساق فيها ، ولا يلبث ان يسير في هذا الاتجاه بحري شامل

تزداد شدته بمقدار برودة الهواء الشمالي . وهذا هو سبب الرياح
الموجاه التي تهب في الشتاء اكثر من هبوبها في الصيف . وتخف
شدته بمقدار ما تتعادل اهوية تلك المناطق . وهذا هو سبب
الرياح المعتدلة في الفصل الجليل ، تلك الرياح التي تفضي خلال قنوز
وآب الى سكون شامل ، اذ تكون الشمس اكثر مجاورة لنا
وتلقي الدفء بدرجات تكاد تكون متعادلة في جمل نصف الكرة
حتى القطب .

ان هذا المجرى الثابت المتبادل الذي تسلكه الريح الشمالية
الغربية خلال حزيران متأث من ان الشمس بتقريبها من موازاة اقصوان
والجزر الحالدات Canaries تحدث ما وراء الاطلس حركة
استنشاق منتظمة . ان لعودة الرياح الشرقية بصورة دورية على
اثر الاعتدال الخريفي او الربيعي سبباً آخر جغرافياً . ولكي
نتبين هذا السبب وجب ان يكون في متناولنا صورة شاملة لما
يجري في الامكنة الاخرى من الفارة ، وانه لامر يغوتني ، كما
وافي اجمل سبباً لاستمرار الرياح الجنوبية والشمالية ثلاثة ايام في
ابان الاعتدالات .

وغة اختلاف في سير الرياح الواحدة ينشأ عن طبيعة الارض ،
بمعنى ان الريح اذا انتهت الى واد سارت في اتجاهه على غرار
المجاري البحرية . وهذا ولا شك ما يفسر لنا ان ساحل الجبلج
الادرياتيكي يكاد لا يعرف من الرياح الا الشمالية الغربية والجنوبية
الشرقية ، لان هذا الساعد الممتد في البحر يسير في ذلك الاتجاه .
ولسبب كهذا تتحول جميع الرياح على البحر الاحمر الى شمالية او
جنوبية .

وإذا كانت الريح الشمالية الغربية كثيرة المهبوب في مقاطعة
بروفنسيا ، فما كان ذلك إلا لان مجاري الهواء المهبطة من جبال
سيفان والالب مكرهة على ان تنتهي « الرون » في واديه .
ولكن ما هو مصير الركام الهوائي الذي يجذب الساحل
الافريقي والمنطقة الحارة ؟ على هذا السؤال جوابان :
الاول :

عند وصول الهواء الى درجات العرض هذه يحدث مجرى
رياح شرقية تهب من دائرة الانقلاب وتنسلط من الجزر الحاديات
حتى أميركا^١ ، فإذا ما بلغت القارة واعتوضتها الجبال ، انحوت عن
وجهتها الاولى واصبحت غربية في موازاة كندا .
الثاني :

ان الهواء المندفع من البحر المتوسط الى افريقيا يتمدد بفعل
الحرارة ويرتفع الى الطبقة العليا . ولكنه اذا بلغ بعض
الارتفاع يكتف ويتقلص حجمه . وقد يقال عندئذ انه يجب ان

١ لقد حسب السيد فوشلان ان سبب هذه الريح دوران الارض : ولكن اذا
صح ذلك ، لم لا تكون الريح الشرقية دائما ، وكيف تفسر عندئذ طلوع الريحين
الدوريتين الهابيتين على الهند والمتعاقبتين عليها قبل مرور الشمس في خط الاستواء وبضمه ،
يعني ان الرياح الغربية والجنوبية تسودها طوال السنة الا شهر التي تقضيها الشمس في
المنطقة الشمالية ، والرياح الشرقية والشمالية تسيطر فيها مدة السنة الا شهر الاخرى التي
تكون فيها الشمس في المنطقة الجنوبية .

الا تدل هذه العلاقة على ان اعراض الرياح مردها الى فعل الشمس في جو القارة
والى هذا الفعل فقط ؟ ويجوز ان يكون ثقلها مفعول على الرياح كالمفعول على
الاوليانوس ؛ ولكن تأثير سائر الكواكب عليها ضرب من الاوهام خالق بفسليات
الافنديين ...

يحبس الى اسفل بسبب انه استعاد وزنه . ولكنه فضلاً عن انه لو اقترب من الارض لاسترجع الحرارة وعاد الى التمدد ، فهو يكابد من الهواء الاسفل جهداً شديداً متواصلاً بسنده . فهاتان الطبقتان من الهواء الاعلى البارد والهواء الاسفل المتمدد في صراع مستمر ، فاذا ما اخل التوازن بينهما ، سقط الهواء الاعلى بضغط ثقله على المنطقة السفلى حتى الارض .

ان تلك الاعراض هي التي تكون سبباً في ما نشاهده من الاعاصير التي يلوح انها تسقط من السماء وتنقل ، في اكثر الفصول حرارة الى اكثر المناطق قبلاً ، برودة المناطق القطبية وقرها . فاذا ما قاومها الهواء المحيط بها اقتصر فعلها على مدى معين محدود . اما اذا صادفت مجاري وتيارات سابقة لها فهي تزيد في شدتها وتستحيل عواصف تستمر ساعات طوالاً .

وتكون هذه العواصف جافة الريح اذا كان الهواء صافياً ، اما اذا كان مثقلاً بالغيوم فيرافقها سيل عرم من الامطار والبرد الذي يتجدد عند سقوطه بفعل الهواء البارد .

وقد يحدث في مكان الاختلال الذي المقت إليه سقوط امطار متواصل تنضم اليها السحب المحيطة بها ، فتنتج عن امتزاجها تلك العواصف المائية المسماة بالاعاصير والزوايع . وما كانت هذه الاعاصير نادرة على سواحل سوريا . ويلاحظ انها اكثر ما تحصل في جو عاصف كثيف الغيوم .

وكثيراً ما يحدث هذا في الجبال التي تبلغ بعض الارتفاع . فعندما تكسر النواج ذراها تهب فيها عواصف جارفة يسميها البحارة الرياح الثلجية ، ويقولون عندئذ ان الجبال تدافع عن

نفسها ، لأن تلك الرياح تدفع من يقاربها من اية ناحية اتاها .
ان خليج ليون وخليج الاسكندرون على المتوسط مشهوران
بما يحدث فيها من هذه الاعراض .

والرياح التي تهب على السواحل ويسببها العاصفة رياح البر
يستند الناس بتفسيرها الى القواعد نفسها . ويلاحظ الملاحون في
المتوسط انها تهب تارة من البحر وليسلا من البر ، وانها شديدة
في السواحل المرتفعة ، فيما هي اخف على السواحل المنخفضة .
والسبب في ذلك ان الهواء الذي يندد تارة بفعل حرارة النهار ،
ويكتف تارة اخرى بتأثير برد الليل ، يتعاقب على الصعود والهبوط
من الأرض الى البحر ومنه اليها .

ان ما عاينته في سوريا من هذا القبيل ملموس حسى . فان
وجه لبنان المقابل للبحر نغمرة الشمس طوال النهار ابتداء من
الظهيرة بنوع خاص وتثير فيه حرارة تعدد الهواء الذي يغطي
السفح . واذ يصبح هذا الهواء خفيفاً يحتل ما بينه وبين
البحر من توازن ، فيزحه هذا ويطرده الى اعلى . ولكن الهواء
الذي يحتل مكانه بسفن بدوره ويجري في اثره . وهكذا دواليك
حتى يتكون تيار شبيه بالذي نعاينته في انابيب المدافئ والمداخن .
فاذا ما غابت الشمس توقف هذا العمل ، ويرد الجبل وكثف
هوائه ، واصبح بكثافته اقل واوزن ، فيهبط ويتكون منه تيار
ينحدر من السفح الى البحر ، حتى اذا طلع الصباح زال بطول
الشمس في الافق ، وعاد الى سيرته بالأمس . وهو لا يتخطى
البحر الى ابعد من فرسخين او ثلاثة لان اندفاعه هابطاً يتلاشى
بقارعة الركام الهوائي الذي يقابله .

أما استمرار الهواء في البرق فمرددة الى علو مهابطه وانحدارها ،
ومداه أكثر اتساعاً عند اقدام لبنان وسلسلة الجبال الشالية ، لأن
الجبال في ذلك القسم أكثر ارتفاعاً واشد انحداراً والصق جواراً
بالبحر .

ونهب عند مصب نهر القاصمية رياح هوج مفاجئة ^١ ، لأن
الهواء ينجتمع في وادي البقاع العميق وينطلق من مجراه الضيق
انطلاقه من فوهة الانابيب . وهو اخف على الساحل الفلسطيني
لأن الجبال هناك أقل ارتفاعاً ، يفصلها عن البحر سهل يراوح
عرضه بين اربعة فراسخ ونخبة . وهو منعدم في غزة وعلى
الساحل المصري حيث لا توجد في الأرض انحداراً بادياً . وهو
شديد في الصيف والضعف في الشتاء ، لأن الهواء فلما انتابه التمدد
في هذا الفصل .

ان حالي الهواء البري والبحري هما السبب في احد الاعراض
الذي يلاحظه الناس منذ زمن بعيد ، عنت به خاصة الأرض
بوجه عام والجبال بنوع خاص ، في اجتذاب الغيوم . فالذي
نسى له ان يرافق السواحل المتعددة يرى ان الغيوم ، وهي
تشكون دائماً في البحر ، ترتفع بعدئذ صوب اليابسة في سير
مستمر ، ثم ترفى أعلى جبالها .

لقد شاء نفر من الفيزيين ان يفسروا هذه الظاهرة ، فاستدوها
الى خاصة اجتذاب . بيد ان هذا السبب الخفي لم يكن يوماً
من الايام اوضح من « سالف الالتماس من الفراغ » . ففي

١ تبلغ هذه الرياح حداً من العنف تنقلب معه السفن مما كادت تجربته بنفسه .

قضيتنا من العوامل المادية مما يجلي سبب العارض الذي نحن في
صدده ، غيت مبادئ توازن السوائل التي يدفع بموجبها ركام
الهواء الثقيل ركام الهواء الخفيف الى اعلى . وفي الواقع ، لما
كانت القارة اشد سخونة من البحر ، ولو تعادلا مستوى ، كان
لا بد ان يقوم بينهما تيار ينقل الهواء (والغيوم) من البحر
الى الارض . وتكثف هذه الغيوم بمقدار حرارة الجبال ومبلغ
قابليتها للاستنشاق . فاذا صادفت ارضاً سهلة متساوية فهي تنزل
عليها دون ان تتوقف ، لان هذه الارض حارة ايضاً ولا تقوم
فيها عتية تعترض الغيوم وتكثفها .

وهذا هو السبب في انعدام المطر او ندوده صيفاً في مصر
وفي البادية العربية وافريقيا . ان هواء تلك المناطق حار منعدم
يطرد الغيوم لانها بخار ، ولان كل بخار يرتفع الى اعلى بفعل
الهواء الحار .

تسبح هذه الغيوم في المنطقة الوسطى حيث يدفعها التيار
الى اقسام القارة المرتفعة . ويبرد هناك وتكثف ثم تستحيل
اجزائها امطاراً او ثلوجاً . وفي الشتاء تخفض الغيوم حتى الحضيض
بسبب برودة الارض وتنتشر عليها بشكل ضباب .

ونلاحظ في هذه البلاد ان السحب والضباب تقترب من
الارض ليلاً فيما نبتعد عنها نهاراً ، ذلك ان الشمس ما تزال تثير
حرارة تدفعها . وقد خبرت ذلك في القاهرة في شهري غوز
وآب من سنة ١٧٨٣ . فكثيراً ما كنا نشاهد الضباب عند بزوغ
الشمس اذ درجة الحرارة سبع عشرة . وبعد انقضاء ساعتين ،
عند ارتفاع الحرارة الى اربع وعشرين درجة ، كانت السحب تلاً

صفحة السماء وتنطلق صوب الجنوب .

وفي الفترة نفسها ، اذ كنت عائداً من الدويس بين الرابع والعشرين من يوز والسادس والعشرين منه ، غرنا الضباب سخابة ليلتين قضيناها في الصحراء . ولكنتا ما كنا نشارف وادي مصر عند انبثاق الفجر حتى رأيت غارقاً في بحر من ضباب ساكن ما لبث ان تحرك ونعالي عند الثام النهار . وما بلغت الساعة الثامنة حتى تكشفت الارض جميعها وتبعثرت في الهواء غيوم شبيهة كانت تصعد من الوادي .

وفي السنة التالية لاحظت الاعراض نفسها في بلاد الدروز ، فقد تسلطت الغيوم في اواخر حزيران ، وغزا السكان نكاثرها الى فيضان النيل في مصر . وكانت في الواقع تقبل من تلك الناحية في اتجاه الشمال الشرقي .

وعقب هذه الطفرة طفرة أخرى من الغيوم في اواخر غوز وخلال آب . فكانت السماء تنشع بالغيوم كل يوم حوالي الساعة الحادية عشرة من النهار وتجبج الشمس ، وتغمر السحب ذروة صتب ، فيما كان بعضها يتسلق السفوح ويتراسكن بين حقول الكرمه واحراش الصنوبر . وكثيراً ما احاط في ضباب ابيض رطب ، وفاتر كثيف كان يفوتني معه منظر الاشياء على قيد اربع خطوات . وعند الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلاً كانت السماء تفرع فتألق بنجومها ويصفو ادبها الى ان نطلع الشمس ساطعة متوهجة ، ثم تأزف ساعة الظهيرة فتعود الحالة الى ما كانت عليه بالأمس .

وقد افلقتني هذا التكرار الذي كنت اجهل معه مصير

الركام من الغيوم . أجل ، ان قسماً منها كان يتخطى سلسلة
هين ، وكان من حقي الافتراض انه ينتهي الى انجيلبات او
البادية .

ولكن الغيوم التي كانت تسير على السفح عند مغيب الشمس ،
اي مصر هو مصيرها ، ونعرف انها لا تتلاشى في مظهر او ندى ؟
لقد بدا لي ان استقصي السبب ، فرفيت قمة مجاورة ، واطلقت
بصري في الوادي وفي البحر متبعاً خطاً متعرجاً يطول الى خمسة
فراسخ ، ولبت اتوقب ما سيحدث . فلم أرى بادية . ذي بدء
الا بحيرة من الابخرة فوق المياه . وكان هذا الافق البحري
غامضاً ، في حين ان افق الجبال كان جلياً واضحاً . وكانت اشعة
الشمس تضيء هذا الضباب شيئاً فشيئاً فارى الغيوم تفصل من
هذا الركام وتبعد صوب الجبال لتعلوها طوال النهار .

وافترضت عندئذ ان هذه الغيوم التي رايتها ترفى على هذه
الصورة ، هي ، في قسمها الاكبر ، غيوم الامس التي توقفت عن
الصعود اذ جدها الهواء البارد ودفعها ربيع البر الى البحر .
وفكرت انها استوقفت هناك طوال الليل ، حتى اذا عبث الريح
البحرية صافتها صوب الجبل وحملت معظمها فوق الذروة لتذوب
اندياً في الصحراء او تضيع في عواثها الجاف .

قلت ان هذه الغيوم لا تأتي بالندى ، وقد لاحظت ان السماء
الغائمة اشج به من السماء الصافية . والندى في كل وقت وحال
اقل في الجبال منه على الساحل وفي مصر . وتفسير ذلك ان
الهواء لا يستطيع ان يرفع الى ذلك العلو ما يحمله من رطوبة
زائدة ، لان الندى اذا هو تلك الرطوبة الزائدة التي يذيبها الهواء

الساخن نهاراً ثم يجمدها برودة المساء فتهمي بغزارة تزيد بمقدار
القرب من البحر^١ . وهذا هو السبب في أن الرطوبة شديدة في
الدلتا وانخفض منها في داخل الصحراء على ما قبيل لي . وإذا
كانت الرطوبة لا تهمي عند احتجاب السماء فلأنها اتخذت شكل
الغيوم أو لأن الغيوم تحول دونها .

وفي الأحوال الأخرى ، إذ السماء صافية ، ترى غيوماً تنفرق
وتتلاشى كال دخان ، أو تتجمع رفعاً في نقطة معينة حتى تصبح
كتلاً عظيمة . وهذا ما يحدث بنوع خاص على ذرى لبنان .
والغيم يعاود تلك الذرى دليل الملاحين على ربح غربية وشيكة
المحبوب .

وكثيراً ما رأيت عند مغيب الشمس تلك الأبحرة تعلق في
صخور نهر الكلب وتكاثف شيئاً فشيئاً حتى تملأ الوادي وكأنها
بحيرة فيه . ويقول السكان أن تلك الأبحرة تتولد من الوادي .
والواقع أن هذا الوادي المنحصر المنقصر إلى المياه أو بكاد ، لا
يولد هذه الأبحرة التي يصح الظن أنها تسقط من الفلك ، عند
هبوط الليل ، مطراً خفيفاً يتراكم حتى يصبح بحيرة غائمة .
إن الضباب تفسره المبادئ نفسها . فلا ضباب في البلاد

١ وهذا الأمر يدل قضية ملحوظة هي في بلادنا وهي تنحصر في هذا السؤال : ماذا
يعرف الناس في بلادنا على شاطئ البحر أكثر منهم في الرملة التي هي على مسافة ثلاثة فراسخ
في البحر ؟

سبب ذلك أن هواء بلادنا الثقيل بالرطوبة لا ينس انحرافات الجهد إلا ببطء ، فيما هو
أكثر نهماً في الرملة حيث ينس تلك الانحرافات بسرعة . وهذا ما يفسر أيضاً أن البقرة
التي تنس مرلبة في مناخاتنا شتاء لا صيفاً .

الحارة النائية عن البحر ، أو في فصول الصيف الجافة لانت
الهواء عندئذ لا يحمل رطوبة زائدة ، ولكنه يظهر في الحريف
عقب الامطار ، حتى انه يبدو في الصيف على اثر الامطار
العاصفة ، اذ تكون الارض قد تلقت مادة للتبخر واصبحت
في درجة من البرودة نوالهم النجم .

وفي مناخنا يعلو الضباب الحقول ، ولما لف الاراضي المحروقة .
ولا يندر ان ترى عند مغيب الشمس ستاراً دخانياً على الاعشاب
لا يلبث ان ينتشر صعوداً وانساعاً . وسبب ذلك ان الاماكن
الرطبة البليدة تجمع من الميزات لتكتيف الانجزة الغامية ما لا يتوافر
في الاماكن الغبارية .

وهذه اعتبارات عديدة تتعلق بتكوين هذه الانجزة وطبيعتها ،
تلك الانجزة التي هي هي نفسها وانت سميت فوق الارض ضباباً
وفي الرفيع غيوماً ... وهي مسألة مسن اختصاص الكيمياء لا
يسعني ان انطرق اليها في هذا البحث . وسأقصر درسي على
ملاحظة اخيرة تتعلق بالرعد .

يحدث الرعد في الدلتا كما يحدث في سوريا ، مع الفرق انه في
الدلتا وسهل فلسطين نادر في الصيف كثير في الشتاء ، في حين
انه على الجبال قليل في الشتاء كثير في الصيف . وهو في كلا
البلدين يقصف في فصول الامطار التي ترافق مواعيد الاعتدالات
واخصها الاعتدال الحريفي . ومن الجدير بالنظر انه لا يقبل قط
من اجواء اليابسة بل من البحر .

وتطلع الزواجع على الدلتا وسوريا من البحر المتوسط ١ .

١ اجل ما يحدث في الصيف من هذا القيل . اما الدلتا فالرعد والغيوم تطالها من

وموافقتهما المفضلة المساء والصباح^١ . وتوافقهما قبول غزيرة ،
وفي بعض الأحيان ، زخات من البرد تغطي الحقول ببحيرات
صغيرة في سحابة ساعفة من الزمن . فهذه الأحوال ، وأخصها التلازم
بين الغيوم والرعد ، تؤول بنا إلى التعليل التالي :

إذا كان الرعد ينشأ دائماً مع الغيوم ، وكان بحاجة مطلقة إلى
أسطحها ليظهر ، فهو ناتج ، والحالة هذه ، من بعض عناصرها . وأذن
كيف تتكون الغيوم ؟ أنها تتكون من تبخر المياه . وكيف
يحصل التبخر ؟ أنه يحصل من وجود عنصر النار .

ليس للماء بحد ذاته قابلية التبخر ، بل يقتضي تبخره وجود
عامل ، وهذا العامل هو النار . وهذا ما يؤيد القول أن التبخر
يكون بنسبة تفاعل الحرارة والماء . فكل ذرة ماء تبخرها ذرة
نار فتخرج بهما ولا شك ذرة هواء . والغيوم ، وهذا تركيبها ،
نسيج في الهواء حتى تطراً عليها أحوال خاصة تذيبها . فإذا
اعترضها عامل من شأنه أن يفسد قماز ذراتها فجأة ، تفجرت
بدرى وبرق . فنضجحل منها مادة النار فوراً ولا يبقى من
الأجزاء المتأرجحة إلا الماء ، فيسقط من العلم الذي ارتفع إليه .
وهذا ما يفسر تلك الأمطار الشديدة التي تعقب فصف الرعود
وتهطل عادة عند انتهاء الزوايع وتلاشي مادة النار .

البحر الأحمر أحياناً . ويوم غادرت القاهرة في السادس والعشرين من شهر أبول سنة
١٧٨٣ ، جبت عليها عند جبوط الليل زوبعة من الجنوب الشرقي توافقها الرعود ، ثم هطل
برد شديد من الحجم الكبير المستدير ، طوال عشر دقائق أو اثني عشرة . فسنى لي مع
الرفاق أن ثلثاً منه كويين واسمين ونقول أننا حسونا الجليد في مصر .
١ . وقد لاحظ ليدهر في موكا ويومباني أن الزوايع تطاع من البحر دائماً .

وقد تقترح مادة النار بالهواء وحده فتحدث تلك البروق التي
نسميها نيران الاق. ولكن هل ان مادة النار هذه تتميز عن
المادة الكهربائية ؟ وهل يخضع امتزاجها وتفجرها الى قوانين
خاصة ؟ هذا ما لا احاول بحثه ، لان هذه الابحاث لا تؤاينها
روايات السفر . وحشي ان اكون قد اقتضرت على الوقائع
واستخلصت منها الشروح التي انفذتها طبيعة الحال ^١ .

١ يبدو ان النيازك مزيج غري من نوع خاص . لقد اكد لي موارنة « مزار
الباس » ان احد تلك النيازك سقط منذ ثلاث سنوات على بقايا الدبر فقتلها ، وحدثت
انفجاراً يشبه انفجار القنطرة .

القسم الرابع

الحالة السياسية في سوريا

الفصل الثاني والعشرون

سكان سوريا

تعرضت سوريا منذ غابر الأزمان لاضطرابات أدت إلى غزاج اجناس سكانها . وتعاقبت عليها في خلال الفين وخمسمائة سنة عشرة فتوحات دخلت معها على التوالي شعوب غربية أوربا آشوريو نينوى الذين عبروا القرات حوالي السنة ٧٥٠ قبل المسيح واستولوا على مجمل البلاد الواقعة شمالي اليهودية . وعقبهم كلدانيو بابل بحق السيف وافتتحوا سائر سوريا ما خلا مدينة صور . ثم تعاقب على البلاد فرس كسرى ، فيقدونيو الاسكندر .

ولاح عندئذ ان سوريا ستعق من عبودية الاجانب وانها ستنعم بحكومة خاصة يفرضها حقها الطبيعي . بيد ان الشعوب ، التي لم تجد في السلوقيين الا طغاة قساة ، رأت ، وقد فرضت عليها الانيار ، ان تختار انفسها وطأة ، فاصبحت بقوة سلاح بومبايوس احدى ولايات الامبراطورية الرومانية .

وبعد انقضاء خمسة قرون ، اذ تقاسم ابناء ثيودوسيوس تراثهم المتواهي الاطراف ، ضمت سوريا الى امبراطورية القسطنطينية . وكانت هذه حالها عندما فتحها العرب تحت راية محمد . ومزقتها

منذ ذلك العهد الحروب الاهلية التي ثارت في عهد الامويين
والفاطميين . ثم تنازعها على التوالي الصليبيون والمماليك والنسرة ،
حتى استقرت اخيراً في يد الاتراك العثمانيين الذين هم اسيادها منذ
مائتين وثلاثين سنة .

ونجى عن تلك الاضطرابات المتتالية ان سوريا لم يبق فيها
الا راسب من الناس المختلفي العناصر ، بنوع انه لا يجوز
النظر اليها كامة واحدة بل كمزيج اسم مختلف .
ويمكن تقسيم تلك الشعوب طبقات ثلاثاً :

١ - ذراري الشعب الذي سبق فتح العرب وهم الروم .

٢ - ذراري العرب الفاتحين .

٣ - الشعب المسيطر الآن وهم الاتراك العثمانيون .

ويجدر ان يقسم اهل الطبقة الاولى الى :

١ - روم منشقين اي منفصلين عن شراثة رومه .

٢ - روم لاتين متحدون برومه .

٣ - موارنة من اتباع الراهب مارون ، كانوا مستقلين

عن الفتيحة السابقين وانضموا الآن الى الثانية .

ويجب ان يقسم العرب الى :

١ - ذراري الفاتحين وهم القسم الاكبر .

٢ - المناولة ومختلفون عنهم بذهبهم الديني .

٣ - الدرود المميزون بذهب خاص .

٤ - التصيريين وهم متفرعون ايضاً من العرب .

وثمة شعوب ثلاثة من الرعاة الرحل هم التركمان والاككاد

وعرب البادية .

هذه هي اجناس الشعوب المنتشرة في البقاع الممتدة بين البحر
والصحراء من غزة حتى الاسكندرون .

والجدير بالنظر انه لم تبق من الشعوب القديمة سمات بارزة ،
فقد اختلطت ميزاتهم بميزات الروم الذين استقروا في البلاد منذ
عهد الاسكندر وامتزجوا بطول الزمن بسكان البلاد امتزاجاً
شديداً . فقد احتفظت الارض وحدها ، فضلاً عن بقايا عادات
واخلاق ، بآثار العصور الغابرة .

ان سوريا لم توجد ، شأن مصر ، ابوابها دون الامم الغربية ،
فقد امتزجت بالغرباء ، دماً وطبعاً . وجرى هذا التجنس وفق
النواميس التي سيرته في جنوبي اورشليم في ما عدا الفوارق الناجمة
عن طبيعة المناخ الذي يجعل سكان السهول الجنوبية اشد سمره
من اهل الجبال .

ولا يختلف لون الوجه في لبنان وبلاد الدرور عنه في الولايات
الفرنسية الوسطى . يطري الناس كثيراً بياض نساء دمشق
وطرابلس وفسطاطين المتناسقة . ونحن من هذا القبيل نصدق الامر
بالاعتماد على النواتج ، لان الحجاب الذي يبرقعن به بحول دون
النسب والملاحظة . والقرويات في بعض المقاطعات اقل توسوساً
من الأول ، ولسن دونهن عفة واحتشاماً . ففي فلسطين مثلاً تبدو
المتزوجات سوافر . بيد ان الشقاء والشظف قد محبا مسحة الحسن
عن سيائهن ولم يبق الا على جمال العيون . وثياجهن الفضفاضة لا
تحول دون غير الرائي حركات اجسادهن التي تدل على شكل
القوام ، فهو تعوزه الرشاقة على كونه متناسب الاعضاء . ولا
اذكر اني شاهدت في سوريا وحتى في مصر احديهن اثنتين او

بيد انه من النادر ان ترى هناك القمامات المشقة التي نرغب فيها ، لانها غير مستحبة في الشرق حيث تلجأ النتيات منذ الحداثة الى وصفات غريبة فكسبهن البدانة ، وذلك برأي امهاتهن . على ان الطبيعة تضع لحسن الطالع حداً قوي الانفس وتقاومه ، فلاحظ ان الاجسام في سوريا حيث لا يشد القوام ليست اخف منها في فرنسا حيث يبالغون في شدة وتضييقه .

ان السوريين معتدلو القمامات عامة ، وهم شأن سكان البلاد الحارة دون سكان الشمال بدانة . على انك تجد بين سكان المدن من الناس من تدل ضخامة بطونهم على ان الغذاء يوازن المناخ . وليس في سوريا مرض خاص بها الا حبة حلب التي سأتكلم عنها فيما يبحث شؤون هذه المدينة . امسا الادواء الاخرى فهي الزحار والحجيات الناشئة عن نعاظي ثمار الرديئة التي يأكلها الشعب بنهم . وهناك الجدري وغالباً ما يكون كثير الفسك بالارواح . امسا الداء الشامل المعناد فهو مرض المعدة . وسببه الاغراط في اكل الاثمار الفجة والخضار النيئة ، فضلاً عن العسل والجبن والزيتون والزيت واللبن الرائب والجوز الرديء ، الاختار ، وهي المأكول العادية التي يفتات بها الجميع . ومن جبناتها انفساً تولد احماضاً تؤدي الى حرقاة الفم والقيء وافراز الصفراء .

واللغة المسألوفة في سوريا هي العربية . وقد ذكر نيسوهر ، بالاستناد الى ما سمع ، ان اللغة السريانية ما برحت تستعمل في بعض قرى الجبل . على اني لم ائت في هذا الامر ، على كوني استغنيته بعض الرهبان الذين يعرفون البلاد معرفة عامة . غير انه

قبل لي ان سكان معلولة وصيدنايا الواقعتين على مقربة من دمشق يستعملون لغة فاسدة يصعب على المستمع فهمها . ولكن ذلك لا يعني شيئاً ، لان اللهجات في سوريا وفي سائر البلاد العربية تختلف من محل الى آخر . ويصح القول اذاً ان اللغة السريانية اصبحت مبنية بالنسبة الى هذه المقاطعات . ان الموازنة الذين احتفظوا بها في طقسياتهم لا يفهم معظمهم منها شيئاً فيما يقرأونها . وهذا هو شأن اللغة اليونانية . فالرهبان والكهنة ، منشقين كانوا او كاثوليكين ، لا يفهمونها الا الذين درسوها دراسة خاصة في جزر الارخبيل . ومن المعلوم ان اليونانية الحديثة قد تشوّعت الى حد انه لا تكفي معرفتها لمن يريد ان يقرأ ديموستين ، كما ان اللغة الايطالية لا تلقي نوراً على لغة شيشرون .

اما اللغة التركية فلا يستعملها في سوريا الا رجال الحرب والحكومة والقبائل التركية ، ويتعلمها بعض سكان البلاد لحاجة مناجرتهم كما يتعلم الاتراك اللغة العربية . على ان بين هاتين اللغتين من التمايز من حيث اللفظ والنبرات ما يجعلها غريبتين الواحدة عن الاخرى . فلفظ الاتراك ترافقه غنة وجزالة . وهم من اجل ذلك يجدون صعوبة في تقليد اللغة العربية باجراسها الحادة واستشاقاتها الشديدة . ففي هذه اللغة من الاحرف المصوتة والحلقية ما اذا سمعته لأول مرة خيل اليك ان هناك قوماً يتفرغون . وهذه الميزة تجعلها شاقة المتناول على الاوروبيين . على اننا لو شكونا الى العرب خشونة لغتهم لانهمونا باننا نفتقر الى اذنت صادقة . واللغة الايطالية هي المفضلة عندهم . وهم يشبهون اللغة الافرنسية بالتركية والانكليزية بالفارسية . ولهجاتهم مختلفة . فاللغة العربية في سوريا

أكثر خشونة منها في مصر . فاللفظ عند أهل الشريعة في القاهرة
مثال السهولة والسهولة . على أن نبيوه لاحظ أن لفظ سكان البهن
والشاطىء الجنوبي أكثر عذوبة ، وهو يضاف على اللغة العربية
سلاسة وانسجاماً .

لقد شاء البعض أن يجد علاقة بين اللهجات واللهجات .
فيقولون مثلاً أن سكان الشمال أكثر من أهل الجنوب الحاحاً
على الشفاه والاسنان في محارج الحروف . وقد يكون ذلك محسباً
إذا اقتصرنا على بعض أجزاء القسارة ، لأن التعميم في هذا الحكم
يقضي ملاحظات أكثر شمولاً وانسجاماً . فالتحفظ أجدر عند إطلاق
الحكم على اللغات وميزاتها لأن المرء يحمل على تعليل الأمور
بالاستناد إلى لغته وبالتالي إلى وهم شيء عن العادة يضير بصحة
التفكير والتعليل .

أن بين سكان سوريا الذين تحدث عنهم من هم منشرون في
مختلف المناطق ، فيها نجد شعباً منهم محصورة في أماكن معينة يتبعون
علينا تحديداتها . فالروم والآتراك والعرب القرويون يدخلون في الفئة
الأولى ، مع الفرق أن الآتراك لا يقبلون إلا في المدن حيث
يأرمسون شؤون الحرب والقضاء والصناعة . أما العرب والروم فهم
يقطنون القرى حيث تنألف منهم طبقة الحرفاء في الأرياف وطبقة
السوق في المدن . وأكثر القرى المأهولة بالاروام تقع في ولاية
دمشق .

أما الروم الملكيون التابعون لروما فهم أقل عدداً من الروم
الدمشقيين ويقطنون المدن حيث يأرمسون الصناعة والنجارة وقد
احرذوا في كليهما نفوذاً ظاهراً بفضل حماية الفرنجة لهم في الأماكن

التي تقوم فيها المكاتب التجارية الأوروبية .
ويؤلف الموازنة امة لكاد تستألو بجعل البلاد الواقعة بين نهر
الكاب والنهر البارد من اقمم الجبال شرقاً حتى البحر المتوسط
غرباً .

وبجاورهم الدروز المنتشرون من نهر الكاب حتى ضواحي حدود
بين وادي البقاع والبحر .

وكانت بلاد المناولة تشمل فيما قبل على وادي البقاع حتى صور .
على ان هذا الشعب قد كابد من الاضطرابات ما اضعف شأنه . اما
النصيريون فهم منتشرون في الجبال من نهر عكاو حتى انطاكية .
ومنهم شيع مختلفة كالكلبية والقدموسية والشمسية . وليس للتركمان
والاكراذ والبدو مقرات ثابتة . فهم منتشرون ابدأً بحبسهم
ومواشيهم في مناطق معينة يعتبرونها ملكاً لهم .

فالتركمان يجتسون عادة في سهول انطاكية ، والاكراذ في
الجبال الواقعة بين الاسكندروت والقرات ، والعرب على النجوم
السورية الملاصقة لصحرائهم ، حتى انك تجدهم في السهول الداخلية
كسهول فلسطين والبقاع والجليل .

ولكي نكون لنا فكرة اكثر وضوحاً عن هذه الشعوب
نرى ان نقسّط في شؤون كل منها .

الفصل الثالث والعشرون

الشعوب الرعاء أو الرحل

النسبة الاولى

التركمان

التركمان طائفة من التتر نوحوا من شرقي بحر قزوين في ايام الثورات الكبرى التي هزّت دولة الخانات ، وانتشروا في سهول ارمينيا وآسيا الصغرى .

ان لغتهم لغة الاتراك نفسها ، وطريقة معاشهم تكاد تشبه طريقة عرب البادية . فهم رعاة مثلهم يقطعون المسافات والقفوات سعياً وراء المراعي . بيد ان الاراضي التي يتزلونها واقرة الحصب والكلأ . وهم من اجل ذلك اقل شتاً من قبائل الصحراء .

ولكل عشيرة عندهم رئيس لا تستند سلطته الى الانظمة ، بل الى مألوف العادة والاعوال . وقبلها كان هذا الرئيس مستبداً لان جاحلهم منضامة يسود اعضاؤها شيء من المساواة . وكل رجل يستطيع حمل السلاح بحمله ، لان اعتباره وأمنه يقومان على قوته . وثورتهم جميعها في المداثي من ابل وجواميس وماعز واغنام . وغداؤهم الالبان والزبدة واللحوم الوفيرة . وهم يبيعون ما يقبض عن حاجاتهم في المدن والقرى ، ويقايضون عليها بالسلحة والالبسة

والدراهم والحبوب . ونساؤهم يغزلن الصوف وينسجن السجاد ،
وهي صناعة يارستها منذ القدم .

أما الرجال فتتخصص مشاغلهم في تدخين الغلابيين وحراسة
المواشي . فتراهم أبدأ على صهوات الجياد ، رمح على الكتف ،
وسيف معقوف إلى الجنب ، وغداة في النطاق : فرسان أشداء
ورجال حرب ذوو بأس وشكبة . كثيراً ما يفتش النزاع بينهم
وبين الأتراك الذين يرعون جانبهم . ولكن نخاذل قبائلهم يقف
حائلاً دون تفوقهم ، ذلك التفوق الذي كان مضموناً لهم لو نألت
قواتهم متحدة .

وقد ثلاثون ألف تركي في موزعون بين ولايتي حلب ودمشق ،
وهما الولايتان الوحيدتان اللتان يترددون إليهما ، ويتزوج معظم
قبائلهم في الصيف إلى أرمينية وقرمانية حيث يتوافر الكلأ ، ثم
يعودون في الشتاء إلى مناطقهم المعتادة .

والتوكان يدينون بالاسلام ، ولكنهم فلما حفلوا بالدين . أما
أخلافهم فلا يعرف امرها إلا من نسي له أن يعايشهم . ولكن
الشائع عنهم أنهم كالعرب في الكرم والضيافة . وهم في كفاف
من الرزق على غير غنى واسع ، متبرسون بالشهائد والحروب وفي
مأمن من فساد أهل المدن وذلك سكان القرى .

النبذة الثانية

الأكراد

الأكراد جيل من الناس منتشرون قبائل في آسيا الصغرى .
أما موطنهم الأصلي فالجبال التي تنبجس منها فروع دجلة ، تلك

الجبال المحذقة بشطر نهر الزاب الاعلى والممتدة جنوباً حتى تخوم
العراق الفارسي . وفي اصطلاح الجغرافيا الحديثة تسمى تلك البلاد
كردستان . وقد ورد ذكرها في اقدم التواريخ والاساطير
الشرقية التي جعلتها ساحة للحوادث الميثولوجية المتعددة ،

روي بيروز الكلداني ومريانا الارمني اللذان ورد ذكرهما في
تاريخ موسى الجوريني ان كزيسوتروس الذي نجى من الطوفان
قد استقر على جبال غوردادي . وموقع هذه الجبال من البلاد
يدل على ان كلمة غورد او كورد مشتقة من اسمها .

وذكر المؤرخ كزيسوفوت ان هؤلاء الاكراد على كونهم
محاطين بامبراطورية الفرس من كل النواحي قد استطاعوا كبح
جراح جنود الملك الاكبر ، ولم يتبدل مراسيمهم مع الزمن لانهم
قلما حفظوا حرمة السلطان والباشاوات . ونجبرنا نيبوهر الذي زار
بلادهم في سنة ١٧٦٩ ان يحكمهم اقطاعية ، ولعلها على غرار
حكومة الدروز . فلكل قرية رئيس ، والامة منقبة احزاباً
رئيسية ثلاثة مستقلة ادت المنازعات بينها الى حالة فوضى الفصل
معه من الشعب عدد كبير من القبائل والعشائر اختارت حياة
الترحل التي ألفها العرب والتركمانيون ، وانتشرت في ديار بكر
وسهل ارضروم وأربكان وسيراس وحلب ودمشق .

ويقدرون عدد خيامهم بنائة واربعين ألفاً ينطلق منها مائة
واربعون الف مقاتل . والاكراد كالتركمانيين وعادة رحل ، ولكنهم
يختلفون عنهم في بعض نواحي العادات . فالتركمان يهرون بناتهم
عند زواجهن . اما الاكراد فلا يسلمونهن الا لقاء مهر . ولا
يعترف التركمانيون بطبقة الاشراف ، فيما يجلبها الاكراد الاجلال

كله . والتوكانيون لا يعرفون الموصية . اما الاكراد فمن الماتور
انهم فقطاع طرق ، ويرهب جانبهم من اجل ذلك سكنت حلب
وانطاكية لانهم منتشرون هناك في الجبال القائمة شرقي بيلان حتى
كاس حيث يعرفون باسم « البغدشلية » . و يبلغ عدد خيماهم
واكوانهم في هذه الولاية وفي ولاية حلب عشرين ألفاً ،
ويعتبرون اسلاماً على كونهم لا يحفلون بتراجم الديانة .

وفئة شيعة منهم تعرف باليزيدية يؤمنون بها انها تكرم الشيطان ،
وهي فكرة شائعة في ديار بكر وعند نخوم فارس . واعلموا اثر
من الطريقة القديمة القائمة على مبدئي الخير والشر التي ما برحت
تسود هذه الاحقاع .

واللغة الكردية تحمل ثلاث غيجات ، وليس فيها كالعربية حروف
حلقية ، ويقولون انها لا تشبه الفارسية ، فهي اذن فائقة بذاتها .
واكن اذا القينا نظرة على جاهلية هذا الشعب وعلاقته بالاشوريين
والفرس وغيرهم ، حملنا ذلك على الاعتقاد بان معرفة هذه اللغة قد
نلقي بعض الضياء على التاريخ القديم في هذه البلاد .

البند الثالثة

عرب البادية

هؤلاء القوم الوحش في سوريا ، سبق لي ان صادفتهم في مصر ،
والمعت اليهم الماعاً لطيفاً في حديثي عن هذه الولاية لانني عرفتهم
فيها معرفة عابر سبيل يجمل لغتهم . اما في سوريا فقد تسنى لي
ان اتزل خيامهم قرب غزة حيث عايشتهم بعض الزمن واستطعت

ان اعرف من امورهم ما سانبسط فيه الآن .
اذا تكلمت عن العرب وجب ان نميز بين الفلاحين والرعاة ،
لان الفرق في نظم المعيشة بين كلا الفئتين يجعل بينهما فارقاً
اكبر في الاخلاق والسجايا لحياتهما مع غربيتهن الواحدة عن
الآخرى او تكادان .

اما اصحاب الفقة الاولى فأهل اقامة متعلقون بالارض ومرتبون
بمحكومات نظامية ، وحالتهم الاجتماعية تشبه في كثير من الوجوه
ما نحن فيه ، ومنهم أهل اليمن ، وانشال الفاتحين القدماء الذين
يتألف منهم او من معظمهم سكان سوريا ومصر وبلاد المغرب .
وأهل الفقة الثانية لا تربطهم بالارض الا مصلحة عابرة ، فهم
أبداء في تنقل مع خيالاتهم ، ولا تعصمهم شريعة او نظام ، وانهم
في وضع لا يصح القول معهم انهم متحضرون او متوحشون .
هؤلاء هم البدو النازلون الصحاري المترامية الاطراف الممتدة من
نجوم فارس حتى شواطئ مراكش . وعلى كونهم منقسمين
جماعات او قبائل مستقلة كثيراً ما تكون متعادلة ، فهم امية
واحدة . وثائل لغاتهم دليل واضح على ارومتهم الواحدة . الا
ان قبائل افريقيا احسدت عهداً من شقيقتها لانها نشأت بعد
الفتوحات التي تولاها خلفاء محمد ، في حين ان قبائل جزيرة العرب
تقد اصولها في القدم الى ابعد المصور . وسنكون هذه الاخيرة
بنوع خاص موضوعاً لبحثي ، لانها لغرب منه ولان اسم « العرب »
مخصوص بها لتكونها اقدم جماعاتهم عدداً واصفاً نسباً .

ويضيفون الى هذا الاسم مرادفاً فيقولون « بدوي » اي ساكن
البادية ، وهو مرادف صحيح لان لفظة « عرب » في لغاتهم القديمة

كانت تعني الفلاة او البادية .

وما كانت مباعاة اهل البادية بطهارة المنصر وتقاء الارومة
مجردة عن الدليل . فهم لم يستخذوا يوماً لفانج ولا اختلطوا
بغيرهم فاتحين ، لان الفتوحات التي افتقرت باسمهم يعود شرف
القيام بها الى قبائل الطجاز واليمن . اما قبائل الداخل فلم ينسج
النبي منها الا نقر قليل ذاب به الطمع . لذلك ينعت النبي في
القرآن عرب البادية بالمعصاة الكفرة . وهم الآن هم ، على مر
الزمن ، محافظون باستقلالهم ، محافظون على ساداتهم الاولى . وما
ذكرته التواريخ القديمة عن عاداتهم واختلافهم ولغاتهم واوضاعهم
ما يرح يصح فيهم اليوم . فاذا أضفنا الى ذلك تلك الوحدة في
الطبع التي استمرت في ابعاد الازمنة وتستر الآن في ابعاد
الامكنة بمعنى ان القبائل على رغم تباعد ما يرحت متائلة
متشابهة ، تبث لنا الفائدة من درس الظروف التي لا يست هذه
الحالة المعنوية الخاصة .

يصعب علينا في اوربا ، وفي فرنسا بوجه خاص ، حيث
لا نرى شموياً متشردة ، ان نتصور ما يحمل الناس على هذا
النمط من المعيشة ، حتى اننا نتصور بصعوبة ما هي الصحراء ،
وكيف تاهل الارض الجلباء .

ان هناك عاملين يدفعات بعض الشعوب الاسيوية الى
الترحل . فالعامل الاول طبيعة الارض التي لا تصلح للزراعة ،
بما يضطر الناس الى اعتماد الحيوانات التي تقتع بالحشائش البرية .
فاذا كانت الحشائش موزعة متفرقة استهلكها الحيوان الواحد
في بقعة واسعة وفقت الضرورة عندئذ ان نجوب المواشي

واسمات القلاوات . تلك هي حالة العربان في صحراء الجزيرة
وفي صحراء افريقيا .

اما العامل الثاني فمما شاهدته العادات ، لان الارض صالحة للزراعة
وخصبة في كثير من الاماكن عند تخوم سوريا وفي ديار بكر
ومعظم المناطق التي يتوحد اليها الاتراك والتوكان ، ولكن تلك
العادات هي نفسها ناشئة عن الحالة السياسية التي تسود البلاد ،
بحيث يصح القول ان الحكومة هي علة العال . وهذا مما تثبته
الوقائع اليومية . فان العشائر والقبائل المتوحدة اذا وقعت على
بقعة تنعم بالسلم والسكينة مضاعفت الى كفاف الرزق ، فهي
تلبث فيها وتعمل المحراث . وانك ترى بالعكس ان الحكومة
اذا املت بالجزر على سكان قرية من القرى هجروها الى الجبال
او تشردوا في السهول محاذرين ان يستقروا في مكان قد يفتاؤون
فيه .

ويحدث كثيراً ان نفراً من الناس الفارين من متاول
الشرائع او المظالم يصبحون لصوصاً ، فيتغامون عصابات مسلحة
ويتكاثرون حتى تتألف منهم «اورضات» او قبائل جديدة ، ويصدق
القول اذن ان حياة الترحل عن الاراضي الخصبة سبباً فساد
الحكم ، لان الانسان ينزع بطبيعته الى الاستقرار واستغلال
الارض .

ويبدو ان العرب كتب عليهم التشرد بسبب طبيعة صحرائهم .
فلنمثل تحت سماء صافية لاهية سهولاً شاسعة تطل الابصار في
قلاوتها ولا تقع على شجر او جداول او منازل او جبال ، وقد
تنوء العين في آفاقها المنبسطة كالبحار . وقله اماكن تنهي فيها

الأرض بنموجات أو تشخص بينها الصخور أو ركام الحصن . وهي
أرض جرداء تخلخل عراصف نباتات متفرقة وشجيرات عوسجية
مبعثرة هنا وهناك . وفلسا الفلقت عزلتها الغزلان والإرانب أو
الجراد أو الجرذان .

للسك هي البلاد المندة من حلب حتى جزيرة العرب ومن
مصر حتى خليج العجم على مسافة ستائة فرسخ طولاً على ثلاثائة
فرسخ عرضاً . وأبست القوية واحدة في هذه البقاع الفسيحة ،
بل هي خصبة غضة عند النخوم المورية وفي شواطئ الفرات ،
وجيزة بيضاء في الناحية الداخلية الجنوبية ، وصخرية في صحاري
التيه والحجاز ، ووملية في الجانب الشرقي من اليمن .

ان هذه الفروق في خصائص الأرض تلاقى مثلها في حالة
البدو . فزى مثلاً ان القبائل ضئيلة العدد متباعدة المضارب في
النواحي المجنية كصحراء السويس والبحر الأحمر والقسم الداخلي
من الصحراء الواسعة المسماة بنجد . والقبائل أكثر عدداً وتدايماً
حيث الأرض أكثر كساء ، وهي كذلك بين دمشق والفرات .
وفي المناطق الصالحة للزراعة كولاية حلب وحوارن وغزة أكثر
التحبات وتتقارب . فالبدو في الحالتين الأوليين وعاء صرف يقنانون
من تناج مواشهم وشيء من النمر فضلاً عن اللحوم الطازجة أو
الجففة التي يستحبونها طبعاً . وهم في الحالة الثانية يعنون بالزراعة
ويصيفون إلى ما كمل اللحم واللبن القمح والشعير وحتى الأرض .

وهذا القحط في الصحراء ناجم عن افتقارهما إلى البياض
والأخضر . والحاجة إلى الماء ناشئة عن طبيعة الأرض ، فهي مسطحة
تتلاقى الغيوم على وجهها الطار كذا تنزل عن مصر . ولا تستقر

فوقها الا في الشتاء عندما تحول برودة الجو دون ارتفاعها اليه
وتحولها الى مطر . وعراء هذه الارض سبب جفافها ، فلو اكتسبت
بأحراش الصنوبر لتبدل فيها الحال والمناخ .

ومن حسنات الامطار انها تبسر امر الزراعة شتاء في الاراضي
التي توابها . ولكن الامطار لا تكون اليابسع ولا الجدول ،
فاذا اقبل الصيف رجع الجفاف الى سابق حاله . وقد حاول
السكان ان يتلافوا هذه الخفايا فاحفروا الآبار والركايا ليحتزنوا
فيها مؤونة السنة من الماء ، ولكن تلك الانشاءات تقضي اموالاً
والجهد ، فضلاً عن تعرضها لشتى الهطائر . فقد تلفت الحرب في
يوم واحد عمل اشهر طويلة وموارد السنة جميعاً . واذا حل
الجفاف ، وكثيراً ما يحل ، ذهب بالفلل وعم القحط ونضب
الماء . يصبح انك اذا حفرت الارض على اعماق معينة ، رأيت
الماء ينبس تحت قدميك ، ولكنه ماء اجاج شاذ في محل صحارى
جزيرة العرب وافريقيا ، وكثيراً ما ينضب فيتلاقى الضياء والجافة .
ولولا مساعدة الحكومة في هذا الصدد لافقرت القرى .

من البين ان الزراعة في بلاد كهذه محدودة المحاصيل ، وانه
من الاضيق لسكان يعيشون في ظل الحكومة التركية ان يعيشوا
رحلاً لا زراعاً مقيمين . وفي المناطق الصخرية او الرملية كالتيه
والحجاز ونجد تنعش الامطار العوسج والشج والحوذان ، وينمو
النصب والأعشاب المائية في المستنقعات ، فيكتسب السهل حبة بهجة

١ ان ملوحة الماء ناجمة عن طبيعة الارض وهي تنقل الى النبات ، وان كان مقدار
هذه الملوحة ينقص كلما اقتربت الارض من الجبال ، ولا ثبت ان تضمحل .

خضراء ، فينعم الطعام والرعاة بالفيض والحير زمناً ، حتى يعود
القيظ ، فيجف كل شيء ، وتعود الأرض غبراء فاحشة لا تظهر
فوقها إلا جذوع يابسة فاسية لا نفوى على رمبها الحيول ولا
الابقار حتى ولا الماعز .

وتصبح الصحراء عندئذ غير صالحة للسكن ويتعم عجزها ، لو لم
تفيض غدا الطبيعة حيواناً يضاهي بصلابته وقساوته عقوق
الأرض وجدها ، غلبت الجمل ، فما من حيوان مثله يتوافق مزاجه
ومناخها . فكان الطبيعة كيفته بالحوال البادية وميزاتها ، فأحلته
في بقاعها المجدية ، وكونته على وجه يستطیع معه مكابدة المشاق
وتحمل الجوع والظمأ . فلم تعطه شكل البقرة ولا طبيعة الخيل
أو الفيلة ، بل جعلت له رأساً صغيرة تعلو عنقاً طويلاً لا لحم
فيها ، وجردت فروائه من كل عضل لا يساعده على الحركة ، ورجته
فكاً قوية يسحق فيها أصلب الطعام ، وحاذرت ان يأكل كثيراً
فضيقت معدته واجبرته على الاجترار . وكست قدمه بكثرة من
اللحم تعرضه للانزلاق على الوحول ونحوه دون تساقطه أي مرتفع
بحيث لا يمكنه ان يسلك الا ارضاً جافة رملية مستوية الاديم
كأرض جزيرة العرب . وكانها أعدته للمبودية فبعت عنه الاتياب
وجردته من وسائل الدفاع . فما جعلت له قرن الثور ولا خفاص
الفرس ولا سن الفيل ولا خفة الابل ، فاي شيء يستطيعه الجمل
اذن لمقاومة الاسد او النمر او الذئب ؟

ونرى من اجل ذلك ان الطبيعة وارتد ، محافظة على بقاء
جنسه ، في قلب الصحاري الواسعة حيث يحول انعدام النباتات
دون اقبال الطوائد ، ويحول انعدام الطرائد دون اقتراب الضواري

المختارة .

ولولا عصا الظالمين التي طردت الانسان من الارض الآفة لما
فقد الجمل حريته ، ولكنه دجن واصبح الواسطة السكنى اجذب
الاراضي واعفها . فهو يبد حاجات لبياده جميعاً . فحليب الناقة
يفذي البدوي وعياله ، فمن ابن رائب الى جبن الى زبدة .
وكثيراً ما ينحرون الجمل الناساً للخصه ، ويضطجعون من جلده
النعال والامرجة ، ومن وبره الملابس والاخبية ، وينقلون على
ظهره اقل الاحمال . واذا ضنت الارض بالعلف على فرس البدوي
العزيزة عليه لم تضن عليه الناقة بالين ، دون ان تطلب عوضاً
الا بعض العوسج والشيخ وشيئاً من النوى المسحوقة .

تلك هي اهمية الجمل الذي لولاه لما اعلنت البادية بأنسي .
وتلك هي الاحوال التي هيأتها الطبيعة للبدو لتجعل منهم جنساً
بشرياً متميزاً بطبائعهم ، وتجعل السوريين ينظرون اليهم نظرتهم
الى قوم غير عاديين . ومن هؤلاء قبائل عنزة وخيبر وطى المتغلغلة
في البادية في منأى عن المدن ، وهي لا تقرب منها قط .

وفي ايام عمر الزاهر وصل بعض فرسانهم الى عكا فاثاروا
من الفضول بين السكان ما كان قد اثار مثله عند متوحشو اميركا .
فكان الناس ينظرون بدهشة الى اولئك الرجال وهم الخف بنية
واخجل جسماً واشد سواداً من اي بدوي عرفوه ، فشمه سيفان
جافة دقيقة ، وعراقيب دون ربلات ، وبطون لاصقة بالاصلاب ،
وشعر كشعر الزنوج مجعد . اما هم فكان كل شيء يدهشهم ، ولم
يكن باستطاعتهم ان يدركوا كيف ان البيوت والمآذن تبقى
منتصبة ، وكيف ينجرأ الناس على السكنى تحت سقوفها ، مستقرين

أبدأ في المكان الواحد . ولكن الذي اذهلهم بوجه خاص منظر
البحر ، هذه الصحراء المائية ، التي جاوزت افهامهم . وعيناً
حدثهم الناس عن اجلوامع والصلاة والوضوء ، فكانوا يسألون ما
يعني كل هذا ، وما عسى ان يكون موسى والمسيح وعهد ، ولم
لا يكون السكان قبائل متفرقة وانبايع زعماء متناهضين .

بيد ان عرب الحدود ليسوا بهذا المقدار من فلة الاختيار .
فئة عشائر وادي البقاع ووادي الاردن وفلسطين التي تعيش في قلب
البلاد لا تختلف حالها عن حال الفلاحين . ولكن عرب الصحراء
يمتقرون هؤلاء على انهم غير الفلاحين وعبيد الاتراك .

والبدو عامة صفار القامات ، تخاف الابدان ، مسقعو الوجوه .
ولكن هذه الميزات اكثر وضوحاً فيهم في قلب الصحراء منها في
جوار البلاد المحروثة . وهذا ايضاً تراعى ايضاً فيهم بمساكنهم في
جيرانهم الفلاحين . حتى انك تجد هذا الفرق نفسه في نزلاء القمم
الواحد . ولاحظت ان المشايخ وخدمهم اكثر بدانة واطول
قواماً من غيرهم . ومرد ذلك الى وفرة الغذاء عند اهل الفئة الاولى
وقلة عند اهل الفئة الثانية . ويصح القول ان البدوي العادي
يعيش في شقاء وشظف معاشه ، وقد لا يصدق عندما ان ما يتناوله
البدوي من الطعام يومياً لا يتجاوز زنته مائة وثلاثة وعشرين غراماً .
وهذا النقص يبلغ حده عند قبائل نجد والحجاز ، حيث يقطع
الرجل بست غرات او سبع مغموسة بالسمن المسبج وبعض اللبن

١ وهذا السبب يظهر مفعولاً ايضاً في المقابلة بين الجمال العربي والجمال التركماني .
فإنه الاخيرة تعيش في بقاع خصبة غنية بالمرعى مما جعلها اقوى عضلات واكثر لحمًا
من الاولى .

الحلو أو الرائب قوياً ليومه . وبحسب نفسه سعيداً إذا أضاف إليها بعض الدقيق الحشن أو كتلة صغيرة من الارض .

وهم يحفظون باللحم للاعباد الكبيرى ، ولا ينحرون الجداء الا في الاعراس أو المآتم . ومن حق المشايخ الاترياء ذوي السباح وخدمهم ان يذبحوا صغار النوق ويأكلوا الارض مطبوخةً باللحم . والبدوي لا يستكشف ايام القحط عن احقر الطعام . ومن هنا نشأت عادة في الزهاد الجراد والجردان والحراذين والحيات مشوية ، وفي التمدي على الحقول المزروعة وسلب المارة .

وهذا الغذاء الضئيل هو السبب في تخافة بنيهم وهزال اجسامهم التي هي اقرب الى الرشاقة منها الى الصلابة . وفي مزاجهم ما يستوقف نظر الطبيب . فاجسادهم قليلة الافراز حتى في العرق ، وهم يفتقر الى المصالة ، فلولا الحر الشديد لعدم سائلته . وهم مع ذلك صجاج الابدان ، واقل تعرضاً للأمراض من سكان الحضر .

ومن البديهي ان ان تلك القناعة في المعاش ليست فضيلة بعض اختيارية او ناجمة عن التسامح . لا شك ان الحرارة القصوى التي فيها يعيشون تحث من نشاط المعدة وتجعل هذا الزهد شيئاً مستطاعاً بسهولة . ولا شك ايضاً ان اعتيادهم القحط يحول دون تعدد المعدة ويصبح وسيلة لهم لمكابته . بيد ان العوامل الرئيسي في تلك العادة هو ، شأنه عند غيرهم من الناس ، إما الضرورات التي تفرضها عليهم طبيعة الارض ، على ما ذكرت ، وإما الحالة الاجتماعية التي هم فيها على ما سأذكر .

قد مر بنا ان عرب البادية منقسمون قبائلياً ، فكل قبيلة ارض تملكها . وهم لا يختلفون من هذا القبيل عن الشعوب

الزراعية الا يكون هذه الارض تمتد الى مدى اوسع يقتضيها
رعى القطعان على مدار السنة . ولكل قبيلة نجح او خف
موزعة في تلك البقاع التي يحيط العربان اجزائها تباعاً كلما جفت
المراعي . فلا يأكل من تلك الفلوات الا وقع تبدل من يوم الى
آخر ، ولكن القبيلة تجتازها في كل مداها استغناءً فواردها طوال
السنة . فمن تطاول على حدودها عداً مشتهكاً لحق الملكية . وهذا
ما لا يختلف عندهم عن شرعية الحقوق بين الامم . فاذا دخلت
قبيلة ارض غيرها عوملت معاملة اللص والعدو ، وتشبت الحرب .
ولما كان بعض القبائل مترابطاً بالنسب او الحلف فالحرب تشملها
عصبياً واحلافاً .

وهذه طريقة الحرب عندهم : اذا بلغ الاعتداء مسامع القبيلة ،
امسطن رجالها صهوات الجياد ونأثروا المعتدي . فاذا ما التقوه
فاوضوه ، وكنى ما نسالوا ، والا نهاجوا رجالة او فرساناً ،
وتقابلوا بالرماح المشرعة وقاموا بها على كونهما طويلة الساق .
وقلما تنازعوا الغلبة طويلاً ، فهي بنت الصدمة الاولى ، اذ يطلق
المغلوبون العنان لحيوهم ويديرون في سهول البادية حتى يوارهم
الظلام .

اما القبيلة المغلوبة فهي تنزع مضاربها وتبتعد في سير حثيث
سعيها الى ملاذ لدى بعض احلافها . فيسوق الظافرون قطعانها
وينصرفون ، ولا قلبت ان تعود بعد الفرقة الى مراتعها . بيد ان
القتال والنقل تمتد نتائجهما في ما يعقبها من احقاد تسمر معها
المنازعات . فثمة شريعة النار التي تفرض اقتداء دم القنيل بدم
القاتل ، وهو حق يؤول الى الضيق الناس باليت نسباً . فبات

أهم الأخذ بالأر لحق به العار ، وهو من أجل ذلك يتصيد
الفرس للانتقام ، ولا يرضيه أن يهلك خصمه بفعل غيره ، فيتجول
بانتقامه إلى أقرب الناس من ذلك الخصم . وتنتقل هذه الأحقاد
كالكارات من الأب إلى الابن ، ولا تحمد إلا بالتقراض أحد المتنازعين
أو نوافقيهما على قتل المجرم أو على قذبة من المال أو المشايبة .
وفيها خلا هذه القضية فلا صلح ولا مهادنة ولا مصاهرة بينها .
وقد يتعد التقاطع إلى قبيلتيهما ، فلا تعرض قضية أو مسألة حتى
تتعارف أن بينهما دم ، وهذا الكلام بمثابة السيف المنيع .
وتتعدد الحوادث على توالي الزمن ، فيقتل النزاع إلى معظم
القبائل حتى يصبح القول أنها في حالة حرب معنادة . وهذه الحال ،
بالإضافة إلى خط معيشة البدو ، تجعل منهم شعباً حروبياً ، على
كونهم لا ينتنون فنون القتال .

وتقوم محبتهم في شيء خالف غير منظمة تعاقب جوارها
حياتهم على خط واحد وفي أبعاد متفاوتة . وهي تسبح من وبر
الماخر أو الأبل . وألوانها سوداء أو غبراء بخلاف الخيبة التركمان
الضاربة إلى البياض . وتنصب على ثلاثة أولاد أو خمسة لا يزيد
علوها عن خمس أقدام أو ست ، بما يجعلها مفلطحة الشكل . وتبدو
هذه الخيول على البعد وكأنها تقع سوداء . ولكن البدوي يصره
النافذ لا يخطئها ولا يفوته فيزها .

فكل عيلة تقوم في خيمة يشطرها حجاب فاصل بين جزئها ،
واحدتها خاص بالنساء . وفيه قسعة تقوم في حواشي الخلفه لتخظر
فيها المشايبة كل مساء . وليس هناك مناريس تعصم الخيم ، فجراسه
الكلاب ، وهي العسس أيضاً . وتبقى الخيول ممرجة معللة

للكوكوب لدى اول نذير . ولكن حالة التجهيزات فوضى ، فلا نظام فيها ولا توزيع مهام ، فسهل مضاجعتها على من يهاجمها . ويؤدي ذلك الى ان كل يوم يشهد حوادث السلب والحطف التي هي شغل العرب الشاغل .

والحالة عند القبائل المجاورة للاتراك اشد قلقاً واضطراباً ، لان هؤلاء العرباء يدعون ملكية البلاد بحق الفتح وينظرون الى العرب نظراً الى الانبعاث المتعديين او الاعداء المقلقين للخطر ، فيسيرون في وجههم حرباً صامتة او معلنة . ولا يعدم الباشاوات وسيلة لاقلاقهم ، فتارة ينازعونهم ارضاً مستأجرة ، وتارة يكرهونهم على اداء جزية غير واجبة . واذا تخاصم شيخان على امر ، ظاهروا احدهما ثم الآخر حتى يقضيا على الاثنين معاً . واذا رهبوا جانب زعيم شجاع او حكيم اوقفوا به عن طريق السم او الحنجر ولو كان من اهلهم .

والعرب يعدون الاتراك مغتصبين خونة ، ويسعون ابداً الى ايذائهم . ولكن الانبياء يتحملون دون المذنبين سوء المآل . ويدفع الفلاحون غالباً ثمن ما جناه رجال الحرب ، اذ لا يكاد ينشب القتال حتى تنلف زروعهم ، وتذهب مواشيهم ، وتقطع سبلهم ، ويقضى على تجارتهم . فيصبح الفلاحون : الى اللصوص ! وهم على حواب . ويطالب البدو بحق الحرب ، وقد لا يكونون ملومين . ومهما يكن من امر ، فما كانت هذه التعديات الا لتجعل بين البدو والمزارعين تباعداً نستحكم معه العداوة .

تلك هي حالة العرب في خارج بواديهم . فهي عرضة الشتي الطوارئ والاحداث بحسب ما يكون مسلك زعمائهم حسناً او

ردياً . وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة الشأن يعظم شأنها وتسمو ، فيما
تنخفض قبيلة مرغوبة الجانب حتى يؤول امرها الى التلاشي ، ليس
بانقراض افرادها بل باندماجهم في قبيلة اخرى .

وتتألف القبيلة من بطن او بطون رئيسية يحمل افرادها لقب
الشيخ او السيد . وهي من هذا القبيل بمثابة اعيان روما في
الامس ، واشراف أوروبا اليوم . وبسودهم صاحب المقام الاول
فيهم ، وبلي جميع امورهم ، وقد يلقب بالامير . وكلما ازداد عدد
اقربائه واولاده واحلافه قويت شوكتهم وعلا قدرهم . ويلتحق به
عدد من الخدم يصبحون عائلة عليه . وقد تنضم اليه اقخاذ اخرى
ضخمة المقام تنتقل الى حماة وملأه . ويسمى هذا التضام قبيلة ،
فيميزونها من غيرها باسم رئيسها وباسم العشيرة السائدة فيها . واذا
اشاروا الى افرادها فادومهم اولاد فلان . وان لم يكونوا من
دمه وكان قد توفي منذ زمن بعيد . فيقولون : بني قيم ، واولاد
علي . وقد انتقل هذا الضرب من الكلام الى اسماء البلدان على
سبيل المجاز ، فقالوا اولاد مصر واولاد الشام ، وقد يقولون اولاد
فرنسا واولاد موسكو . وما كان هذا الامر خالفاً من الاهمية
لبن توخي الايقال في التاريخ القديم .

ان الحكم الذي بسود تلك الجماعة جمهوري وارستقراطي حتى
واستبدادي في وقت معاً . ولا يصح الجزم انه هذا او ذاك .
فهو جمهوري لان الشعب صاحب الكلمة الاولى في جميع النضاي ،
ولا يقضى بشيء الا برضى الغالبية وموافقتها . وهو ارستقراطي
لان امرة المشايخ تنعم بامتيازات تستند الى القوة . وهو
استبدادي لان للشيخ سلطة متناهية تكاد تكون مطلقة . فاذا

كان شديد المراس استطاع ان يتجاوزها . ولكن هذا التعسف يقف عند حدود ضبطها . فاذا اثنى الشيخ مظلة ، كانت يقتل عربياً ، فلا مفر له من العقاب ، ولا تحول رفعة مقامه دون تطبيق شريعة النار عليه . فاذا تمتع عن اداء فدية الدم قال حتماً ، وهو امر سهل على من يباشره .

واذا ارهق الشيخ رعاباه بقسوته تجاوزوا عنه الى قبيلة غيره . ويضيق اقرباؤه من سطوته فيظلموه ليظلموه . فلا يستطيع ان يستغفر عليهم العرباء ، او ان يفرقهم شعباً واحزاباً باغرائهم او دشوتهم . فهو لا يتقاضى القبيلة مكوفاً او خرائب ، لان معظم رجالها في عسر حال ، في حين ان ما يملكه زعيم مثل بالنفقات .

اجل ، ان الشيخ يدفع نفقات الذهاب والاياب ويستقبل الزائرين من حلفاء واصحاب مهابات ، ويقوم على مقربة من خيمته مضرب واسع يتزل فيه الغرباء وعابور السبيل ، وتعتد فيه اجتماعات المشايخ بالاعيان لتفارض في الوحييل او الإقامة ، وفي الصلح او الحرب ، وفي امر المشاكل مع الاثراك ، وفي فصل القضايا والمنازعات بين الافراد . وتقدم هذه الوفود القوية والحيز والارز ، وفي بعض الاحيان الجدي او الجمل مشوياً . وخلاصة القول ، على الشيخ ان يكون واسع الدار ، مبسوط السباط . وتقرض عليه هذا الكرم ضرورة المحافظة على نفوذه وسلطانه ، فيها منوطان يبلغ سخاؤه وسجانه . والبسودوي الجائع يضع في رأس الفضائل فضيلة الكرم التي توفر له الغذاء . وما كان هذا الاعتراف باطلاً ، فقد اثبت الاختيار ان المشايخ الاخفاء لم يكونوا

يوما بعيدي النظر ، وهذا ما يور قولهم : « كف متقبضة وقلب مغلق » .

وليس للشيخ ، احد هذه النفقات ، الا قطعانه وبعض الحقول المزروعة ، وغشائه من الغزوات ، وبعض افوى يتقاضاها عابري السبيل . وهو ربيع محدود ضئيل على ما ترى . ان الشيخ الذي قصدت اليه في غزه في اواخر سنة ١٧٨٩ كان بحسب اعظم مشايخ تلك الانحاء شركة وجاهاً . على اني لم اتبين ان نفقاته تزيد على نفقات مزارع كبير . وكانت منقولاته عبارة عن اعيان وسجاد واسلحة وخيول وإبل لا تجاوز قيمتها خمسين الف ليرة ، مع الملاحظة ان ثمن الجمل الواحد عشر ذهبات فرنسية ، وثمن الخيول الاصيله الاربعه التي كانت له سنة الف ليرة . فاذا تحدثنا عن البدر ، والحالة هذه ، وجب الا نضللنا كلمة « الامير » او « المولى » . فمدلولها عندهم اقرب الى الحقيقة اذا فاهلنا مشايخهم بمزارعي الجبال السليحي الطوية الذين يقاتلونهم في بساطة الملابس والحياة المنزلية والاخلاق .

ورب شيخ يقود جماعة فارس لا يستصكف من ان يسرج فرسه ويلجمها بنفسه او يقدم لها العلف تبناً وشعيراً . وامراته ، في خباته ، تعد الفوة ، وتخبز وتطبخ ، ويتناكه وقريباته يغسلن الثياب ، ويضعن الى العين منججيات ، ويحملن قلى الماء على رؤوسهن ، كأنهن الصورة التي رسمها هوميروس والنوراة في قصة ابراهيم . وهي صورة يصعب على المرء ان يتسلها ما لم يشاهدها عياناً .

١ لا تدري ما هي قيمة الليرة في ذلك الزمان . واعلم ان قيمة الفرنك . - المرب .

يقاس فقر البدوي بفقر رئيسه . وكل ما تملكه العشيرة
يقتصر عادة بما يأتي : بعض الجمال والنوق والماعز والدجاج ،
والفرس مع سرجها ، والحنية ، ورمح طوله ست عشرة قدماً ،
وسيف معقوف ، وبارودة صدئة بقذاحة أو اكرة ، وغليون ،
ومطبخة نقالة ، وفذار ، ونحي من بجلد ، ومخضعة لبن ، وحصيرة ،
وبعض الالبسة ، ورداء من الصوف الاسود . وثمة بعض الخلاخل
الزجاجية أو الفضية تحملها النساء في الذراع أو الساق . فإذا توافر
هذا كله كانت العشيرة في سعة من العيش .

ان ما يعوز البدوي في الدرجة الاولى الفرس ، فهي وسيلة
رفيعة في الغزوات وقطع السبل ، وهي مفضلة عنده على الجواد
لانها لا تصهل ، وانها اكثر طواعية منه ، فضلاً عما تدره المدارسها
من لبن يرتوي به عند الحاجة او ينخذه طعاماً .

والبدو بسبب ضيق معاشهم لا يتفننون الصناعات ، فهي بنسبة
حاجاتهم . وكل ما يعرفون منها تسج الاخشية والحصائر ، واستخراج
السنن . ويقتصر متاجرهم على مقايضة الجمال والماعز والاحصنة
والالبيان بالاسلحة والالبسة وبعض الارز او القمح ، وشيء من
التفود يطبخونه . وليس عندهم علوم ، ولا يلدون أي المام بعلم
الفلك او الجبر او الطب . ولا كتب عندهم قط . واندر ما
يعرفونه القراءة ، حتى الشيوخ منهم . ومدار البيان عندهم رواية
القصص والاعبار كقصة الف ليلة وليلة مثلاً . وهم شغف خاص
بتلك الافاصيص ، فهي تملأ معظم اوقات الفراغ عندهم ، واولقات
الفراغ عندهم طويلاً .

وفي المساء يجلسون على الارض عند باب الحباء ، او تحت اذا

كان الفراء بارداً ، فيجتمعون على شكل حلقة حول نار من الروث
المجفف ، والغلابين في افواههم . ويستمرسون باديء ذي بدء في
احلامهم صامتين . ثم يقطع احدهم السكوت فجأة ، فيبدأ بهذا
الكلام : « في ذلك الزمان وسالف العصر والاولان ... » حتى يأتي
على آخر قصة شيخ فتي وبدوية نضرة ، فيخبر كيف لحها الفتي
للمرأة الاولى خلعة وشغف بها . ثم يصف الجملة بجميع قسائها ،
ويطري عذبا السوداوين الواسعتين الناعمتين كعربي الغزالة ،
ونظرها الكئيب المشتاق ، وحاجبيها المتحنيين وكأنها فوسان من
الآبوس ، وقوامها اللين المستطيل كالرمح . ولا ينسى مشيتها
الرشيقة ، وفي كالمز الفتي ، وحديقها السودتين بالكحل ، وشفتيها
الموشومتين ، واظفارها المصبوغة بخضاب ذهبي ، وصدرها المثقل
برمانتين ، وكلامها وهر قطرات العسل .

ويذكر كيف تفعل الاشواق فعلها في الفتي الوهاث فتضني
جسده حتى يصبح ظلا هزيلًا . ثم يتبسط في تفاحيل محاولاته
ليحظ برؤيتها ، وتنتع اعليها ، وأمرها وأمره ، حتى ينتهي الى
الجمع بينهما سعيدين في خبائه .

وتقابل عندئذ اصوات السامعين : « ما شاء الله ! »

وللبدر اغنيات غرامية هي اقرب للطبع والشعور من اغنيات
الترك واهل الحضر . ذلك ان اولئك اعزاء يعرفون الحب ، فيما
يستهلك هؤلاء للشهوات فلا يعرفون الا الاستمتاع . وكثيراً ما
قابلت بين حالة البدر القاطنين في الصحراء بنوع خاص ، وحالة
هنود اميركا ، فرأيت بين كليهما مشابة من عدة وجوه ، وقلت في
نفسي : لماذا لا نوى عند العربان شراء هنود اميركا ؟ ولماذا لا

نجد عندهم هذا الميل لأكل اللحوم البشرية ، في حين أنهم يكابدون
الفتنة والمجاعات ؟ وما هو السبب في أن أخلاقهم أقرب إلى
السلاسة والامتزاج بالجميع ؟

واليك الأسباب التي استخلصتها من واقع الحال :
أن أميركا غنية بالمراعي والبيوت والغابات ، وما كان أحراها
أن تكون بلاد الرعاة . ولكن غاباتها ملاذ الحيوانات ، فهي تعصم
فيها بعيدة عن سلطة الإنسان . والهندي من أجل ذلك مسوق
بطبيعة الأرض إلى الطراد والقتص ، فهو صياد لا راع . وقد
سأمت جميع عاداته الملازمة لحالته في حيورونه رجلاً جافياً
خشن الطباع ، واكتسبت مشقات القنص جسمه صلابة وخشونة .
ويتنابه جوع شديد بسنده فجأة بفيض من لحم الطرائد فيصبح
هيماً غيماً . وقد تعود سفك الدماء ونزريق الطريدة فألف القتل
ومشهد الألم . فإذا غفته الجوع انتهى اللحم . وإذا برى لحم قريبه
في تناوله يأكله بسائق طبعه . وتبعث تجربته الأولى عادة تأصلت
فيه ، حتى أصبح سفكاً شرساً ، وانتقلت إلى نفسه غلاظة أعضائه .
أما حالة العربي فهي جد مختلفة ، لأن الإقدار رمنه في سهول
واسعة عارية لا ماء فيها ولا غاب . فلم يكن له أن يصبح
صياداً لانعدام الطرائد في كل ما جاوره . وحمله الجمل على اعتياد
حياة الرعاة التي تألفت منها عناصر مزاجه . ورأى في تناوله
طعاماً كافياً مسنوراً على كونه سيئاً ، فعومد القناعة . واكتفى
باللبن والنمر فلم يشته اللحم ولا سفك الدم . وما تعودت يده
القتل ، ولا ارتاحت أذنه إلى أنين الوجع ، واحتفظ بقلبه الإنساني
الرفيق .

ولما عرف هذا الراعي الحمجي كيف يستخدم الفرس تغيرت
حالته بعض الشيء ، وسهل عليه أن يقطع واسع الفلوات بسرعة
فأصبح منترداً . وبعد أن كان جشعاً بسبب القحط أصبح لصاً
بسبب الطمع . وعلى هذه الصورة استقر طبيعته ، فهو غياب أكثر
منه محارباً . وما كانت شجاعته دموية ، لأنه لا يهاجم إلا لأسباب .
فإن لقي مقاومة لا يرى في الغلبة ما يبرر المخاطرة بحياته . ولا
يهرجه إلا سلك دمه . فتراه عندئذ مقدماً على الانتقام ببأس يضاهاى
حرجه السابق على تجنب الخطر .

وكثيراً ما نعوأ على العربان مباهم إلى الغزو . وإلى أن
كنت لا أعذرهم عليه أرى أنهم لا يغزون إلا الغريب الذي يعتبرونه
عدواً . فالغزو يرتكز إذن إلى سنف مألوفة عند معظم الأمم .
أما المجتمع عندهم فيسوده من الثقة والتجرد والكرم ما يشرف
أشرف الناس في الحضارة . فذي شيء هو أنبل من حق الضيافة
الذي تقدمه جميع قبائلهم ؟ إذا جاءهم غريب ، ولو كان عدواً ،
ومن خيمة البدوي ، أصبح في حرز حرز . ومن العار والمذلة
أن يثار الأعرابي من خيمته ، وإذا رضي البدوي أن يؤاكل ضيفه
والخبز والملح ، كان ذلك ميثاقاً على أنه لا يخرقه ، فيحفظ عهده
ولا يتحول عنه .

إن السلطان ، على صوابه وشوكته ، قد لا يستطيع استرداد
لاجيء في قبيلة ، ما لم يفنى القبيلة عن بكرة أبيها . إن هذا

١ ضيوف العرب ثمان : منهم المنجبر ، وهو الذي يستعين حسانتهم ، ومنهم
المطاب ، وهو من يتهد أطباب خيمته لي جوار خيامه ، فتكأه جانبهم .

البدوي الجشع خارج محبته ، ما انت تطأ قدماءه حي فيلانه
 حتى يصبح جواداً سخياً . ومهما يكن ، ما يلكه زهداً فهو
 يقاسم غيره عليه . وفيه من رقة الثمائل ما يدفعه الى هذا السباح
 دون ما طلب . فاذا جلس الى الطعام ، لم يجلس الا عند
 مدخل خيمته ليدعو غايوي السبيل . وهو صادق في كرمه
 فلا يحسبه فضيلة يحمد عليها ، بل واجباً مفروضاً عليه . وتراه ،
 من اجل ذلك ، يأخذ من مال الآخرين ما خوهم من حق على
 ماله ، حتى تحسب انت طريقة المعيشة عند العرب بسودها
 نظام الشراكة في المكتنيات . بيد انهم يعرفون الملكية ، ولكنها
 لا تخضع عندهم لتلك الصرامة التي تنسب بها عند القوم المزارعين
 بسبب اتساع حاجات الترف . وهم مدينون بتلك القناعة الى
 تعذر تنعمهم بكل ضرور الاستمتاع . على انه وان تكن
 فضائل الجمهور عند العرب وليدة الضرورات والاحوال ، فما كانوا
 من اجل ذلك اقل جدارة بالتقدير والاعجاب . فحسبهم نعيماً
 ان تكون تلك الضرورات قد اقامت عندهم طريقة حكم يرى
 عقلاء المتشرعين انها افضل طرائقه ، غلبت بها تلك المساواة في
 اقسام المال وتوزيع المراتب بين الطبقات . فهم ، وقد حرمتهم
 الطبيعة وجوه الاستمتاع التي جادت بها على غيرهم ، اقل
 تعرضاً لعوامل الفساد والمهانة ، حتى ليضعب على مثائهم انت
 مجزأوا من الجماعة نفراً يعمل على استعبادها واضعافها . واذا كان
 باستطاعة الفرد ان يكفي نفسه مؤثنتها ، فهو يحفظ بطابعه
 واستقلاله ، حتى يصح القول انه يجد في الفقر مصدر حريته العامة
 وحياتيتها .

ان هذه الحرية تشمل الشؤون الدينية نفسها . فبين اهل الحضارة والبدانة من هذا القبيل فاروق جدير بالنظر ، اذ بينا يكابد الاولون نيرين من الاستبداد السياسي والديني ، نرى ان الآخرين معتقدين من كليهما .

من البين ان البدو المتأخين للتواكس ما يرحوا ، من باب السياسة ، يحتفظون ببعض المظاهر المذهبية ، ولكن تسكهم بها يشوبه التراخي وقلة الاعتداد ، مما يجعلهم في نظر سوام كفاراً لا شريعة لهم ولا انبياء . وهم يقولون دون محاسبة : ان الدين لم يسن لامثالنا ، اذ كيف ينهانا الوضوء ولا ماء عندنا ؟ وكيف تؤدي الزكاة ولا مال لنا ؟ ولم نعصم رمضان ونحن نقضي السنة صياماً ؟ ولم نخرج الى مكة والله في كل مكان ؟

وكل منهم يتصرف بحسب هواه ويفكر وفق مشيئة . ويسودم التسامع النام ، على ما تبين من حديث كان لي مع الشيخ احمد بن بكر زعيم العشيرة الواحدية .

فقد قال لي ذلك الشيخ : « ماذا تنوي الرجوع الى الفرنجة ما دمت لا تنفر من عاداتنا ، وتعرف معالجة الرمح ، وركوب الخيل ؟ فامكنت عندنا ، نعطك عبا وخباء ، ونزوجهك بدوية ذات حسن وحشية ، ونهبك فرساً اصيلة ، ونزلك ربعا على الرحب والسعة . »

فقلت له : ألا تعلم اني ولدت بين الفرنجة ونشأت على دينهم ؟
فما عسى ان يظن العرب في رجل كافر جاحد ؟
فقال :

— ألا ترى ان العرب لا يأنهون لامور الدين ، واننا نتبع

طريق الضيق والوجدان ، فالاعمال للناس والدين لله .
وحدث ان شيخا آخر كنت في حديث معه وجه اليّ هذه
العبارة دون ان يتعمدها . قال : اسمع واصل علي النبي ، فعوضاً
عن ان اجيبه الجواب المعتاد : صليت ، قلت له مبتسماً : انني
مصغ اليك .

فأدرك الشيخ خطاه وتبسم هو ايضاً . وكان يسمع الحديث
توكي من القدس ، فقال وجدة في كلامه :
- ايها الشيخ ، كيف توجه الى كافر كلاماً لا توجه الى غير
المؤمنين ؟

فأجابه الشيخ :

- هي زلة لسان . ولكن القلب سليم . اما انت الذي تعرف
عادات العرب فكيف يجوز لك ان تهين غريباً آكله الخبز
والمالح ؟

ثم انتهى اليّ وقال :

- هل ان شعوب « فرنكستان » الذين حدثني عنهم ، والخارجيين
على دين الرسول ، هم أكثر عدداً من المسلمين ؟

فقلت : انهم ستة اضعاف المسلمين بما فيهم البدو ...

فقال : تعالى ربك العادل ، فهو يزن الاعمال في موازينه .
يجب الاقرار ان الامم المتحضرة قلما تعرفت الى خفقات
كخفقات غرب البادية الجردية بالاعجاب . وانك تجد الفضائل
نفسها بين التوكان والاكراذ ، ولعلها من خصائص حياة
الوعاة .

ومن الغريب ان هؤلاء القوم قلما اعتدوا بمواسم الدين الخارجية ،

فلا كهان ولا معابد ولا عبادة منتظمة عند البدو والتركمان
والأكيراد .

وقد آن لنا الآن ان نتصرف الى وصف سائر الشعوب النازلة
بلاد سوريا ، ونعالج حالة اجنابية اخرى بعد مختلفة .

المقدمة

٥	كلمة المغرب
٧	المقدمة

القسم الأول

طبيعة مصر

١٢	الفصل الأول : مصر عامة ومدينة الاسكندرية
٢٢	الفصل الثاني : النيل واتساع الدلتا
٣٢	الفصل الثالث : ارتفاع الدلتا
٤٦	الفصل الرابع : في الرياح وأعراضها
٤٩	السموم أو الحمى
٥٣	الفصل الخامس : المناخ والغذاء

القسم الثاني

حالة مصر السياسية

٥٧	الفصل السادس : سكان مصر واجناسهم المختلفة
----	---

٧١	الفصل السابع : موجز تاريخ الممالك
٨٠	الفصل الثامن : موجز تاريخ علي بك
	الفصل التاسع : موجز الحوادث منذ موت علي بك
٩٧	حتى السنة ١٧٨٥
١٠٨	الفصل العاشر : الحالة الواقعة في مصر
١١٠	الفصل الحادي عشر : ميليشيا الممالك
١١٢	اليسة الممالك
١١٣	جهاز الممالك
١١٥	أسلحة الممالك
١١٦	تدريب الممالك وقاربهم
١١٧	الفن الحربي عند الممالك
١١٩	الانتظام عند الممالك
١٢١	آداب الممالك
١٢٣	الفصل الثاني عشر : حكومة الممالك
١٢٤	حالة الشعب في مصر
١٢٦	الشفاء واقامة في السنوات الأخيرة
١٢٣	حالة الفنون والنفوس
١٣٥	الفصل الثالث عشر : حالة التجارة
	الفصل الرابع عشر : يوزخ السويس ومسألة اتصال البحر
١٣٨	الاحمر بالبحر المتوسط
١٤٤	الفصل الخامس عشر : الجمارك والضرائب
١٤٦	تجارة الفرنجة في القاهرة

١٥٠	.	.	.	الفصل السادس عشر: مدينة القاهرة
١٥٢	.	.	.	سكان القاهرة والفطر المصري
١٥٤	.	.	.	الفصل السابع عشر: أمراض مصر
١٥٤	.	.	.	العمى
١٥٦	.	.	.	الجدري
١٦١	.	.	.	الصناعون
١٦٥	.	.	.	الفصل الثامن عشر:
١٦٥	.	.	.	صورة موجزة عن مصر
١٦٩	.	.	.	مبانيات الرخايف
١٧٢	.	.	.	الفصل التاسع عشر: الخرائب والأهرام

القسم الثالث

سوريا الطبيعية

١٨٠	.	.	.	الفصل العشرون: الجغرافيا والطبيعات
١٨١	.	.	.	مظهر سوريا
١٨٢	.	.	.	الجبال
١٨٧	.	.	.	طبيعة الجبال
١٨٩	.	.	.	البراكين والزلازل
١٩٠	.	.	.	البحار
١٩٣	.	.	.	الأنهار والبحيرات
١٩٥	.	.	.	المنابع
٢٠١	.	.	.	خصائص الهواء

٢٠٢ . . . خصائص المياه

٢٠٣ . . . في الرياح

الفصل الحادي والعشرون : نظرة في عوارض الرياح والغيوم
والامطار والضبب والصواعق ٢٠٦

القسم الرابع

الحالة السياسية في سوريا

الفصل الثاني والعشرون : سكان سوريا ٢٢٢ . . .

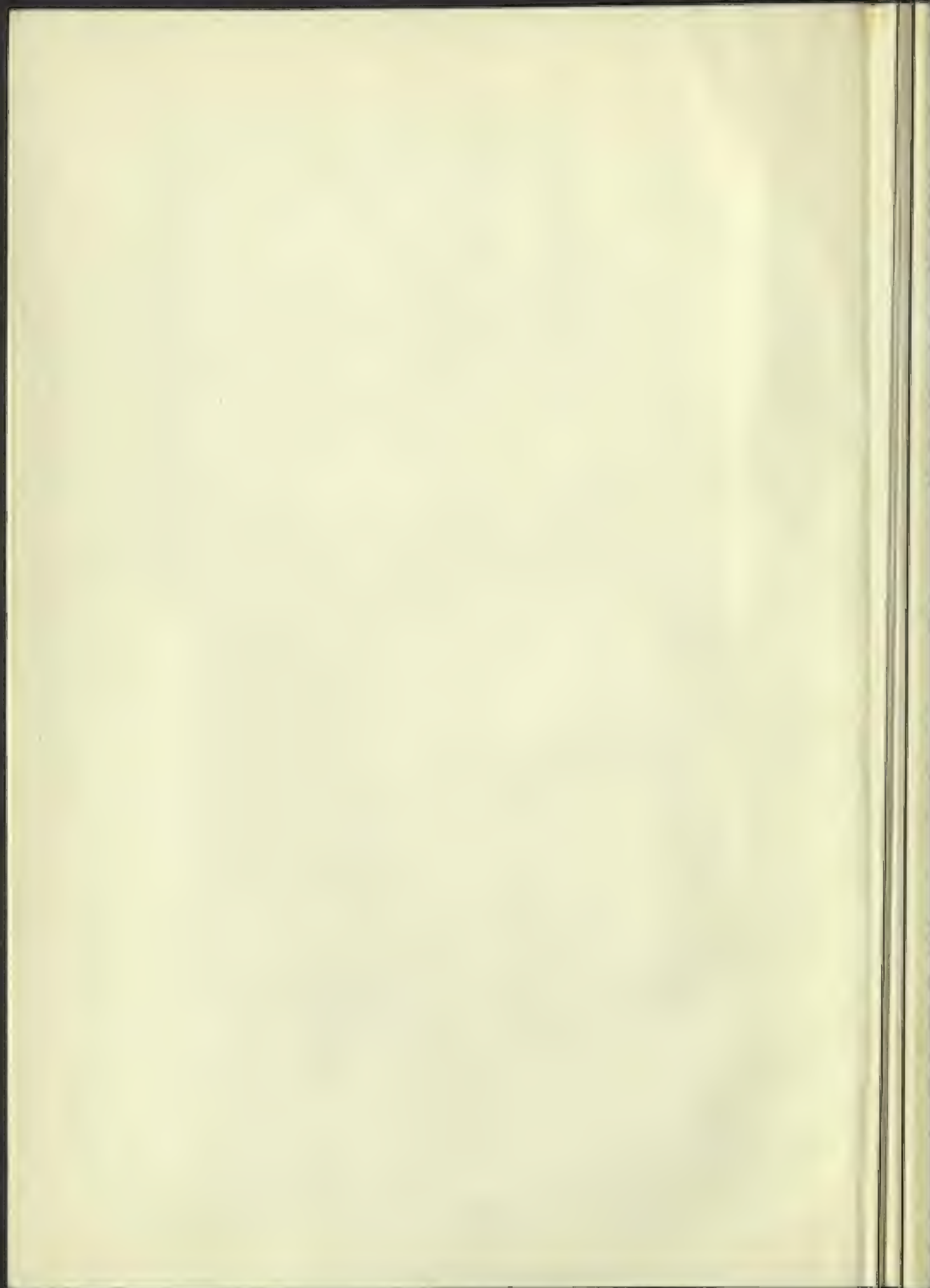
الفصل الثالث والعشرون : الشعوب الرعاة او الرحل ٢٢٩ .

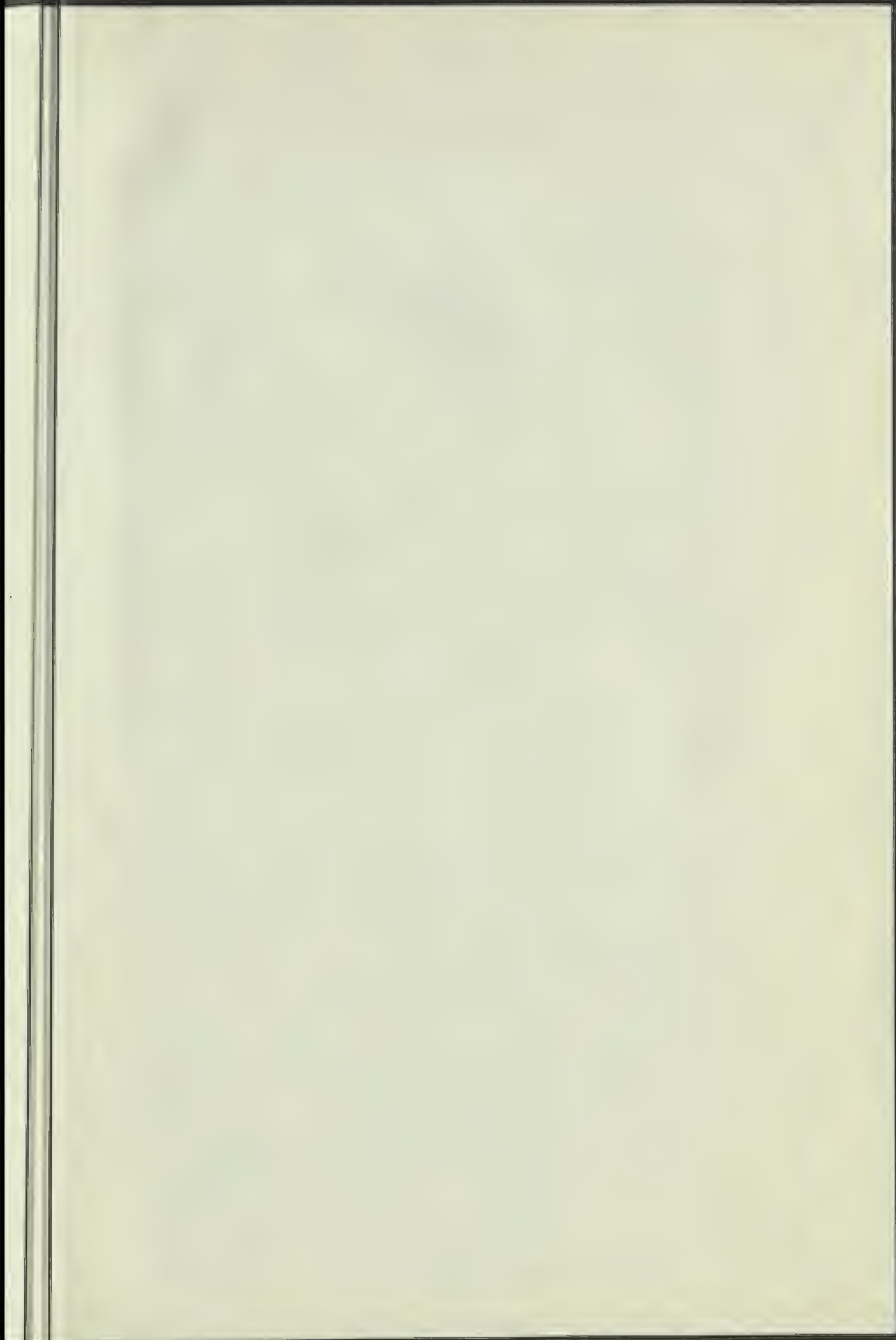
٢٢٩ . . . التركمان

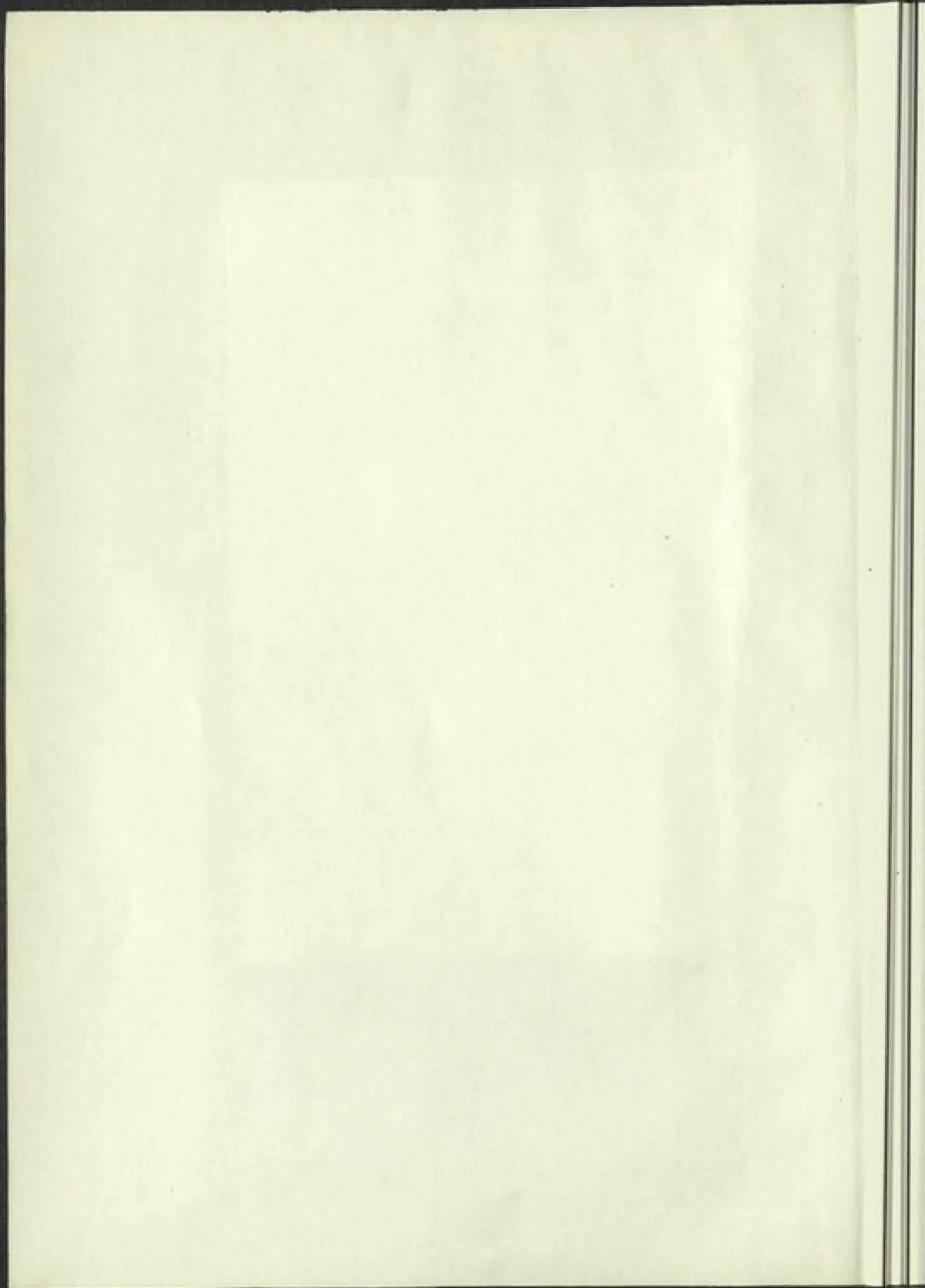
٢٣٠ . . . الاكراد

٢٣٢ . . . عرب البادية

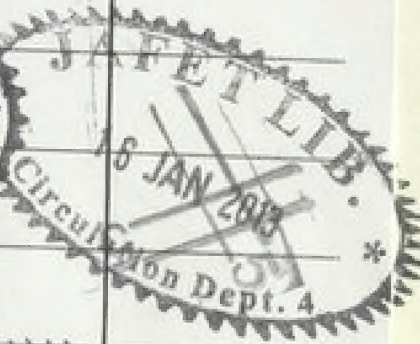
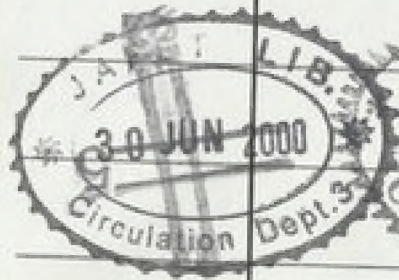
اتتم طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الاول من تشرين الثاني
سنة تسع واربعين وتسماية والف .







DATE DUE



915.69:V92tAb:v.1:c.1

البيسنانى، ادوار

ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01040093

915.69
V92tAb
v.1

